

UNIVERSAL
LIBRARY

OU-234355

UNIVERSAL
LIBRARY

٢٩٤٥٥٩

٢٠٠٠

٨٢٨

تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والتجارة والصناعة فيها ونظام
الهيئة الاجتماعية وآدابها والعادات
والاخلاق الخ

تأليف

عمر زكي

منشور الهلال

الجزء الثاني

في ثروة الدولة الاسلامية وثروة رجال حكومتها وخلفائها
واسباب تكون تلك الثروة واسباب انحطاطها وثروة المملكة ومدنها وقراها

مطبعة الهلال بالقاهرة

سنة ١٩٠٣

مقدمة

في مثل هذا اليوم من العام الماضي صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وكان لصدوره تأثير في عالم الاقلام لاهمية موضوعه وحداثة عهده في هذا اللسان . فقرظته الصحف وكتبت فيه المقالات الانتقادية ووردت اليها كتب الفضلاء من رجال العلم في مصر وسوريا واوربا واميركا وفارس والهند مشحونة بعبارات التنشيط والاستحثاث على المثابرة في هذا السبيل وفيهم من لم يكن يظن تأليف هذا الكتاب ممكناً لقلة المآخذ المساعدة على ذلك فزادنا هذا كله نشاطاً واقداماً على هذا العمل الجليل

ومن غريب ما اتفق لنا في اثناء تأليف هذا الكتاب اننا اعلنا عز منا على تأليفه ونحن لا نتوقع ان يجتمع عندنا من مواد ما يزيد على مثل هذا الجزء فلما شرعنا في درس الموضوع والتنقيب عما ينطوي تحته من الابحاث الفلسفية التاريخية مما يتعلق بعوامل التمدن الاسلامي انكشف لنا من احوال ذلك التمدن ما لم يكن يخطر بالبال فانسع المجال للقلم فرأينا الموضوع يشغل اربعة اضعاف ما قدرناه . فاصدرنا الجزء الاول وفيه مقدمات تمهيدية عن حال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الأخيرة ثم ظهور الاسلام وانتشاره ونشأة الدولة الاسلامية وتواريخ مصالحها وجندها وبيت مالها . وقلنا في مقدمة ذلك الجزء اننا سننشر بقية الكتاب في ثلاثة اجزاء أخرى في مثل حجمه

فلما باشرنا كتابة الجزء الثاني زاد المجال اتساعاً ولم يعد يكفي الباقي منه اربعة او خمسة اجزاء غير هذا بحيث تزيد اجزاء الكتاب كلها على ستة اوربا سبعة اجزاء مما لا يمكن تحديده الاً بعد الفراغ من كتابته

مقدمة

في مثل هذا اليوم من العام الماضي صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وكان قصوره تأثير في عالم الاعلام لاهمية موضوعه وحداثة عهده في هذا اللسان . فقرضته الصحف وكتب فيه المقالات الانتقادية ووردت اليها كتب الفضلاء من رجال العلم في مصر وسوريا واوربا واميركا وفارس والهند مشحونة بعبارات التنشيط والاستحثاث على المثابرة في هذا السبيل وفيهم من لم يكن يظن تأليف هذا الكتاب ممكناً لقلة المآخذ المساعدة على ذلك فزادنا هذا كله نشاطاً واقداماً على هذا العمل الجليل

ومن غريب ما اتفق لنا في اثناء تأليف هذا الكتاب اننا اعلنا عزمنا على تأليفه ونحن لا نتوقع ان يجتمع عندنا من مواد ما يزيد على مثل هذا الجزء فلما شرعنا في درس الموضوع والتنقيب عما ينطوي تحته من الابحاث الفلسفية التاريخية مما يتعلق بعوامل التمدن الاسلامي انكشف لنا من احوال ذلك التمدن ما لم يكن يخطر بالبال فأتسع المجال للقلم فرأينا الموضوع يشغل اربعة اضعاف ما قدرناه . فاصدرنا الجزء الاول وفيه مقدمات تمهيدية عن حال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الأخيرة ثم ظهور الاسلام وانتشاره ونشأة الدولة الاسلامية وتواريخ مصالحها وجندها وبيت مالها . وقلنا في مقدمة ذلك الجزء اننا سننشر بقية الكتاب في ثلاثة اجزاء أخرى في مثل حجمه

فلما باشرنا كتابة الجزء الثاني زاد المجال اتساعاً ولم يعد يكفي الباقي منه اربعة او خمسة اجزاء غير هذا بحيث تريد اجزاء الكتاب كلها على ستة اوربا سبعة اجزاء مما لا يمكن تحديده الا بعد الفراغ من كتابته

اما هذا الجزء فموضوعه « ثروة المملكة الاسلامية » وهي ركن عظيم من اركان ذلك التمدن . وقد قسمنا البحث فيها الى « ثروة الدولة الاسلامية » اي ثروة الحكومة ورجالها والى « ثروة المملكة الاسلامية » اي ثروة البلاد واهلها . ومبحثنا في ثروة الدولة بمبحثاً تاريخياً فلسفياً فابنداً تاريخياً تلك الثروة من ايام النبي فالخلفاء الراشدين فبني أمية فالعباسيين . وبدناً الاسباب التي دعت الى تقلب هذه الثروة واختلافها باختلاف تلك الدول وعلاقة ذلك بطبيعة كل دولة ونظامها وقوانينها . حتى وصلنا الى ثروة الدولة الاسلامية في العصر العباسي فقسمناه الى عصرين « الأول » وهو العصر الزاهر و « الثاني » او عصر الانحطاط . وفي العصر العباسي الاول تضجعت الثروة وبلغت معظمها ففصلنا الكلام فيه تفصيلاً . وصدرناه بتمهيد في تاريخ ذلك العصر وما ساعد على قيام هذه الدولة . ثم عمدنا الى النظر في ثروة الدولة العباسية وقبل الشروع فيه اتينا بفدلكة في جغرافية المملكة الاسلامية في القرن الثالث للهجرة شفّعناها بخريطة لبيان نسبة الولايات الاسلامية بعضها الى بعض . ثم ذكرنا ثروة العباسيين من ايام السفاح والدولة في طفوليتها حتى بلغت اشدها في ايام الرشيد والمأمون فأتينا بثلاث قوائم مالية عن ارتفاع جبايتها في ايام المأمون وبعيده وقابلنا بينها . فكان مقدار ما بقى في بيت مال الحكومة نحو ٣٠٠ مليون درهم في السنة وهي بقية لم تنفق لدولة من الدول . فعمدنا الى النظر في اسباب تلك الثروة فافضى ذلك الى النظر في مصادر الجباية ونفقاتها واسباب كثرة الخراج وقلة النفقة . فاسباب كثرة الخراج اربعة (١) سعة المملكة الاسلامية (٢) اشتغال الناس في الزراعة وتعمير البلاد (٣) ثقل الخراج المضروب (٤) صدق العمال في توريد المال المجموع . واسباب

قلة النفقة ثلاثة (١) قلة الموظفين (٢) عدم وجود الدين على الحكومة
(٣) اقتصاد الخلفاء الاولين

ولما فرغنا من الثروة العباسية في العصر الأول نظرنا في احوالها في عصر
الانحطاط وقدمنا الكلام بفصل في علة ذلك الانحطاط ثم مقدار الجباية
في ذلك العصر . وبحثنا في سبب تناقصها فحذا ذلك بنا الى النظر في اسباب قلة
الجباية وكثرة النفقات - واسباب قلة الجباية خمسة (١) ضيق المملكة (٢)
تخفيض الخراج المضروب (٣) استئثار العمال بالجباية (٤) انشغال الناس
بالفتن عن العمل (٥) تحوّل اكثر البلاد الى ضياع . واسباب كثرة النفقات
خمس ايضاً (١) اسراف الخلفاء ونسائهم وفيه بحث في ما بلغت اليه
ثروة نساء الخلفاء (٢) كثرة ابواب النفقة في الدولة (٣) زيادة
الرواتب - وتحت هذا الباب تفصيل عن تاريخ رواتب موظفي الحكومة
من العمال والكتاب والوزراء والقضاة ثم اهل الخلفاء وحاشيتهم فالجند
ورواتب اخرى (٤) النفقة على البيعة (٥) استئثار رجال الدولة بالاموال
لانفسهم ويتفرع من ذلك بحث عن حال الوزراء في عصر الانحطاط وتقصي
داء الرشوة فيهم وما يجتمع اليهم من الاموال وبيت مال الحكومة فارغ
والخلفاء يشكون الفقر . وما آل اليه ذلك من مصادرة الوزراء واخذ اموالهم
بالقوة وبحثنا مثل هذا البحث ايضاً في العمال والكتاب والحجاب وختمننا هذا
القسم بخلاصة اجمالية للموضوع

ثم عمدنا الى النظر في القسم الثاني وهو « ثروة المملكة الاسلامية »
اي ثروة البلاد واهلها فنكلمنا اجمالاً عن حالة البلاد في ذلك العصر وعن
اخصاص الثروة بالمدن واسباب انحصارها في الفئة الحاكمة ومن ينتهي

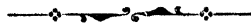
اليهم من اهل الوجاهة والنفوذ وسائر اهل البلاد في فقر مدقع . وخنمنا الكلام بوصف اشهر المدن الاسلامية في مصر والشام والعراق والغرب كالבصرة والكوفة والفسطاط وبغداد وغيرها وما بلغت اليه من الثروة والعمران في عهد ذلك التمدن

ولما صدر الجزء الاول من هذا الكتاب عرف الفضلاء اهمية موضوعه ووعورة مسلكه فعمد ارباب الاقلام الى تقريره وانتقاده في الجرائد والمجلات فضلاً عن الكتب الخصوصية فرأينا في مجمل ذلك ما نشطنا لکننا رأينا لبعضهم انتقاداً للمواضع من الكتاب عدها خطأ لأنها لا تطابق ما يعلمه هو من ماخذ هذا الموضوع فرددنا عليه وبيننا له ان التبعة في ذلك على قلة ما وصلت اليه يده من تلك المآخذ واسندنا كل قول من اقوالنا الى مصدر وثيق اجمع المؤرخون على صحته (راجع المؤيد عدد ٣٧٥٧ و ٣٧٥٨) وقرأنا نحو ذلك الانتقاد في جرائد أخرى تعجل فيها الكاتب الى الحكم علينا بالخطأ في بعض المواضع — والخطأ في تعجله — لاننا لم ننقل حقيقة تاريخية عن غير الثقات من المؤرخين وقد اوردنا أكثر اسمائهم في مقدمة الجزء الاول فلو اطالع المنتقدون على تلك المصادر لكفوا انفسهم مؤونة الانتقاد . وكان قد خطر لنا ونحن نكتب ذلك الجزء ان نذيل صفحاته بالمآخذ التي نقلنا عنها تلك الحقائق ولكننا امسكنا عن ذلك ضناً بصفحات الكتاب لاننا لم نبد رأياً ولا قلنا قولاً الاّ وسندنا فيه كتاب او عدة كتب فالاشارة الى تلك الكتب في ذيل الصفحات تستغرق جانباً منها — على اننا لو فعلنا ذلك لكفينا انفسنا وكفينا حضرات المنتقدين مؤونة العناء في الاخذ والرد بلا طائل

وقد توسمنا في مجمل ما قرأناه من التقارير والانتقادات رغبة حضرات الكتاب في ذكر تلك المآخذ . وكتب البنّا جماعة من اهل الفضل الغيورين على العلم يستحثونا على ذلك وبينهم بضعة من علماء الهند وفارس نذكر منهم عالماً كبيراً من علماء الهند عرف قراء العربية فضله من بعض ما نشر بينهم من آثار علمه — نغني صديقنا شمس العلماء الشيخ شبلي النعماني ناظر العلوم والفنون في حيدر اباد دكن فانه من اوسع الناس اطلاعاً على التاريخ الاسلامي وادابه . فلما اطلع على الجزء الاول كتب البنّا كتاباً يسفر عن تقديره هذا الموضوع حق قدره ولكنه انتقد اغفالتنا ذكر المآخذ في ذيول الصفحات قال : « استملت كتاب تاريخ التمدن الاسلامي بغاية الشوق لان موضوع الكتاب يهمني بنوع خاص . ولم اعرضه على احد الا اعجب به غاية الاعجاب وظني ان تاليفكم هذا يترجم الى لساننا الاردو (الهندستاني) ولا شك انه يقع موقع القبول في البلاد الاسلامية كلها . واكتني أنتقد عليكم امراً لا يسعني كتابته وهو ان دأبكم في التاليف انكم تكتفون بذكر مصادر الكتاب في اوله اجمالاً من غير التزام الاستشهاد في كل محل وموضوع — وفيه مفسد كثيرة — منها اننا راينا كثيرين من مستشرقى اوروبا يذكرون اموراً مهمة من المسائل العلمية او الاختراعات وينسبونها الى العرب فنفتّر بذلك ويذهب بنا الفخر كل مذهب ثم اذا راجعنا الاصل وحققنا الامر يظهر انهم استنوقوا الجمل وما كان هناك شيء يذكر ولا مأسرة تنقل — لا نقول انهم يتعمدون الكذب ولكنهم يغلطون في الاستنباط . فلو كانوا يذكرون مصادر الرواية وما أخذها لكان يسهل لنا المراجعة اذا مسّت الحاجة . ومنها ان كتب التواريخ لها مدارج ومراتب فما لم تذكر اسماء الكتب

بالخصوص. لا يميز جيد الرواية من رديئها ولا اقواها من اضعفها « اه
فلما عمدنا الى كتابة هذا الجزء رأينا ان نعود الى رأينا الاول فنزيل
صفحاته بالماخذ التي اعتمدنا عليها مع تعيين الكتاب والجزء والصفحة .
واخضرنّا في ذلك جهد الطاقة ضناً بالمكان ولا يخفى ما يقتضيه هذا العمل من
التدقيق والمراجعة . وفي ثقلب صفحات هذا الجزء قبل تصفحها دلالة كافية
على مقدار ما بذلناه من العناية في تأليفه وخصوصاً لانه اول كتاب في هذا
الموضوع كتب على هذا النسق

وليس تاريخ التمدن الاسلامي من الكتب التي يلهو بها العامة للتسلية
ولا من الكتب الفكاهية كالروايات ونحوها . وانما هو موضوع تاريخي
اجتماعي يبين اسباب نشوء المدنية واسباب انحطاطها ويتخلل ذلك ابحاث
فلسفية في علاقة تلك الاسباب بعضها ببعض وما ينجم عنها من العبرة والموعظة
فهو من الكتب التي يقرأها الخاصة اهل الاطلاع — ولم نعد الى تأليفه الا بعد ان
اعدنا اذهان القراء الى هذا الموضوع بما نشرناه بين ظهرانيهم من الروايات
التاريخية الاسلامية منذ عدة اعوام مما تلذ قراءته للخاصة والعامة بما تحويه
من الحقائق التاريخية في سياق الحكاية الغرامية . فلما تهيأت الاذهان ورأينا
في القراء شوقاً الى مطالعة التاريخ الاسلامي عمدنا الى تأليف هذا الكتاب
وهو تاريخ الاسلام الحقيقي لان تاريخ الامة لا يقوم بسرد حروبها وفنوحها
وانما هو تاريخ نشوئها وتنظيم حكومتها وتاريخ ثروتها وعلومها وآدابها ونظامها
الاجتماعي ومصيرها — او هو تاريخ تمدنها . ولنا في ما بسطناه من وعورة هذا
المسلك عذرٌ على ما قد يعنور مشروعنا من النقص . والكمال لله وحده



ظواهر التمدن وحقيقته

لخصنا في الجزء الاول من هذا الكتاب نشأة الدولة الاسلامية وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والمالية تمهيداً للنظر في تمدنها . ولكل تمدن ظواهر يبدو بها للناظرين وحقيقة تنجلي منه للباحثين اما الظواهر فهي ما نراه من ثمار ذلك التمدن كالثروة والابهة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الحياة الاجتماعية وآدابها . واما حقيقة التمدن فهي ما ينتج عنه من الخير او الشر من السعادة او الشقاء للمستقلين في ظله او سواهم من بني الانسان . ومن ظواهر التمدن الاسلامي الثروة والعلم والادب والصناعة والتجارة ونظام الحياة الاجتماعية وآدابها وسنحصر بحثنا في هذا الجزء بثروة المملكة الاسلامية دون سواها

والبحت في ثروة المملكة يقتضي النظر في مصادر تلك الثروة واسبابها واورجها باعتبار الدول والاعصر والنظر في ثروة كل عصر مع تفرق الثروة في الاهالي او حصرها في فئة منهم او في الحكومة أو في رجالها مع اعتبار ما يلحق ذلك من وصف ثروة المدن والابنية وغيرها

ومعلوم ان المملكة الاسلامية بلغت معظم ثروتها في العصر العباسي . فلو كان غرضنا مجرد وصف تلك الثروة لاكتفينا بالإشارة الى مقدار ما كان يحمل الى بيت المال من الحيايات وما كان عليه الخلفاء واتباعهم من الغنى والبذخ وعددنا موارد الثروة ومصادرها — ولكننا عوّلنا منذ اخذنا في تأليف هذا الكتاب ان نسند كل حادث الى اسبابه بالبحث عن العلل الحقيقية وتتبع الاسباب الى اصولها وعلاقة ذلك كله بالمجموع العام مع اعتبار الاحوال واختلافها باختلاف العصور

والمملكة الاسلامية عند التخصيص هي غير الدولة الاسلامية لان هذه عبارة عن الحكومة ورجالها واما المملكة فهي البلاد واهلها . فيحسن والحالة هذه ان نقسم الكلام في الثروة المذكورة الى ثروة الدولة الاسلامية وثروة المملكة الاسلامية ونتكلم في كل منهما باعتبار العصور المتقدم ذكرها

وبناء على ذلك سنجعل الكلام في ثروة الدولة الاسلامية باعتبار العصور فبدأ بعصر النبي فالخلفاء الراشدين فبني امية فالعباسيين . ونقسم كل عصر الى ابواب بعضها

للبحث في ثروة الحكومة او بيت المال والبعض الآخر للبحث في ثروة رجل الحكومة وما يستلزمه ذلك من النظر في اسباب تلك الثروة وعلة كثرتها او قلتها وتاريخ الخراج والحزبة وغيرها وابواب النفقة وغير ذلك

فثروة الدولة الإسلامية مرت في خمسة ادوار او أعصر وهي (١) عصر النبي (٢) عصر الخلفاء الراشدين (٣) عصر بني أمية (٤) عصر العباسيين الاول او عصر الزهو العباسي (٥) عصر العباسيين الثاني او عصر الانحطاط . اما الدول الإسلامية الأخرى في مصر والاندلس وغيرها فالكلام في ثروتها يأتي عرضاً بطريق الاستشهاد أو التمثيل لان المراد بالتمدن الإسلامي إنما هو التمدن العباسي الشهير

ثروة الدولة الإسلامية

(١) عصر النبي من سنة ١ - ١١ هـ

اذا كان المراد بثروة الدولة ما يزيد من دخلها على خرجها او ما تحتجزه بعد نفقاتها من الاموال ونحوها فالدولة الإسلامية في عصر النبي لم يكن عندها ثروة حقيقية لانهم لم يكونوا يحتجزون مالا ولا كان عندهم بيت مال بل كانوا اذا اصابوا غنيمة فرقوها فيما بينهم . وكذلك الصدقات فانها كانت تفرق في اهلها واذا ظل منها شيء استبقوه حين الحاجة اليه . وكان النبي يتولى ذلك بنفسه واكثر الصدقات من الماشية والابل والحيل فكان يسمها بميسم خاص بها يمتاز به عن سواها

فكانت ثروة الدولة في عصر النبي عبارة عن بقايا الزكاة من ابل او خيل او ماشية وتمتاز عن اموال سائر الناس بمراع خاصة كانت تحبس فيها بالبيع قرب المدينة يعبرون عنها بالحمل^(١) ويميسم كان النبي نفسه يسمها به^(٢) وبلغت الاموال في ايام النبي نحو ٤٠,٠٠٠ بين ابل وخيل وغيرها^(٣) ومن هذه الاموال وما يلحق بها من مال الصدقة النقد كانوا ينفقون على غزواتهم وعلى تحصيل الزكاة واعالة الفقراء ونحوهم

(١) الماوردي ١٧٦ (٢) البخاري ١٩٠ ج ١

(٣) شرح الموطأ (خط)

(٢) عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ - ٤١ هـ

هذا هو عصر الاسلام الذهبي . عصر العدل والتقوى كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة والغيرة الحقيقية على الدين ونسب الدنيا . وهو العصر الذي اتخذته المسلمون منوالاً ينسجون عليه وكلما حادت دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا اليها الرجوع اليه والسير على خطوات الخلفاء الراشدين . لان الحكومة انتقلت بعدهم الى طور جديد وانقلبت من الخلافة الدينية الى الملك السياسي ونشأت في الخلفاء والعمال المطاعم واخذوا في حشد الاموال باية وسيلة كانت

(بيت المال) توفي النبي والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ولم يكن عندهم بيت مال للاسباب التي قدمناها ولم يكونوا يتطلبون المال الا لقضاء الحاجيات وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحنطة وخيلاً ونحو ذلك من اموال الصدقة والغنime وكانت النقود قليلة بين ايديهم . فلما فتحوا الشام وفارس ومصر وردت عليهم الاموال ذهباً وفضة فدهشتم كثيرتها وتبهاوا لها — يقال ان ابا هريرة قدم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال فقال له عمر « بما جئت » قال « بنحسمائة الف درهم » فاستكره عمر وقال « اتدري ما تقول » قال « نعم مئة الف خمس مرات » فصعد عمر المنبر وقال « ايها الناس قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلنا لكم كيلاً وان شئتم عددنا لكم عدداً » (١) وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين (٢) باعتبار السابقة والقرباة من النبي ولكنه نهى عن اختران المال فقال له قائل « يا امير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال شيئاً يكون عدة لحادث اذا حدث » فزجره عمر وقال له « تلك كلمة القاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي اني لا اعدد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله وهي عدتنا التي بلغنا بها ما بلغنا (٣)

فلما كثرت الاموال في أيام عمر ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع اذخار المال وحرم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة او المزارعة (٤)

(١) المقرئ ٩٢ ج ١ (٢) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة

١٢٥ (٣) ابن الاثير ٢٤٨ ج ٢ والفخري ٧٥ (٤) المقرئ ٢٥٩ ج ٢

لان ارزاقهم وارزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال حتى الى عبيدهم ومواليهم — أراد بذلك ان يبقوا جنداً على اهبة الرحيل لا يمنهم انتظار الزرع ولا يقدهم الترف والقصف • فاذا اسلم احد من اهل الذمة سكان البلاد الاصليين صار ما كان في يده من الارض وداره الى اصحابه من اهل قريته تفرق فيهم وهم يؤدون عنها ما كان يؤدّي من خراجها ويسلمون اليه ماله ورقيقه وحيوانه ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين^(١)

والعرض الذي كان يرمي اليه عمر من هذه القاعدة ان يبقى اهل الذمة وارضهم مصدرأً للعمال الذي يحتاج اليه المسلمون في اتمام الجهاد ووفقاً لمصالحهم مدى الدهور • اما اذا اشترى المسلمون الضياع فانهم يستقلون بنفعها دون سواهم ولا يمضي بضعة اقبال حتى تصير املاكاً خاصة بهم^(٢) وعمر يريد ان يبقيا محبوسة على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لاتباع ولا تورث لما الزمواهم انفسهم من اقامة فريضة الجهاد^(٣) وايد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الاموي وكان يتحدى ابن الخطاب بكل خطواته فقال « ايما ذمي اسلم فان اسلامه يحرز له نفسه وماله وما كان من ارض فانها من فيء الله على المسلمين • وايما قوم صالحوا على جزية يعطونها فن اسلم منهم كانت داره وارضه لبقيتهم »^(٤) فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الاعمال من تجارة او صناعة او محوها

(ثروة الخلفاء وعملهم) علمت مما تقدم ان الراشدين لم يكونوا يلتمسون ثروة • فلما توفي ابو بكر لم يجدوا عنده من مال الدولة الا ديناراً واحداً سقط من غرارة^(٥) لانه كان يفرق كل ما يجتمع عنده على السواء لا ينظر الى مصلحة نفسه بل هو انفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه • وذلك اربعون الف درهم غير ما اكتسبه من التجارة لانه كان يتجر ليستعين على النفقة ثم فرضوا له مالاً معيناً من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله لئلا يشتغل بالتجارة عن النظر في مصالحهم • فلما دنا أجله اوصى ان تباع ارضه كانت له ويدفع ثمنها بدلاً مما اخذه من مال المسلمين^(٦)

(١) ابن عساكر (نسخة كريمة) (٢) كتاب الخراج لابي يوسف ١٤

(٣) ابن عساكر (٤) المقرئ ٧٧ ج ١ (٥) ابن الاثير ٢٠٤ ج ٢

(٦) ابن الاثير ٢٠٧ ج ٢

وكان عنده ثوبان اوصى ان يكفن بهما

واخبار عمر بن الخطاب بالزهد والترهه أشهر من ان تذكر. ويقال بالاجمال انه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمتن دعائم الملك — أسسها على العدل والتقوى والزهد والاستهلاك في نصره الحق مما يندر اجتماعه في رجل واحد وقد يوهم لغرابته انه من قبيل المبالغة . ويسهل علينا التصديق به اذا تذكرنا النتائج التي ترتبت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ — يكفي منها تلك الفتوح التي جعلت الاموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب وعمر مع ذلك لا يلتفت اليه ولا يأخذ منه الا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الاولين . وكان اذا احتاج الى مال فوق راتبه جاء الى صاحب بيت المال فاستقرضه حتى يفيه اياه من عطائه فيما بعد ^(١) ولما طعن وأحس بدنو الاجل قال لابنه « اني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفاً فليرد من مال ولدي فان لم يرد ما لهم فمال آل الخطاب » ^(٢) وزهده في الطعام واللباس مشهور

ويقال نحو ذلك في الامام علي فقد كان مغالياً في الزهد والعدل . ومن اقواله « تزوجت بفاطمة ومالي فراش الا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلق عليه ناضحنا بالنهار ومالي خادم غيرها » وجاءه في أيام خلافته مال من اصحابان قسمه على سبعة اسهم فوجد فيه رغباً فقسمه على سبعة اسهم ودعا امراء الاسباع فاقرع بينهم لينظر ايهم يعطى أولاً . ولم يبق عليّ أجره على آجرة ولا ابنة على ابنة ولا قصبة على قصبة وكان يأتي بحبوه من المدينة في جراب وقيل انه اخرج سيفاً له الى السوق فباعه وقال « لو كان عندي اربعة دراهم ثمن ازار لم ابعه » ومناقبه لا تحصى ^(٣)

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ان عمالهم كان اكثرهم من اهل التقوى وحسن الاعتقاد في الاسلام . فكان عمر اذا اكتسب احد عماله مالاً من تجارة او سبيل آخر غير عطائه المفروض له قاسمه عليه وهو لا يرى في ذلك غبناً — كذلك فعل بسعد بن ابي وقاص عامله على الكوفة وعمر بن العاص عامله على مصر وابي هريرة عامله على البحرين ^(٤) وغيرهم

(١) ابن الاثير ٢٩ ج ٣ (٢) اليعقوبي ١٨٣ ج ٢ (٣) ابن الاثير

٢٠٢ ج ٣ (٤) اليعقوبي ١٨١ ج ٢

ولا غرابة في ذلك لان العامل اذا رأى خليفته زاهداً تقياً يمنع نفسه من كل شيء ويستهلك في مصلحة الامة فانه يقتدي به ولو كان ذلك مخالفاً لرأيه • على ان الخليفة نفسه لا يولي اعماله الا من يكون على رأيه وخلقه وخصوصاً عمر فقد كان شديداً على العمال يتفقدهم كل سنة ويعزلهم لاقلة تهمة — ذكروا انه استعمل على حمص رجلاً اسمه عمير بن سعد فلما انقضت السنة كتب اليه « اقدم الينا » فلم يشعر عمر الا وقد قدم اليه الرجل ماشياً حافياً عكازه في يده وادواته ومزوده وقصعته على ظهره • فلما رآه عمر قال « يا عمير أجبنا أم البلاد بلاد سوء » فقال « يا امير المؤمنين اما هناك الله ان تجهر بالسوء وعن سوء الظن وقد جئت اليك بالدينيا أجرها بقرابها » فقال « وما معك من الدنيا » قال « عكازة أتوكأ عليها وادفع بها عدوًا ان لقيته ومزود احمل به طعامي » فقال « ما صنعت بعملك يا عمير » قال « أخذت الابل من اهل الابل والجزية من اهل الذمة ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وابناء السبيل فوالله يا امير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لا أتيتك به » فقال له « عد الى عمالك » (١)

ولا بد لنا مع ذلك من ان نقف هنيهة للنظر في امر يقتقر الى تفسير • قلنا ان عمر لم يكن يخبزن مالاً ونهى عن اخترانه فلو كانت الاموال التي ترد الى بيت المال تفرق على السواء كما كانت تفرق الغنائم في ايام النبي وأبي بكر لسان عليه ان لا يخبزن ولكنه فرض اعطية معينة يتناولونها كل عام • ونعلم ايضاً ان الاموال زادت كثيراً في ايامه بما انضم اليهم من الاعمال بالفتح وكلها تؤدي الحراج والجزية فضلاً عما يلحق بيت المال من الغنائم — فما الذي كان يفعله عمر بما يفيض من تلك الاموال بعد دفع الاعطية المذكورة ؟ يظهر انه كان يفرقه في اهل الحاجة او لعله كان يستبقي بعضه على ان يفرقه ولا يعد ذلك اختراناً لانه انما منع الاختران للحرب

(اقتناء المسلمين للاموال) على ان رأي عمر بعدم اختران المال يتنافي المبدأ الاساسي الذي تقام عليه الدول وتتأيد به السلطات لان اختران الاموال من ضروريات الملك • ولكن المسلمين الاولين لم يكونوا يعدون الخلافة ملكاً سياسياً ولذلك لم تطل مدتهم الا ربما انقضى عصر النبوة وزالت دهشتها فعاد الناس الى فطرتهم

وتسابقوا الى حشد الاموال والاستئثار بالسلطة

وقد باثروا ذلك في أيام عثمان بن عفان (سنة ٢٣ — ٣٥ هـ) لانه لم يكن شديداً مثل عمر وكان مع ذلك أموياً فاعتز الامويون به وأرادوا ان يعيدوا لانفسهم السلطنة التي كانت لهم في الجاهلية وكان بنو هاشم قد سلبوهم اياها بعد الاسلام لان النبي منهم ^(١) فأخذ عثمان يولي الاعمال رجالاً من اقربائه وفيهم من لم يعتنق الاسلام الاً بأساً من فوزه على المسلمين . وكثرت في ايامه الفتوح وفاضت الغنائم فكان يستخص اهله منها بأكثر من سائر الصحابة . كما فعل بغنائم افريقية سنة ٢٧ هـ فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (اخو عثمان من الرضاع) فبلغت غنائمهم منها ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار اعطى خمسها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته ^(٢) وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال . وابطل عثمان محاسبة العمال لانهم من اهله فازدادوا طمعاً في حشد الاموال لانفسهم وخصوصاً معاوية بن ابي سفيان عامله على الشام وهو اكثرهم دهاءً وابعدهم مطعمياً فكان في مقدمة الذين ابطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها

وكيفية ذلك ان المسلمين لما فتحوا الشام واقروا الارضين في ايدي اصحابها كان جانب كبير منها ملكاً للبطارقة قواد جند الروم فلما غلبت الروم وفرت البطارقة او قتلوا ظلت ضياعهم سائبة لا مالك لها فافوقها المسلمون على بيت المال فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (اي يضمها) ويضيفون دخلها الى بيت المال . فلما استقر معاوية على ولاية الشام واقتدى بالروم في البذخ واتخاذ الحاشية لم يعد راتبه يكفيهِ ورأى من عثمان ضعفاً وميلاً فكُتِبَ اليه ان الذي اجراء عليه من الرزق في عمله لا يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل امراءهم ومن رسل الروم ووفودهم ووصف في كتابه هذه المزارع وان لا مالك لها وليست هي من قرى اهل الذمة ولا الخراج وسأله ان يقطعه اياها ^(٣) . وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتباً مقداره الف دينار في السنة ^(٤) وهو كثير بالنظر

(١) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٥٩

(٢) اليعقوبي ١٩١ ج ٢ (٣) ابن عساكر (خط)

(٤) المقرئزي ٩٥ ج ١

الى رواتب العمال في تلك الايام • فلما طلب من عثمان ان يقطعه تلك الضياع اجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها حسباً على فقراء اهل بيته فقرأ ذلك على التهادي في اقتناء الارضين وبيعها في ايام خلافته والاذن للمسلمين في ذلك

واقتمدى بمعاوية غيره من العمال وسائر الصحابة فاقتنوا الضياع والعقار وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد وعبي وغيرهم وزادت اموالهم وظهر الغنى فيهم حتى عثمان نفسه فانه اقتنى الضياع الكثيرة واخترن الاموال فوجدوا عند خازنه بعد موته ١٥٠,٠٠٠ دينار و١,٠٠٠,٠٠٠ درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها ١٠٠,٠٠٠ دينار وخلف خيلاً وابلاً^١ والظاهر ان عثمان اندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الاموال واغراء اهله على ذلك وخصوصاً معاوية — ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً

ومن اسباب شيوع الاملاك بين المسلمين ان عثمان اقطع هو وخلفاؤه بعض الارضين مما لم يتعين ما لكوه على ان يدفعوا شيئاً لبيت المال بمقابل الايجار او الضمان كما تقدم • فلما حدثت فتنة الاشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم^٢

على ان المسلمين لم يكونوا راضين عن اعمال معاوية في هذا الشأن لانه لم يساو بينهم فيه فقموا عليه وخصوصاً الفقهاء ورجال التقوى • وفي حكاية أبي ذر الغفاري ما يغني عن البيان • فقد كان هذا الرجل مغالياً في التمسك بقاعدة عمر وكان يرى « ان المسلم لا ينبغي له ان يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته او شيء ينفعه في سبيل الله او يعمده لكریم »^٣ وكان يقوم في الشام ويقول « يا مشر الاغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكثر من الذهب والفضة ولا ينفقوها في سبيل الله بمكراً من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولع الفقراء بقوله وارجوه على الاغنياء • فشكا الاغنياء الى معاوية ما يلقون منهم وكان معاوية يشكو أمراً من شكائهم لان أبا ذر وبخه غير مرة لاختزانه المال ومما قاله له على أثر بنائه قصر الخضراء في دمشق وقد سأله معاوية « كيف ترى

(١) المسعودي ٣٠١ ج ١ (٢) المساوردي ١٨٣

(٣) ابن الاثير ٥٥ ج ٣

هذا « فقال أبو ذر « ان كنت بنيت من مال الله فانك من الخائنين وان كنت بنيت من مالك فانك من السرفين » ^(١) فعظم ذلك على معاوية فأراد أن يوقعه في ما يوجب محاكمته فبعث اليه بالف دينار أراد أن يقره بها ثم يهجمها بآكتاز المال . فلما وصلت الدنانير الى أبي ذر فرقها حالاً مع انها وصلته ليلاً وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم انه دفع المال اليه خطأ وان معاوية يطلبه فاخبره انه انفق في ساعته . فلم ير معاوية سبيلاً الا اتهامه بالفتنة فكتب الى عثمان « انك أفسدت الشام على نفسك بابي ذر » فكتب اليه « احمله على قتب بغير وطء » ^(٢) فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه من جشع بني امية وخروجهم من الحق . فاخرجه عثمان من المدينة الى الربدة بالعنف وظل هناك حتى مات فقسم المسلمون بموته على عثمان في جملة ما تقوموا عليه الى مقتله

فلما قتل عثمان سنة ٣٥ هـ وقامت الفتنة في الخلافة وأرادها معاوية لنفسه رأى بين دعايتها من هم احق بها منه نسباً وسابقة فاحتال اليها بالمال فازدادت رغبته في الاستكثار منه لبذله في انشاء الاحزاب — ولا غرو فان المال قوة تحول الى ما شئت من القوى وهو منذ القدم مرجع المشروعات العظمى ولا يزال حتى اليوم المحور الذي تدور عليه سياسة العالم المتمدن . فما من حرب او سلم او محالفة او معاهدة وما من فتح او حصار او المحرك عليه أو الداعي اليه « المال » — وكذلك فعل معاوية فاستخدم بالمال جماعة من دهاة العرب نصره بالدهاء والسيف حتى أفضت الخلافة اليه بعد واقعة صفين ولكنها لم تصف له الا بعد مقتل علي (٤٠ هـ) وتنازل الحسن له عنها والناس مع ذلك يعلمون ان معاوية انما فاز ببذل المال حتى قال زين العابدين ابن حفيد الامام علي « ان علياً كان يقايله معاوية بذهبه » ^(٣) وسار بنو أمية على خطوات معاوية في ذلك فجعلوا المال اكبر نصير لهم على دعاة الخلافة من بني هاشم وعلى الخوارج وغيرهم فجرهم ذلك الى الاستكثار منه بابي وسيلة كانت كما سيأتي

فالثروة في عصر الراشدين كانت محرمة على المسلمين ولكن تحريمها لم يبق طويلاً لان بقاءه يقتضي بقاء عمر بن الخطاب او من يكون في مثل مناقبه وتقواه مع بقاء

(١) ابن الفقيه ١٥٦ (٢) اليعقوبي ١٩٩ ج ٢ (٣) المقرئ ٤٣٩ ج ٢

العرب على الفطرة البدوية مما يخالف نواميس العمران • فلذلك لم يكد يختلط العرب بالروم والفرس حتى تأقت نفوسهم الى الترف وحشد الاموال ومجّل ذلك فيهم رغبة بني أمية في استنصارها • فانقضى عصر الراشدين ولم ير المسلمون مثله بعده وظل ابو بكر وعمر مضرب امثال القوم قرونًا متطاولة اذا اعوج حاكم او خليفة طلبوا اليه ان يقتدي بهما وخصوصاً عمر فقد كانوا يحاولون التشبه بعدله وحزمه وشدة في الحق حتى ان اشهر عمال بني أمية ظلماً ودهاءً ارادوا الاقتداء به في ذلك قتهوروا وانقلب فيهم الى الظلم والعسف — يقال ان زياد بن ابيه اراد ان يتشبه بعمر بن الخطاب في ضبط الامور والحزم والصرامة واقامة السياسات الا انه اسرف وتجاوز الحد ثم اراد الحجاج بن يوسف ان يتشبه بزياد فأهلك ودمر^(١)

(٣) عصر بني أمية من ٤١ - ١٣٢ هـ

تتمتاز دولة بني أمية عن دولة الراشدين بان السلطة تحولت فيها من الخلافة الدينية الى الملك السياسي • وتتمتاز عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة شديدة التعصب للعرب كثيرة الاحتقار لسواهم • ولذلك فان اهل الذمة وغيرهم من سكان البلاد الاصليين قاسوا من خلفاء بني أمية ومن عمالهم الامور الصعاب حتى الذين اسلموا منهم فان العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد وكانوا يسمونهم « الموالي » ويعدون انفسهم ذوي احسان عليهم لانهم انقذوهم من الكفر واذا صلوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعاً لله • وكان بعض العرب اذا مرت به جنازة مسلمة قال « من هذا » فاذا قالوا « قرشي » قال « واقوماه » واذا قالوا « عربي » قال « وابلدناه » واذا قالوا « مولى » قال « هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء » وكانوا يحرمون الموالي من الكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والالقب ولا يمشون في الصف معهم^(٢) وكانوا يسمونهم العلوج • وفي كتاب الموالي للجاحظ ان الحجاج لما قبض على الموالي الذين حاربوا مع ابن الاشعث اراد ان يفرقهم حتى لا يجتمعوا ففقس على يد كل واحد منهم اسم البلدة التي وجهه اليها • وقد تولى ذلك النقش رجل من بني عجل فقال الشاعر واث من نقش العجلي راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم^(٣)

(١) ابن خلكان ١٢٤ ج ١ (٢) العقد الفريد ٧٣ ج ٢ (٣) العقد ٧٤ ج ٢

وسنعود الى تفصيل ذلك في الكلام عن نظام الهيئة الاجتماعية في الممالة الاسلامية في جزء آخر من هذا الكتاب وانما أشرنا الى ذلك هنا لبيان مقدار تعصب العرب في دولة بني أمية على غير العرب ولو كانوا مسلمين

وكان من جملة نتائج تعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم انهم اعتبروا اهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقاً حلالاً لهم — يدل على ذلك قول سعيد بن العاص عامل العراق « ما السواد الا بستان قريش ماشئنا اخذنا منه وما شئنا تركناه »^(١) وقول عمرو بن العاص لصاحب اخنلسا سألته عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال عمرو « انما اتم خزانة لنا ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم »^(٢) . فالتخذوا ذلك ونحوه ذريعة للاستيلاء على ما شاؤوا من أموال الناس وقد جرأهم على ذلك معاوية اذ جعل بعض الاعمال طعمة لبعض عماله والبعض الاخر ضمنه بمال زهيد — فعل ذلك في بادئ الرأي ترغيباً لهم في نصرته ثم توالى عليه وعلى من خلفه من بني أمية الحروب مع احزاب بني هاشم والحوارج وغيرهم فاضطروا الى الاستكثار من الاموال ولا سبيل الى جمعها الا بالخراج والجزية من اهل البلاد فاستخدموا من العمال من يشقون باقتدارهم على جمع الاموال فضلاً عن الحرب . وأشد أولئك العمال وطأة الحجاج بن يوسف عامل عبد الملك على العراق . واحتاج عبد الملك الى مقاومة جماعة من مناظريه على الخلافة وفيهم عبد الله بن الزبير في مكة والمختار بن أبي عبيد في العراق وغيرها فوكل ذلك الى الحجاج وامثاله فاستخدموا العنف في تحصيل الاموال بحق وبغير حق^(٣)

« جور العمال » وكان عمال بني أمية يجورون على اصحاب الارضين من اهل الذمة في التحصيل ونحوه لا يهمهم بقي لهم من المحصول شيء أم لا . وكان الخراج يومئذ على المساحة فيؤخذ على الارض مال معين زرعت أم لم تزرع وكان من شروط الخراج ان يستبق لاصحاب الارضين ما يجبرون به النواصب والحوارج . ومما يحكى ان الحجاج كتب الى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ تلك البقية منهم فاجابه « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوماً

(١) الاغانى ٣٠ ج ١١ (٢) المقرئى ٧٧ ج ١ (٣) ابن الاثير

يعقدون بها شحوماً»^(١) . والظاهر ان الضغط على اهل القرى وأحباب الارضين حل بعضهم على الاسلام احتمالاً به فاصبحوا من الموالي فلم يمنع ذلك تحصيل الخراج والجزية منهم فالزمتهم الحجاج^(٢) الخراج مع انهم تنازلوا عن مغارسهم لاهلهم وغادروا القرى وسكنوا الامصار فراراً من تلك الضرائب فامر الحجاج بردهم وطالبهم بالخراج^(٣) لان المسلمين كانوا الى ذلك الحين لا يقيمون الا في المدن التي بنوها هم . واهل البلاد الاصليون يقيمون في القرى للزرع والحراث فمن اعتنق منهم الاسلام رفع الخراج عن راسه وصار ما كان في يده من الارض وداره الى أحبابه يؤدون عنها ما كان يؤدي من الخراج كما تقدم وينزل هو الى الامصار كالكوفة والبصرة والفسطاط . ففعل ذلك في أيام الحجاج جماعة كبيرة ربما التمسوا به النجاة من الضغط فاذا هو ملاقيهم . وكتب الحجاج الى الامصار « ان من كان له اصل في قرية فيرجع اليها لتؤخذ منه الجزية والخراج » فعل ذلك في أيام ابن الاشعث فخرج الناس وهم سيكون وينادون « يا محمد يا محمد » ولا يدرون الى اين يذهبون فاضطروا الى الانضمام للاشعث على الحجاج^(٤)

ولم تكن تلك المعاملة خاصة بالحجاج من عمالهم فقد فعل مثله أيضاً يزيد بن أبي مسلم عامل يزيد بن عبد الملك على افرقية^(٥) وكذلك فعل الجراح في خراسان^(٦) وغيره في ما وراء النهر^(٧) وكان اهل سمرقند قد اسلموا على ان ترفع الجزية عنهم فظلوا يأخذونها منهم فعادوا الى دينهم

اما النصارى وغيرهم من اهل الذمة الذين ظلوا على دينهم فيكفي في تمثيل حالهم اعتبار ما تقدم من معاملة الذين اسلموا منهم . فكانوا يسومونهم العذاب في تحصيل الجزية . ورأى هؤلاء ان اعتناق الاسلام لا ينجهم من ذلك فعمد بعضهم الى التلبس بشوب الرهبنة لان الرهبان لا جزية عليهم . فادرك العمال غرضهم من ذلك فوضوا الجزية على الرهبان وأول من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر باحصاء الرهبان وفرض على كل راهب ديناراً^(٨) وهي أول جزية أخذت

(١) المساوردي ١٤٣ (٢) ابن خلكان ٢٧٧ ج ٢ (٣) ابن الاثير

٢٢٥ ج ٤ (٤) ابن الاثير ٤٨ ج ٥ وابن خلكان ٢٧٧ ج ٢ (٥) ابن الاثير

٢٤ ج ٥ (٦) ابن الاثير ١١١ ج ٥ (٧) المقرئ ٤٩٢ ج ٢

من الرهبان • وامثال هذه الحوادث كثيرة في تاريخ بني أمية ولم يكن ذلك كل ما اقترفوه في سبيل جمع المال فانهم زادوا الخراج عما كان عليه في أيام الراشدين — بدأوا بذلك من أيام معاوية فأراد أن يزيد قيراطاً فكتب الى وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر أن « زد على كل امرء من القبط قيراطاً » فكتب اليه « كيف ازيد عليهم وفي عهدهم ان لا ازيد عليهم » ^(١) ولعل عمراً لم يطمعه في ذلك لان مصر طعمة له • فلما انتقلت الى خلفاء بني أمية بعد عمرو زادوا في الخراج ما شاؤا • واشهر من فعل ذلك عبيد الله بن الحجاج متولي الخراج من قبل هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ — ١٢٥ هـ) فانه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار فلم يصبر القبط على ذلك وكانوا لا يزالون هم السواد الاعظم فتاروا فخارهم المسلمون وقتلوا منهم جمعاً كبيراً • وحدث نحو ذلك على يد اسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج فانه اوقع في النصارى واخذ اموالهم • وكثر الالتجاء الى الرهبة في أيامه فأراد أن يمنع ذلك لانه يضر في الخراج والحزبية فأحصى الديور والرهبان كافة ووسم ايدي الرهبان بحلقة من حديد فيها اسم الراهب واسم الدير وتاريخه فكل من وجده بغير وسم قطع يده • والزعم كل نصراي بمنشور يحمله يدل على انه ادى ما عليه وكتب الى العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور ان يؤخذ منه عشرة دنانير • ثم كبس الديارات وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم فضرب اعتاق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب ^(٢)

على أن ذلك لم يكن برضى الخليفة فلما بلغ هشام بن عبد الملك ذلك كتب الى عامله بمصر ان يجري النصارى على عوائدهم وما في ايديهم من العهود • فلم يطل العمل بهذا الامر ففاد العمال الى ظلمهم وفي جملتهم حنظلة بن صفوان فانه زاد في الخراج واحصى الناس والبهايم وجعل على كل نصراي وسماً صورة اسد وتبعهم فن وجده بغير وسم قطع يده ^(٣) • وقس على ذلك امثلة كثيرة من شدة عمال بني أمية على اهل الذمة والموالي وغيرهم من غير العرب

ومن امثلة ما اقترفه بنو أمية من زيادة الخراج والحزبية ان اهل الجزيرة بالعراق كانت جزيتهم ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً في العام فلما تولى عبد الملك

(١) البلاذري ٢٢٧ (٢) المقرئ ٤٩٢ ج ٢ (٣) المقرئ ٤٩٣ ج ٢

ابن مروان استقلَّ ذلك فبعث الى عامله فاحصى الجماعم وجعل الناس كلهم عمالاً بآيديهم وحسب ما يكسب العامل سنه كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وادمه وكسوته وطرح أيام الاعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنائير فالزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة^(١)

ولم تكن ضرائبهم قاصرة على اهل الذمة والموالي ولكنها شملت العرب المسلمين انفسهم وذلك ان محمداً اخا الحجاج بن يوسف لما تولى اليمين أساء السيرة وظلم الرعية وأخذ اراضي الناس بغير حقها وضرب على اهل اليمن خراجاً سماً « الوظيفة » فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله هناك بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر^(٢)

وكال عمال بني أمية في فارس يخرصون الثمار على اهلها أي يحجزون مقدارها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذي يتبايعون به فيأخذونها قرفاً على قيمتهم التي قدروها^(٣)

وكان من اساليبهم في الاستكثار من الاموال ضرب الضرائب على الارض الحراب • وكانوا يفرضون على الاهالي هدية في عيد التبروز بلغت في أيام معاوية ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٤) وفرضوا مالاً على من يتزوج وعلى من يكتب عرساً^(٥) وكانوا يكيلون للعامل بكيل ولا اكار بكيل آخر ويكلفون اهل الخراج ارزاق العمال واجور المدي وحولة الطعام وثمن خصف وقراطيس واجور انكيالين ومؤوتهم • واذا أتى احدهم بالدراهم ليؤديها في خراجها يقتطع الجابي منها طائفة ويقول هذا رواجها وصرفها^(٦)

ولم يكن عمال بني أمية يأتون هذه الاعمال من عند انفسهم دائماً بل كثيراً ما كانوا يفعلونه بأمر خالفائهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية الى وردان وكان ذلك شأنه في تحريض عماله على جمع الاموال وهم يخترعون له الطرق الاستكثار منها^(٧) وكذلك فعل من جاء بعدهم وخصوصاً عبد الملك لانه كان شديد الحاجة الى المال ومنه

(١) البلاذري ٧٣ (٢) كتاب الخراج لابن يوسف ٢٤ (٣) طبقات

ابن سعيد (عن فان فلوتين) (٤) اليعقوبي ٢٥٩ ج ٢ (٥) الطبري ١٣٦٧

ج ٣ (٦) كتاب الخراج لابن يوسف ٦٢ (٧) اليعقوبي ٢٥٨ ج ٢

الله بالحجاج فلم يترك وسيلة في استخراج المال إلا اتخذها • اما لو اراد الخلفاء ابطال هذه المظالم لمكان عليهم ابطالها لان العمال في ايام عمر بن الخطاب كانوا يرتكبون مثل ذلك فلا يسكت عمر عنهم • ولما جار عمل الاهواز في ايامه شكاهم ابو المختار يزيد بن قيس بقصيدة بين فيها ارباحهم من اهل الرساتيق والقرى وسماهم في قصيدته وحرص عمر على مقاسمتهم ما رمحوه الى ان قال :

فقسامهم اهلي فداؤك انهم سبرضون ان قاسمتهم منك بالشرط
ولا تدعوني للشهادة اني اغيب ولكنني ارى عجب الدهر
فبعث عمر اليهم فقسامهم شطر اموالهم حتى اخذ نعلًا وترك نعلًا ولم يكتف
بمقاسمة العمال ولكنه قاسم بعض اخوتهم فاعترض هؤلاء فقال احدهم لعمر « اني لم
آل لك شيئاً » فقال له « اخوك على بيت المال وعشور الالة وهو يعطيك المال
تجربه » فأخذ منه عشرة آلاف ^(١)

وكانت مشاطرة عمر عماله حجة اتخذها معاوية بعد ذلك في مشاطرة العمال فلم
يكن يموت له عامل الا شاطر ورثته وهو يقول انها سنة سها عمر ثم تدرج الى استصفاء
اموال الرعية وهو اول من فعل ذلك ^(٢)

فالعمدة في حفظ النظام على الراس فاذا صاح صاحت الاعضاء • فقد رايت ان
خلفاء بنى أمية طلبوا المال لقيام دولتهم باي وسيلة كانت فامدوا العمال بالسلطة
واطمعوه فعمد هؤلاء الى احراز الاموال لانفسهم ايضاً واقتدى بهم العمال الصغار
كالكتاب والجاني ونحوهما فزادت شكوى اصحاب الارضين فاضطر العمال الى اخراج
اعمال الحياية من العرب وتسليمها الى الموالي ومنهم الدهاقين اصحاب الضياع في العراق •
فعل ذلك ابن زياد عامل الخراج سنة ٦٤ هـ فعاتبه بعضهم فاجابه « كنت اذا استعملت
العربي كسر الخراج فاذا اغرمت عشيرته او طالبتة او غرمت صدورهم وان تركته
تركت مال الله وانا اعرف مكانه فوجدت الدهاقين ابصر بالحياية واوفى بالامانة واوهن
بالمطالبة منكم مع اني جعلتكم امناء عليهم اثلاً يظلموا احداً » ^(٣)

وفي كلام القاضي ابي يوسف في عرض وصيته للرشد بشأن عمال الخراج
ما يبين الطرق التي كان اولئك الصغار يجمعون الاموال بها قال « بلغني انه قد يكون

في حاشية العامل أو الوالي جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بابرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم في أعماله يقتضي بذلك الذمامات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينصفون من يعاملونه انما مذهبهم اخذ شيء من الخراج كان او من اموال الرعية • ثم انهم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي • • • • • ويقمعون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة • • • وهذا عظيم عند الله شنيع في الاسلام» (١)

وكان شأن بني امية وعملهم وجباةهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان تقياً منصفاً فاراد ان يرد الامور الى ما كانت عليه في ايام سميح وحده لأمر عمر بن الخطاب فاصدر اوامره الى العمال بابطال تلك المظالم وعينها باسمائها مفصلة (٢) وابطل لعن علي على المنابر • وكان اهله قد اقتتوا الضياع واخذوا كثيراً منها من اهل الذمة بغير حق ففتح باباً للناس واعلن « ان من كانت له ظلامة فليأت » فانه المظلومون وفيهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم ومنهم من يشكي احتلاس ماله وآخرا غصب ضيعته وكان ينصفهم بالحق والعدل ولو ان الحكمه على ابنه او اخوته او ابناء عمه (٣) فقال له بعضهم « وكيف تصنع بولدك » فبكى خنواً وقال « اكلمه الى الله » واخذ اموال اعمامه واولادهم وسماها « مظالم » فلما رأى اهله ذلك خافوا على سلطانهم وهوانا مقام بلال فاذا خرجت الضياع والاموال من ايديهم ذهب ضياعاً فمشوا الى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه اليها فاته فقال لها « ان الله بعث محمداً (صلى الله عليه وسلم) رحمة ولم يبعثه عذاباً الى الناس كافة » (٤)

ولما رأى الموالي عدله وتقواه اغتموا الفرصة وشكوا اليه ما يقاسونه من الذل والضغط • وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد ارسل الى عمر بن عبد العزيز في الشام وفداً رجلين من العرب ورجلاً من الموالي فتكلم العربيان والمولى ساكت فقال له عمر « ما انت من الوفد ؟ » قال « بلى » قال « فما يمنعك من الكلام » فقال « يا امير المؤمنين عشرون الفا من الموالي يغزون بلا عطاء ولا

(١) كتاب الخراج ٦١ و ٦٢ (٢) الطبري ١٣٦٦ ج ٣ وابن الاثير ٢٩ ج ٥

(٣) الخميس ٣٥٣ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٣٠ ج ٥

رزق وصلهم قد اسلموا من اهل الذمة يؤخذون بالخراج وأميرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان» (١) فقال عمر «احر بمثلك ان يوفد» وكتب الى الجراح «انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية» فرغب الناس في الاسلام وتسارعوا اليه فقبل للجراح «ان الناس قد سارعوا الى الاسلام نفوراً من الجزية فامتنعهم بالختان» فكتب الجراح الى عمر بذلك فاجبه «ان الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خائناً» (٢)

وفعل عمر نحو ذلك مع عامله على مصر حيان بن شريح وكان حيان قد كتب اليه «اما بعد فان الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار اتمت بها عطاء اهل الديوان فان رأى أمير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل» فكتب اليه عمر «اما بعد فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف ضعفك وقد أمرت رسولي بضربك على راسك عشرين سوطة» فضع الجزية عنمن اسلم قبح الله رأيك فان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جايياً — ولعمري لعمري اشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه» (٣)

وقس على ذلك عماله الآخرين فانه عزل من لم يوافقهم منهم فاصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لانه حاول اصلاح الامور بالعنف دفعة واحدة والعنفرة محال وما في بني أمية وعمالهم الا من كرد ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات فقتلوه بالسم وبعده المؤرخون من الخلفاء الراشدين (٤) واذا قالوا «العمرين» ارادوه وعمر بن الخطاب (٥)

فترى مما تقدم ان القواعد الاساسية التي قام عليها الاسلام تدعو الى الانصاف والرفق ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شؤونها. ولو اتىح لعمر بن عبد العزيز ان يعيدها الى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لامحت مظالم بني أمية ولكنه جاء في غير اوانه فذهب سعيه هدراً. ولما مات عادت الامور الى مجاريها ورافقها رد الفعل فصارت الى اشد مما كانت عليه قبله وبالغ العمال في الاستبداد والعسف وشددوا في استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض اصحاب الارضين الى الالقاء اي ان يلجئوا اراضيهم الى بعض اقارب الخليفة او العامل تعزراً به من جباة الخراج كما سيأتي

(١) الطبري ١٣٥٤ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٢٤ ج ٥ (٣) المقرئ

٧٨ ج ١ (٤) الخميس ٣٥٤ ج ٢ (٥) القرمانى

اما الخلفاء فانهم ازدادوا انغماساً في الترف واولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع الى اللهو والتخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريته سلامة وحباية وحديثهم مشهور^(١) وخلفه اخوه هشام وكان بخيلاً وفي ايامه زبدت الضرائب في مصر على يد ابن الجباج كما تقدم • وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك وكان مثل ابيه في اللهو والتخمر فقتله اهله وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ وكان عازماً على اصلاح الامور اقتداءً بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب القاه عند مبايعته^(٢) فاصابه من الفشل فحو ما اصاب عمر لان الاحوال غير ملائمة • وفي ايام خلفه مروان بن محمد تغلب بنو العباس وصارت الخلافة اليهم

وكان بنو امية قد انغمسوا في الترف واللهو والتخمر واصبحوا لا ينظرون الى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون في انتقاء عمالهم وربما ولوا العامل عملاً بأشارة جارية او مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجند بن عبد الرحمن • وكان الجند قد اهدى امرأة هشام قلادة من جوهر فاعجبت هشاماً فاهدى هشاماً قلادة اخرى فولاد هشام على خراسان سنة ١١١ هـ^(٣) وبلغ ثمن الجارية في ايام بني امية ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وهي الذلفاء^(٤) واصبح العمال لاهم لهم الاحشاد الاموال والاستكثار من الصنائع والموالي ولم يعد اهل العدالة يرضون بولاية الاعمال مخافة ان يقصروا بالمال الذي يطلبه الخلفاء • كما حدث ليزيد بن المهلب لما ولاء سليمان بن عبد الملك العراق فقال يزيد في نفسه « ان العراق قد اخرجهما الحجاج وانا اليوم رجاء اهل العراق وعتي قدمتها واخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت كالحجاج ادخل على الناس الحرب واعيد عليهم تلك السجون التي قد عاقفهم الله منها وميتي لم ات ساميان بمنزل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني »^(٥) وقس على ذلك رأي غيره ممن يؤثرون الرفق • فلم يرغب في الولايات الا اهل المطامع • وجعل الخلفاء من الجهة الاخرى يطمعونهم بالرواتب الفادحة فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة امير العراق في اواخر ايام بني امية ٦٠٠,٠٠٠ درهم^(٦) وكان العمال يبذلون جهدهم في اختزان

(١) الجزء الاول من هذا الكتاب ٦٨ (٢) ابن الاثير ٣١٧ ج ٥

(٣) ابن الاثير ٧٢ ج ٥ (٤) اعلام الناس ٣٥ (٥) الطبري ١٣٠٦ ج ٢

(٦) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢

الاموال لانفسهم لعلمهم ان الولاية غير ثابتة لهم . فكثرت اموالهم واتسعت ثروتهم فبلغت غلة خالد القسري امير العراق في ايام هشام ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم ^(١) اي نحو مليون دينار . فاصبح الخلفاء لا يعزلون عاملاً عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المار . وكانوا في ايام معاوية يشاطرون العمال اقتداءً بعمر بن الخطاب . ثم صاروا يحاكمونهم ويستخرجون كل ما تصل اليه معرفتهم من اموالهم كما فعلوا بخالد القسري اذ وشى به كاتبه حيان النبطي انه فرق ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم . فبعث هشام اليه من اخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ^(٢) ويسمون هذا العمل استخراجاً وكانوا يستخدمون الشدة فيه فوقع بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية

اما ارتفاع الدولة الاسلامية في ايام بني أمية اي مقدار ما كان يجتمع لهم من الحراج والجزية وغيرها فقد ضاع تفصيله في حجة ماضع من اخبارهم في الفن . على ان المملكة الاسلامية بلغت في ايامهم اتساعاً عظيماً نحو اتساعها في ايام العباسيين ولكن عمدتهم كانت على العراق والجزيرة والشام ومصر . واما الاطراف فقد كان خراجها يذهب بين العمال والكتاب والحياة . على ان كثيراً منها لم يكن يدفع شيئاً يستحق الذكر لان قدم الامويين لم تكن راسخة فيها

واختلفت جباية العراق والشام ومصر باختلاف السنين والعمال وقد فضلنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ١٧٥ وخلاصته ان متوسط جباية العراق في ايامهم نحو ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم و جباية مصر ٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار (او ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم) وجباية الشام ١٧٠٠,٠٠٠ دينار (او ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم) فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم يضاف اليه اموال البلاد الاخرى مما لا نعرف مقداره

وخلاصة ما تقدم ان الاموال كانت تستخرج في ايام بني أمية بكثرة ولكنها لا تسمى ثروة لانها كانت تصرف في الحروب لتأييد شوكتهم . فقد حاربوا علناً والحسين بن علي والختار بن ابي عبيد وعبد الله بن الزبير وحاربوا الخوارج وغيرهم ناهيك بما كان يقوم من الفن بين القبائل العربية اليمنية والمضرية وبين العرب والموالي فضلاً عما كان ينفقه الخلفاء والامراء في البذخ والاهو والقصف

(٤) الدولة العباسية

للدولة العباسية عصران يختلف احدهما عن الآخر اختلافاً عظيماً : العصر الاول وهو ما يعبرون عنه بالعصر الزاهي يمتد من اول نشأة هذه الدولة سنة ١٣٢ هـ الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هـ وفيه بلغت الدولة العباسية قمة مجدها وأنشأت التمدن الذي نحن في صددده وفيه أدركت ثروة الدولة الاسلامية اعظم ما بلغت اليه في عصر من العصور وعليها مدار الكلام في هذا الكتاب والعصر الثاني ويعبرون عنه بعصر التقهقر او الانحطاط يتبدى بخلافة المعتصم سنة ٢١٨ هـ وينتضي بانقضاء الدولة العباسية من بغداد وفيه تقهقر التمدن الاسلامي وقلت الثروة وضعفت الدولة حتى انحلت عراها وانقضت ايامها

العصر العباسي الاول من سنة ١٣٢ الى ٢١٨ هـ

(سبب قيام هذه الدولة) رأيت في ما تقدم ان العصر الاموي يمتاز عن عصر الراشدين بانقلاب الحكومة فيه من الخلافة الدينية الى السياسة الدنيوية وان خلفاءها وعماها انما كان همهم جمع المال . وانه يمتاز عن العصر العباسي بتعصب اهله للعرب واحتقارهم سائر الامم وخصوصاً الشعوب التي كانت تحت سلطانهم في البلاد التي دانت لهم في مصر والشام والعراق وفارس وخراسان وغيرها وفيهم القبط والنبط والروم والبربر والكلدان والفرس والترك والسودان وغيرهم -- حتى الذين اسلموا منهم . فاصبحت تلك الامم تن من معاملتهم وزادها نفوراً ما كانوا يتخذونه من العنف في تحصيل الخراج واصبحوا يودون الخروج من حوزتهم وينصرون كل من دعا الى خلعهم ^(١) وخصوصاً الموالي فانهم باعترافهم الاسلام خسروا اراضيهم ومنازلهم واصبحوا مطالبين بالذهاب الى الحرب لحماية الدولة . فكان بنو أمية يخرجونهم الى القتال مشاة بلا رزق ولا فيء كما تقدم . وكان مناظرو هذه الدولة يعتمدون الفرص ويستنصرون الموالي عليها ويجعلون لهم الارزاق . واول من فعل ذلك المختار بن ابي عبيد سنة ٦٦ هـ اذ جاء للانتقام من قتلة الحسين بالكوفة . فعظم ذلك على العرب

وقالوا « ان المختار قد آذى بمواليها فحملهم على الدواب وأعطاهم فيئنا » فقال لهم المختار يومئذ « اذا انا تركت مواليكم وجعلت فيكم لكم تقاتلون معي بني أمية ٢٠٠ » فتفاوضوا فيما بينهم فقال أحدهم « ان أطعموني لم تخرجوا لاني اخاف ان تفرقوا وتختلفوا ومع الرجل شجعانكم وفرسانكم ٠٠٠ ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ٠ ومواليكم اشد حنقا عليكم من عدوكم فهم مقاتلوكم بشجاعة العرب وعداوة العجم »^(١)

وكان ذلك شأن الموالي مع كل من قام يدعو الى خلع بني أمية ولذلك كثر الحوارج في أيامهم وقام في نفوس العرب ان الخلافة لا يشترط فيها القرشية^(٢) على ان هذا الاعتقاد لم يتمكن من نفوس المسلمين الا بعد احيال ٠ اما يومئذ فكان الدعاة اكثرهم من أهل بيت النبي وفيهم العلويون من نسل الامام علي ابن عم النبي والعباسيون من نسل العباس عمه ٠ وكان الخراسانيون من اكثر الناس نقمة على بني أمية للأسباب التي قدمناها ٠ فاخذوا بيد العباسيين وقادتهم ابو مسلم الخراساني ٠ ولما نهضوا نهض معهم كل المسلمين غير العرب في كل انحاء المملكة الاسلامية فضلا عن أهل البلاد غير المسلمين ٠ فدارت الدائرة على بني أمية وتأييد العباسيون فجعلوا عاصمتهم في العراق بالقرب من نصراتهم

وعرف العباسيون علة سقوط بني أمية فتجنبوا الوقوع في مثلها فاتخذوا الجند والاعوان من الفرس واستبقوا الجند العربي أيضاً من ربيعة ومضر رغبة في المحافظة على العصبية العربية لانها عماد الاسلام ٠ ولم يكونوا يستطيعون التوفيق بين العنصرين لانهم سيقوا بطبيعة الامور الى الاختلاط بالفرس والتزوي بالبنسب من القلائس ونحوها — جعلوا ذلك فرضاً واجباً عليهم ٠ وأول من أخذ الناس بابسه المنصور سنة ١٥٣^(٣) قامهم بابس القلائس الطوال المفرطة الطول فقال أبو دلامة :

وكنا نرجي من امام زيادة فزاد الامام المصطفى في القلائس

نراها على هام الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس

على ان غضب العرب لم يغير شيئاً من مجاري الامور فاتخذ الخلفاء امهات اولاد

(١) ابن الاثير ١١٣ ج ٤ (٢) الاستقصاء ٦٠ ج ١ (٣) الطبري

من الفرس اولدوهن اولاداً تولوا الخلافة وفيهم ميل فطري الى العنصر الفارسي . وازداد هذا العنصر تغلباً في بلاط الخلفاء بما اتخذوه من الوزراء ورجال الشورى منهم كالبرامكة وغيرهم . وكان الفرس يبذلون جهدهم في خدمة الدولة العباسية بنصح وصدق نية لان في قيامها صلاح بلادهم

(العرب والبيعة) على ان الخلفاء لم يكن لهم غنى عن جزيرة العرب وفيها الحرمين الكعبة وقبر النبي وفي احترامهما احترام الدين الاسلامي وعليه تقوم دعائم الخلافة . وزد على ذلك انهم كانوا يخافون أهل الحرمين من التشيع لآل علي وهم في حاجة الى بيعة فقهاء المدينة لما لهم من المنزلة في الخلافة والبيعة وكان أهل الورع من الخلفاء لا يقطعون أمراً دونهم^(١) فشق ذلك على الفرس وخافوا ان يرجع النفوذ الى العرب فينتقموا منهم وتذهب مساعيهم لأدراج الرياح فسعوا في اغفال بلاد العرب . ولا سبيل الى اغفالها والكعبة فيها وهي حج المسلمين والحج من أركان الاسلام . فحجب بعضهم الى المنصور ان يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها في العراق وتكون حجاً للناس فبنى بناءً سماه القبة الخضراء تصغيراً للكعبة^(٢) وقطع الميرة في البحر عن المدينة^(٣) فالتخذ العرب ذلك حجة على العباسيين وأظهروا البيعة لمحمد بن عبد الله من آل علي وخلعوا بيعة المنصور وقد أفتى لهم بذلك مالك بن انس الامام الشهير^(٤) . وكان بنو أمية في الأندلس قد قطعوا دعوة بني العباس بعد أن دعوا لهم مدة قصيرة^(٥) عند دخول عبد الرحمن بن معاوية كما ذكرنا في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٧٣ . واستقل عبد الرحمن بالأندلس لبعدها عن دار الخلافة . ثم استولى محمد بن عبد الله على المدينة فخافه المنصور وبذل قصارى همه في قتله ولم يستطع ذلك الا بعد العناء الشديد

فكان ما قاساه المنصور من عواقب اهاله الحرمين عبرة لخلفائه فلما تولى ابنه المهدي أكرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة وفرق هناك مالاً عظيماً جاء به معه من العراق مقدار ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وجاءه وهو في المدينة ٢٠٠,٠٠٠

(١) ابو الفداء ٢٠٩ ج ١ (٢) الطبري ١٩٧ ج ٣ (٣) ابن الاثير

٢٦١ ج ٥ (٤) ابن الاثير ٢٥١ ج ٥ (٥) ابن الاثير ٢٣٥ ج ٥ و ٤٥

ج ٦ وابن خلدون ٢٨٠ ج ٣

دينار من مصر و ٢٠٠,٠٠٠ دينار من اليمن ففرقها كلها و فرق ١٥٠,٠٠٠ نوب ووسع المسجد و اتخذ حرساً من الانصار عددهم ٥٠٠ رجل حملهم معه الى بغداد واقطعهم الارضين ^(١) و امر بمحفر نهر الصلة بواسط واحيا ما عليه من الارضين وجعل غلته لصلات اهل الحرمين والنفقات هناك ^(٢) واصبح اكرام الحرمين على هذه الصورة سنة في بني العباس في اثناء حجهم او عند طلب البيعة لاولادهم فان الرشيد حج سنة ١٨٦ هـ ومعه ابنه الامين والمأمون فلما وصل المدينة اعطى فيها ثلاثة اعطيه عنه وعن ولديه . وفعل نحو ذلك في اهل مكة وبلغ ما فرقه ١,٠٥٠,٠٠٠ دينار وكتب هناك كتاباً بولاية العهد للامين و آخر للمأمون ووضع الكتابين في الكعبة ^(٣) واصبحت النفقة على الحرمين من جملة نفقات الدولة الضرورية . وعاد شأن العرب الى الظهور والحلفاء يرون ذلك ضرورياً لتثبيت اقدامهم في الملك

على انهم كانوا من الجهة الاخرى لا يستغنون عن الفرس وهم وزراؤهم ومشيروهم . فزادت المنافسة بين العنصرين حتى كان ما كان بين الامين والمأمون واستنصر المأمون جند خراسان وهم اخواله ^(٤) لان امه فارسية . والامين امه عربية هاشمية ^(٥) وجنده ينصرون العرب فغلب جند المأمون فقبض على ازمة الملك فعاد النفوذ الى الفرس فشق ذلك على العرب ونقموا عليه وارادوا البيعة لسواه واخراج الامر من يده ^(٦) فازداد كرها لهم ورد لهم فعوتب في ذلك مرة وهو في الشام فقال له رجل « يا امير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » فقال له « اكثرت عليّ والله ما انزلت قيساً من ظهور خيلها الا وانا ارى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحد واما اليمن فوالله ما احببها ولا احببني قط واما قضاة فساداتها تنتظر السفيناتي حتى تكون من اشياعه واما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث نبيه من مضر » ^(٧)

ولما تولى المعتصم سنة ٢١٨ هـ واصطنع الاتراك والفراغنة ازداد العرب احتقاراً في عيون اهل الدولة وتقصرت ايديهم عن اعمالها حتى في مصر فان آخر عربي

(١) الطبري ٤٨٣ ج ٣ (٢) قدامة ٢٤٢ (٣) ابن الاثير ٦٩ ج ٦

(٤) ابن الاثير ٩٠ و ٩٢ ج ٦ (٥) الطبري ٩٣٧ ج ٣ (٦) ابن الاثير ١٢٦

ج ٦ (٧) ابن الاثير ١٧٦ ج ٦

تولاهاعنبة بن اسحق الضبي سنة ٣٣٨ هـ^(١) واراد المعصم ان يستغني عن بلاد العرب جميعاً وكان قد بنى سامراً بقرب بغداد واقام فيها جنده فانشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافاً واتخذ منى وعرفات غراً به امراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية ان يفارقوه^(٢) فأصبح لفظ «عربي» مرادفاً لاحقر الاوصاف عندهم . ومن اقوالهم «العربي بنزلة الكلب ا طرح له كسرة واضرب راسه»^(٣) وقولهم «لايفاج احد من العرب الا ان يكون معه نبي ينصره الله به»^(٤) واصبح الامراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالاجناد وبذل المال وقت العناية بالعرب واحزابهم

وكان العرب من الجهة الأخرى يجاهرون بكره الفرس وغيرهم من الاعاجم ويطعنون بمن يعيل اليهم ولو كان من الخلفاء ولذلك فلما مات المعصم وتولى بعده الواثق كان دعبل الخزازي الشاعر المشهور في الصميرة فلما جاءه نعي المعصم وقيام الواثق انشد هذين البيتين :

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء اذا اهل البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له احد وآخر قام لم يفرح به احد^(٥)

وخلاصة ما تقدم ان الجامعة الإسلامية كانت في عصر الراشدين عربية وكان غرضهم الاول نشر الاسلام في الارض يدفعهم الى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة وان الله يدعوهم الى ذلك . فلما تولاهابنو امية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال وتحول الغرض الى السلطة الزمنية السياسية وظلت الجامعة العربية متينة . وفي عصر العباسيين استبدلوا العصبية العربية بالاعاجم واحتاجوا في اصطناعهم او استخدامهم الى المال وأنخرطوا هم في سلكهم بواسطة الامهات . ثم اصبح الاعاجم من الفرس والترك والديلم والصفد والفراغة وغيرهم يتسابقون الى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال كما سترى



(١) المقرئ ٤٥٥ ج ٢ (٢) المقدسي ١٢٢ (٣) ابن الاثير ٢١١ ج ٦

(٤) الطبري ١٥٨٨ ج ٣ (٥) الجزء الاول ١٢٩

ثروة الدولة العباسية

في العصر العباسي الاول

وصلنا الى موضوع هذا الكتاب لان الثروة الاسلامية لم تنضج الا في هذا العصر وعليه سيكون مدار كلامنا . ونقاس ثروة الدولة المالية بما بقي في بيت مالها من دخلها بعد النفقات لابتقار الدخل على الاطلاق اذ قد يكون الدخل كثيراً والنفقة اكثر منه ونفع الدولة تحت العجز . فاذا اعتبرنا ذلك كانت ثروة الدولة العباسية في العصر الاول فاحشة — وان كنا لم نقف على ميزانيتها في عهد الخلفاء الخمسة الاولين فلم نعلم مقدار جبايتها في العام مما يعبرون عنه بارتفاع الدولة لضياح حساباتها في الفتنة بين الامين والمأمون اذ احترقت الدواوين^(١) وضاعت الدفاتر كما احترق ديوان بني أمية في عام الجاهج^(٢) — ولكننا نعلم مقدار الثروة في أيامهم مما كانوا يخزنونه من المال في أثناء حكمهم

﴿ الثروة في أوائل الدولة ﴾ فالخليفة الاول أبو العباس السفاح لم يحكم الا أربع سنوات (من سنة ١٣٢ — ١٣٦) قضاها في الحروب ولم يجمع مالاً . ولما مات لم يجدوا في بيته الا تسع جباب وأربعة أقصة وخمسة سراويلات واربعة طيالة وثلاثة مطارف خز.^(٣) وأما المنصور فانه حكم ٢٢ سنة (١٣٦ — ١٥٨) وكان رجلاً حازماً كثير الاحتياط شديد الحرص على المال واختزانه — لاعتن بخل ولكنه كان يخاف الفتن . فلما مات خلف في بيت ماله ٦٠٠.٠٠٠ و ٦٠٠.٠٠٠ درهم و ١٤٠.٠٠٠ و ١٤٠.٠٠٠ دينار^(٤) وتحويل هذه الدنانير الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهي قيمته في ذلك العصر تقريباً كان مجموع ما خلفه المنصور ٨١٠.٠٠٠ و ٨١٠.٠٠٠ درهم (والدرهم نحو فرنك) . فلما دنا أجله أوصى ابنه المهدي قائلاً « قد جمعت

(١) قدامة ٢٣٦ (٢) المساوردي ١٨٣ (٣) الطبري ٨٨ ج ٣

(٤) المسعودي ١٧٧ ج ٢

لك في هذه المدينة من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لارزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحفظ بها فانك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً»^(١) ويدل ذلك على دهاء المنصور واحتياطه للزمان . على ان سيرته كلها تدل على الحزم والعظمة والدهاء وهو بالحقيقة مؤيد دولة بني العباس حارب في سبيل سلامتها حروباً كثيرة أنفق فيها اموالاً طائلة منها ٦٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم أنفقها في حرب الخوارج بأفريقية سنة ١٥٤ هـ فاعتبر ما أنفقه في الحروب الاخرى وهي كثيرة -- فضلاً عما كان يبذله لاهله فانه بذل لجماعة منهم في يوم واحد ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٢) وأنفق على بناء بغداد وحدها ٤,٨٣٣,٠٠٠ درهم^(٣) ناهيك بما كان ينفقه على اصلاح الري وبناء الجسور . فاذا اعتبرت ذلك كله هان عليك تقدير ما وصل الى بيت المال في أيام المنصور بمليار درهم (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) على الاقل . فاذا قسمت ذلك على سني حكمه (٢٢) لحق السنة ٤٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم سوى الاموال التي كان يأخذها من العمال اذا عزلهم واستخرج أموالهم . لانه كان اذا عزل عاملاً أخذ ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » وكتب على كل مال اسم صاحبه . ولما أحس بدنو الاجل أوصى ابنه المهدي في ذلك قائلاً « قد هيأت لك شيئاً فاذا أنا مت فادع من أخذت ماله فاردده عليه فانك ستحمد بذلك اليهم والى العامة »^(٤) ففعل المهدي ذلك لما تولى . وقد يتبادر الى الذهن ان المنصور استكثر المال بما أخذه من أموال بني أمية بعد قهرهم وهي كثيرة ولكن تلك الاموال ظلت منفردة في خزانة خاصة يسمونها « مال أهل بيت اللعنة »^(٥) وثروة المنصور قد تعدت قليلاً بالنظر الى ثروة الرشيد فقد خلف في بيت المال عند وفاته (سنة ١٩٣ هـ) ٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ونيفاً^(٦) ومدة حكمه

(١) الطبري ٤٤٤ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٣) المقدسي ١٢١

وسير الملوك ٥٤ (٤) الطبري ٤١٥ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٤٠ ج ٦

(٦) الطبري ٧٦٤ ج ٢ وابن الاثير ٨٥ ج ٦

نحو مدة حكم المنصور غير ما أنفقه الرشيد وما بذله وأسرف فيه وكرمه مشهور .
وفد يخطر في البال ان هذا المال تجمع من أيام المنصور فالهادي فالرشيد ولم يجتمع كله في أيام الرشيد . والواقع ان المهدي انفق كل ما خلفه المنصور
وكل ما جباه في اثناء خلافته (من سنة ١٥٨ - ١٦٩)^(١) لانه كان كثير السخاء .
ولم يحكم الهادي الا سنة وبعض السنة ويروى من فرط سخائه انه أعطى عبد الله
ابن مالك اربعمائة بغل موقرة دراهم وغيرها فلا يعقل ان يجتمع عنده مال
يستحق الذكر . فما خلفه الرشيد في بيت المال انما جمع في أيامه واذا قدرناه
باعثبار مدة حكمه لم يزد كثيراً عما تركه المنصور لما بينهما من البون الشاسع في
السخاء . فقد كان الرشيد كريماً حتى انه لم يكن يعرف للمال قيمة^(٢) وكان المنصور
متهاً بالخل^(٣) ناهيك بما كان من أمر البرامكة في أيام الرشيد وما امتلكوه
من الضياع وبذلوله من الاموال مما هو معلوم

ولما مات الرشيد سنة ١٩٣ تنازع ولداه الامين والمأمون على الخلافة
وتحاربا وكان الامين في بغداد وقد آتته امه زبيدة بخزائن أبيه^(٤) والمأمون في
خراسان ودامت الحرب بينهما بضع سنوات انفق الامين في اثائها كل ما كان في
بيت المال مع ما أنفقه في خاصته . لانه انقطع في اثناء خلافته الى اللهو والخمر
وبذل الاموال في طلب الملهين وضمهم اليه واجرى عليهم الارزاق واحتجب عن
اخوته واهل بيته وقسم الاموال والجواهر في خواصه من الخصيان والنساء^(٥)
فلما قتل الامين سنة ١٩٨ استوسق الامر في المشرق والمغرب للمأمون وزاد
نفوذ الخراسانيين في ايامه لانهم هم الذين اعادوا الملك اليه واستتببت السكينة في
المملكة العباسية واشتغل المأمون في نقل العلوم الى العربية وسنأتي على تفصيل
ذلك في جزء آخر من هذا الكتاب خاص بالعلم والادب

(١) المسعودي ١٧٧ ج ٢ (٢) الطبري ١٣٣ ج ٢ (٣) ابن

الاثير ١٢ ج ٦ (٤) ابو الفداء ٢٠ ج ٢ (٥) ابو الفداء ٢٢ ج ٢

اما الثروة في ايام المأمون فانها اتسعت لاستكانة الناس الى العمل واجتماع القلوب ومدة حكمه ٢٢ سنة نحو مدة ابيه الرشيد وابي جده المنصور ولكننا لم نقف على مقدار ما خلفه في بيت المال عند وفاته ولعل خبر ذلك ضاع في جملة ما ضاع من هذا القبيل لقلة عناية مؤرخي تلك الايام في هذه الابحاث

على ان اذخار المال اصبح بعد الخلفاء الراشدين من الامور المألوفة عند ملوك المسلمين في كل الممالك والعصور . قيل ان عبد الرحمن الناصر خليفة الاندلس الشهير (تولى سنة ٣٠٠-٣٥٠) جمع في بيت ماله الى سنة ٣٤٠ هـ نحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار^(١) وكانت جباية الاندلس في ايامه ٥,٤٨٠,٠٠٠ دينار ومن السوق والمستخلص ٧٦٥,٠٠٠ دينار الجملة ٦,٢٤٥,٠٠٠ دينار ما عدا اخماس الغنائم فانها كانت كثيرة^(٢) وكان الناصر ينفق على جنده ثلث هذا المال فقط^(٣) وقد بالغ ابن خلدون في مقدار ما خلفه الناصر في بيت المال فجعله ٥,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ولم يذكر ذلك جزافاً ولا خامر كلامه شك بل هو حولها الى الوزن فكانت على تقديره ٥٠٠,٠٠٠ قنطار^(٤) وهو قول بعيد لا ندري كيف تطرق الى قلم هذا الفيلسوف . ويدل على بعمد ان ابن حوقل وهو من معاصري تلك الدولة قدر ما اجتمع في بيت مال الحكم بن الناصر بعد موت ابيه من خدمه والمصادر بين وغيرهم فلم يزد على ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار وعد ذلك كثيراً لم يجتمع لدولة من الدول في ذلك العصر^(٥) وكانت بغداد يومئذ في عصر الانحطاط وخلفاؤها وقوادها ووزراؤها يتقاتلون على المال وبصادر بعضهم بعضاً اما في ايام المأمون فمال الذي كان يجتمع من صوافي الجباية في بيت المال كل عام لم يجتمع في دولة من دول المسلمين ولا غيرهم . وقد وقفنا على مقدار

(١) ابن حوقل ٧٧ (٢) نقح الطيب ١٧٩ ج ١ (٣) ابن خلكان

٣٠ ج ٢ (٤) ابن خلدون ١١٥ ج ١ (٥) ابن حوقل ٧٧

تلك الجباية في مقدمة ابن خلدون نقلاً عن جراب الدولة^(١) وهي اقدم جريدة اوقائمة وصلت الينا من حسابات الدول الاسلامية . تليها جريدة اخري نقلها قدامة بن جعفر وأخرى رواها ابن خرداذبه وكلها لا تتجاوز اواسط القرن الثالث للهجرة وسند كلاً منها وتقابل بينها ليتبين لنا مقدار تلك الثروة

ولكننا نرى قبل التقدم الى ذكر الجباية ان نأتي على فذلكة في جغرافية المملكة الاسلامية في ايام المأمون لتتضح نسبة اعمال تلك المملكة بعضها الى بعض والى عاصمة المملكة العباسية



جغرافية مملكة الاسلام

في عصر المأمون

﴿ حدودها ﴾ يحدها من الشرق أرض الهند وبعض الصين وبحر فارس ومن الغرب مملكة الروم ويعبر عن تلك الحدود الآن بالبحر الاسود وآسيا الصغرى وبحر الروم والروس والبلغار . ومن الشمال بلاد السريز والخزر والالان في اسيا وجبال البيرينية في أوربا . وفي خارطة هذه الايام بلاد سيديريا وبحر قزوين وبحر الروم . ومن الجنوب بحر فارس وما يلي مصر من بلاد النوبة وقدينا مساحتها وعدد سكانها في الجزء الاول صفحة ٧٩

وتقسم هذه المملكة الى عدة اعمال تختلف مساحتها ونسبتها بعضها الى بعض باختلاف الدول والازمنة وسنبين ما كانت عليه حوالي عصر المأمون نقلاً عن جغرافي العرب في تلك الايام وخصوصاً الاصطخري وابن حوقل وابن الفقيه . فهي تقسم الى سبعة وعشرين أقلية منها سبعة في المغرب وعشرون في المشرق وهي :

﴿ اقاليم المغرب ﴾

الشام	ديار العرب
بحر الروم	بحر فارس
الجزيرة	ديار المغرب
	مصر

﴿ اقاليم المشرق ﴾

الجبال	العراق
الديلم	خوزستان (الاهواز)
طبرستان	فارس
جرجان	كرمان
قوس	مكران
مفازة خراسان	طوران
سجستان	السند
خراسان	ارمينية
ما وراء النهر	اذر بيجان
خوارزم	بلاد الران

واليك وصف كل من هذه الاقاليم بما يمكن من الايجاز :

﴿ ديار العرب ﴾ وهي جزيرة العرب يحيط بها بحر فارس من عبادان - وهو مصب ماء دجلة في البحر - فيمتد على البحرين حتى ينتهي الى عمان ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي الى سواحل اليمن الى جدة ثم يمتد الى مدين حتى ينتهي الى ايلة . فهم يريدون ببحر فارس كل ما يحيط ببلاد العرب من المياه ولكنهم يمربون عن الجزء الممتد من باب المندب الى ايلة ببحر القلزم وهو البحر الاحمر . ويحدها من الغرب الشمالي برّا بلاد الشام وفلسطين بخط منحن يمتد من ايلة الى البحيرة المنثنة فالشراة فالبلقاء فاذرعات وسلمية فالخناصره

الى الفرات الى الرقة وقرقيسيا والرحبة فالكوفة الى البطائح فواسط الى عبادان ونقسم ديار العرب الى الحجاز وفيه مكة والطائف والمدينة واليمامة ومخاليقها . ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين . وبادية العراق . وبادية الجزيرة . وبادية الشام . واليمن المشتملة على تهامة . ونجد اليمن وعمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليق اليمن

(بحر فارس) ويراد به عندهم كل البحور المحيطة ببلاد العرب من مصب ماء دجلة في العراق الى ايلة ^(١) فيدخل فيه ما نعبّر عنه اليوم بخليج فارس وبحر العرب وخليج عدن والبحر الاحمر وخليج العقبة ولا يهمننا وصفه في هذا المقام (ديار المغرب) يراد بها في اصطلاحهم كل سواحل افريقيا الشمالية وراء حدود مصر غرباً ويدخل في ذلك (١) برقة (٢) افريقية وهي تونس (٣) تاهرت في الجزائر (٤) طنجة والسوس وزويلة في مراكن

اما برقة فهي مدينة وسط واقعة في مستو من الارض خصبة يطيف بها البادية يسكنها طوائف من البربر وبينها وبين افريقية مدينة طرابلس الغرب وهي من عمل افريقية مبنية من الصخر ويلبها المهدية ثم تونس وهي كبيرة خصبة ثم القيروان وهي عاصمة افريقية واكبر مدينة فيها واقعة في البر . وكذلك تاهرت فان عاصمتها تاهرت . ومن مدنها أيضاً سجلماسة وهي بعيدة في الصحراء

ويجعلون الاندلس جزءاً من بلاد المغرب لانها كانت تابعة لها عند فتحها والاندلس (اسبانيا) مملكة كبيرة عاصمتها قرطبة وحدودها معروفة . ومن اشهر مدنها جيان وطليطلة وسرقصطة ولاردة ووادي الجبارة وترجالة وقورية وماردة وباجة وغافق وبلبة وقرمونة واستجة ورية . وعلى سواحلها شنترين ومالقة وجبل طارق وغير ذلك

(مصر) وحدود مصر في تلك الايام مثل حدودها اليوم تقريباً ويلحقون بها البجة والنوبة الى حدود البحر الاحمر فالعقبة

﴿ الشام ﴾ ويراد بها سوريا على العموم وتقسّم الى سبعة أقسام (١) جند فلسطين (٢) جند الاردن (٣) جند حمص (٤) جند دمشق (٥) جند قنسرين (٦) العواصم (٧) الثغور

فجند فلسطين أول أجناد الشام غرباً يحده من جهة مصر رفح ومن الشمال اللجون وفيه يافا وأريحا وبيت لحم وغزة والشرية والبحيرة المنتنة وغور بيسان ونابلس وكانت قصبة فلسطين الرملة ويليهما في الكبر بيت المقدس وجند الاردن قصبته مدينة طبرية

واما جند دمشق فقصبته مدينة دمشق وهي أعظم مدن الشام على الاطلاق وهي معروفة

واما جند حمص فقصبته مدينة حمص وهي مشهورة ويتبعها انطربوس وسلمية بطرف البادية وشيزر وحماه وكاتنا صغيرتين

وجند قنسرين قصبته سلب وهي مشهورة الى اليوم وكان لها شأن كبير لوقوعها في طريق العراق الى الثغور والعواصم . ومن مدنها مدينة قنسرين وهي صغيرة ومعرة النعمان

وأما العواصم فيراد بها أعالي الشام وراء حلب الى اسكندرونة وقصبته انطاكية وهي تلي دمشق بالنزاهة . وكانت عاصمة الشام على عهد الروم وكان عليها سور ضخّم للغاية قيل ان دوره للراكب يومين ^(١) ومن مدن العواصم بالش على ضفة الفرات ومنبج في البرية

اما الثغور فهي ما وراء العواصم الى حدود جبل طورس في اسيا الصغرى ومن مدنها الشهيرة سميساط على الفرات وملطية وهي أكبر الثغور وحصن منصور ومنها الحدث ومرعش وزبطرة والهارونية والمصيصة وأذنة وطرسوس . وقد يدخلون الثغور في العواصم ويطلقون عليها جميعاً اسم العواصم . والمراد بالثغور عندهم المدن الواقعة على الحدود بينهم وبين الروم ولذلك كان عندهم ثغور شامية

اي الحدود مما يلي الشام وحدود جزرية اي الحدود مما يلي الجزيرة
 ﴿بحر الروم﴾ ويراد به وصف ما فيه من الجزائر مما لا دخل له في
 غرضنا الآن

﴿الجزيرة﴾ بين دجلة والفرات بلاد واسعة تعرف بما بين النهرين يسمى
 القسم الشمالي منها الجزيرة والجنوبي العراق والفصل بينهما تكريت على دجلة
 والانبار اوهيت على الفرات . ويلحق الجزيرة بعض البلاد وراء الضفتين في بعض
 المواضع . يحدها من الشمال ميافرقين وما يليها غرباً الى الفرات قرب
 ملطية ومن الجنوب هيت على نهر الفرات وتكريت على دجلة ويحدها من
 الغرب الجنوبي بادية الجزيرة ومن الشرق الجبال واذر بيجان

والجزيرة بلاد خصبة جداً مثل بلاد العراق . من اشهر مدنها الموصل على
 دجلة من جهة الغرب وسنجار في وسط البرية بديار ربيعة ليس في الجزيرة بلد
 فيها نخل مثلاً . ونصيبين وكانت انزه بلد في الجزيرة . ودارا وهي صغيرة . ورأس
 عين مدينة مستوية الارض في دار مضر وآمد في اعالي دجلة وجزيرة ابن عمر على
 دجلة أيضاً ومن مدنها على الفرات الرقة وقرقيسيا والحديثة وهيت . وفي اواسطها
 ايضاً حران وهي مدينة الصابئين . والرها وهي قديمة مشهورة بالمدارس والعلوم ايام
 السريان . وسروج مدينة خصبة كثيرة الاعناب

وفي الجزيرة مغاوز يسكنها قبائل من ربيعة ومضر تقيم ربيعة في الشمال الشرقي
 ومضر في الجنوب الغربي وقد كانوا هناك قبل الاسلام . وهم اهل خيل وغنم
 وابل على انهم متصلون بالقرى والمدن فهم بادية حاضرة . وتكريت آخر حدود
 الجزيرة على دجلة وكان اكثر اهلها نصارى

﴿العراق﴾ هو القسم الجنوبي من بين النهرين وما يجاوره طوله من
 تكريت على دجلة من الشمال الى عبادان على بحر فارس في الجنوب وعرضه من
 قادسية الكوفة في الغرب الى حلوان في الشرق . وتخطيطه اذا بدأنا من تكريت
 نسير شرقاً الى شهرزور ثم جنوباً شرقياً الى حلوان فالسيروان والصيمرة لحدود

السوس الى عبادان ثم ينعطف الى البصرة ومنها صعداً نحو الشمال والغرب في البادية على سواد البصرة وبطائعها الى الكوفة ثم على الفرات الى الانبار ومن الانبار شمالاً الى تكريت . ويسمى ما بين دجلة والفرات السواد . هذه حدود العراق في ابان التمدن الاسلامي وهي تختلف عن حدوده الآن وخصوصاً لان مجاري الانهر تغيرت وسنعود الى تفصيل ذلك في مكان آخر

واشهر مدن العراق بغداد وهي قصبته وعاصمة المملكة الاسلامية في ابان مجدها بناها المنصور . والبصرة وهي مدينة عربية بناها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب وللبصرة بطائح سياحي تاريخيها في موضع آخر . وواسط مدينة عربية أيضاً بناها الحجاج في وسط السواد . والكوفة غربي الفرات وهي من بناء العرب . ومن مدن العراق النهران شرقي دجلة على نهر اسمه النهران جف الآن . وحلولان في آخر حدود العراق شرقاً وكانت مدينة كبيرة بقرب الجبل . والحيرة قرب الكوفة والابلة قرب البصرة

﴿ خوزستان ﴾ هي شرقي العراق بينها وبين فارس يحدها من الشمال كور الجبال ومن الشرق فارس وأصبهان ومن الغرب العراق ومن الجنوب خليج فارس عاصمتها مدينة الاهواز واليها تنسب خوزستان فيقال لها الاهواز . وتنقسم الى كور أولها كورة الاهواز . ثم جندي سابور والسوس وتستر ورامهرمز وسرق وعسكر مكرم . وقصبة كل كورة المدينة المسماة باسمها

﴿ بلاد فارس ﴾ وهي واقعة بين خوزستان في الغرب وكرمان في الشرق ويحدها شمالاً اصفهان وبادية خراسان ومن الجنوب والغرب بحر فارس . وتنقسم بلاد فارس الى خمس كور اكبرها كورة اصطخر قصبتها اصطخر ثم كورة اردشير خرة وقصبتها جور وفيها أيضاً مدينة شيراز وهي عاصمة بلاد فارس وبها دواوينها ودار الامارة . ثم كورة دار الجرد وكورة ارجان قصبتها مدينة ارجان ثم كورة سابور وهي أصغر كور فارس وفيها مدينة كازرون . ومن بلاد فارس بقاع يقيم فيها قبائل من الاكراد يزيدون على مئة حي يعمشون بالرعي والحرف في

بقاع يقال لها رموم . ويقدر أن تلك القبائل في بلاد فارس وحدها بنحو ٥٠٠,٠٠٠ بيت ينتجعون المراعي في المشق والمصيف على مذاهب العرب . وقد يكون في البيت الواحد من الأرباب والأجراء والرعاة نحو عشرة رجال فإذا اعتبرنا معدل الرجال في كل بيت خمسة كان عدد الرجال الأكراد ٢,٥٠٠,٠٠٠ رجل وباعتبار ما يلحقهم من النساء والأولاد يزيد عددهم على عشرة ملايين

﴿ كerman ﴾ هي أكبر من فارس واقعة بين فارس في الغرب ومكران وسجستان في الشرق ويحدها من الشمال مفازة خراسان ومن الجنوب بحر فارس وأشهر مدنها الشيرجان وبم وجيرفت وهرموز

﴿ مكران ﴾ هي شرقي كerman وإلى شرقها طوران وبعض بلاد السند وفي الشمال سجستان وبلاد الهند وفي الجنوب بحر فارس وهي أكبر من كerman ومن مدنها التيز وكيز ودرك ورسك

﴿ طوران ﴾ هي أصغر من فارس واقعة بين مكران في الغرب وبلاد السند في الشرق والشمال وبحر فارس في الجنوب وأشهر بلادها محالي وكيز كانان وقصدار

﴿ السند ﴾ والسند آخر حدود مملكة الاسلام في الشرق وأشهر مدنها المنصورة وهي بلسان الهنود برهانا باذ ومنها الديبل على شاطئ البحر والمثلث وغيرها . أما المنصورة فإنها واقعة على خليج من نهر مهران يحيط بها في شبه الجزيرة وأهلها مسلمون . ويطلق الاصطخري على مكران وطوران والسند اسم السند

﴿ ارمينية ﴾ هي في أعالي مملكة الاسلام فوق الجزيرة تحدها من الشرق أذربيجان والران ومن الغرب بلاد الروم (في آسيا الصغرى) ومن الشمال جبال القبق (القوقاس) ومن الجنوب الجزيرة قضبتها ديل وفيها دار الإمارة والنصارى بها كثيرون ومن مدنها خلاط وارزن وقاليقلا وميفارقين ويمدها بعضهم من الجزيرة وهكذا فعلنا

﴿ أذربيجان ﴾ هي شرقي الجزيرة يحدها من الغرب الجزيرة ورمينية

ومن الشرق بحر الخزر وبلاد الديلم ومن الشمال بلاد الران ومن الجنوب كور
الجلال . عاصمتها مدينة اردبيل وفيها العسكر ودار الامارة طولها ميلان في ميلين
وبلي اردبيل بالكبر المراغة وكانت قبلاً دار الامارة وتليها ارمية على شاطئ
بحيرة الشراة . ومن مدنها سلماس ومرند وشيز

﴿ بلاد الران ﴾ هي شمالي اذربيجان يحدها من الشرق بحر الخزر ومن
الغرب أرمينية ومن الشمال جبل قبقق ومن الجنوب اذربيجان أكبر مدنها مدينة
برذعة ثم تفليس والباب ومنها بيلقان والشاوران وغيرها

﴿ الجبال ﴾ يراد بالجبال جبال فارس وهي تنقسم الى كور أشهرها ماه الكوفة
وهي الدينور وماه البصرة وتسمى نهاوند . ويحد الجبال من الشرق مفازة خراسان
وفارس ومن الغرب العراق والجزيرة ومن الشمال اذربيجان والديلم والري وقزوین
ومن الجنوب خوزستان والعراق . وهي تشتمل على مدن مشهورة أعظمها همدان
والدينور وما سبذان واصبهان وقم وقاشان ونهاوند والور والكرج وقزوین
وشهرزور وحلوان . مساحة همدان فرسخ في فرسخ وكان لها سور أبوابه من حديد .
والدينور (ماه الكوفة) نحو ثلثيها . واصبهان مدينتان بينهما ميلان . ونهاوند (ماه
البصرة) واقعة على جبل بناؤها من طين . وحلوان مدينة في سفح الجبل المطل
على العراق . وشهرزور قرية من العراق . وقزوین في أعالي فارس وهي ثغر
بلاد الديلم . وقم مدينة عليها سور وهي خصبة . وقاشان مدينة صغيرة

﴿ الديلم ﴾ هي جبال مطلة على بحر الخزر (بحر قزوین) يحدها من
الجنوب قزوین وبعض اذربيجان ومن الشمال بحر الخزر ومن الشرق قومس
ومن الغرب اذربيجان . وأهل الديلم صنفان سكان الجبال وسكان السهول ومن
توابعها الري وأبهر وزنجان والطالقان وقزوین والرويان

﴿ طبرستان ﴾ وهي تلي الديلم شرقاً واقعة على بحر الخزر أيضاً يحدها
من الشرق جرجان ومن الغرب الديلم . أكبر مدنها آمل وهي مركز الولاية وسارية
وهي بلاد كثيرة المياه وداوند (اودناوند)

﴿ جرجان ﴾ هي شرقي طبرستان وشمالها يحدها من الشمال تركستان ومن الجنوب قومس ومن الشرق خراسان ومن الغرب بحر الخزر . أكبر مدنها مدينة جرجان وهي أكبر من آمل . ثم استراباد في الجنوب ودهستان على شاطئ البحر ﴿ قومس ﴾ هي جنوبي جرجان وطبرستان وهما يحدها من الشمال . وأما من الجنوب والشرق فحدودها مفازة خراسان ومن الغرب تحدها بلاد الري قصبته مدينة الدامغان

﴿ مفازة خراسان ﴾ هي بادية واقعة في أواسط بلاد المشرق يحدها من الشمال قومس ومن الجنوب بلاد فارس وسجستان ومن الشرق سجستان وخراسان من الغرب الجبال والري وهي أقل من بادية العرب سكاناً . وبعض هذه المفازة تابع لخراسان والبعض الآخر تابع لعملي فارس وكرمان وهي وعرة ويصعب سلوكها بالخيول لقلة الماء فيها

﴿ سجستان ﴾ هي واقعة في شمالي مكران يحدها من الشرق مفازة بينها وبين السند . ومن الجنوب مكران ومن الشمال أرض الهند ومن الغرب مفازة خراسان . أكبر مدنها زرنج وبست والطاق وغيرها

﴿ خراسان ﴾ هي من أخصب بلاد المشرق وأوسعها يحدها من الشرق الشمالي ما وراء النهر ومن الشرق الجنوبي بلاد السند وسجستان . ومن الشمال خوارزم وبلاد الغز في تركستان . ومن الجنوب مفازة خراسان وفارس . ومن الغرب قومس . وتقسّم خراسان إلى كور أعظمها نيسابور ومرو وهرات وبلخ يليها كور قوهستان وطوس ونسا وبيورد وسرخس واسفزار وبوشنج وبادغيس وكنج رستاق ومرورود وجوزجان وطخارستان وزم وآمل

عاصمة خراسان مدينة نيسابور وهي أعظم مدنها جميعاً وتسمى أيضاً أبرشهر واقعة في أرض سهلة ابنتها من طين سمّتها فرسخ في فرسخ . ومدينة مرو وتعرف بمر الشاهجان وهي قديمة البناء . ومدن خراسان كثيرة وبلادها آهلة وتربها خصبة وقد كان للمسلمين منها ارتفاع عظيم

﴿ماوراء النهر﴾ هي آخر بلاد الاسلام شمالاً شرقياً يحدها من الشمال بلاد تركستان وبلاد الهند ومن الغرب الجنوبي خراسان يفصل بينهما نهر جيحون ومن الشمال الغربي خوارزم ومن الجنوب طخارستان . وهو من أخصب أقاليم الاسلام وأنزهها وأكثرها خيراً . وأشهر نواحيها بخارا وسمرقند وكش ونخشاب وبيكند والساغانيان وفرغانة والسغد والشاش وأشروسنة وخوجند

﴿خوارزم﴾ ويعدها الاصطخري تابعة لماوراء النهر فانها مستطيلة الشكل تمتد على ضفاف نهر جيحون في الشمال . يحدها من الشمال بحر خوارزم ومن الجنوب خراسان وبلاد الصغد وتحقق بهذا الاقليم المفاوز من الشرق والغرب . قصبته مدينة خوارزم

هذه خلاصة جغرافية المملكة الاسلامية حوالي عصر المأمون ونسبة اقاليمها بعضها الى بعض تمهيداً لما سنذكره من جباية المملكة العباسية وهي تشمل كل هذه الاقاليم الا الاندلس ولم يكن كل اقليم منها قائماً بذاته يؤدى خراجه باسمه فان بعض هذه الاقاليم كان داخلياً في عمل البعض الآخر . وقد اختلف ذلك باختلاف العصر فربما ورد في قائمة الجباية ذكر خراج اقليم ويكون المراد خراج اقليمين او اكثر مما دخل تحت سيطرة عامله . اذ كثيراً ما كان الخلفاء يولون العامل عدة اقاليم يسمونها باسم واحد منها لاسباب لا يمكن حصرها

وقبل الشروع في ايراد خراج الاعمال العباسية واستخراج ارتفاع الدولة لابد لنا من بيان علاقة تلك الاقاليم او الاعمال ببغداد عاصمة المملكة بالنظر الى توريد الخراج

علاقة الاعمال العباسية بالعاصمة

قلنا في كلامنا عن ولاية الاعمال في الجزء الاول انها كانت في بادىء الرأي أشبه بالاحتلال العسكري منه بالتملك . وكان العمال في عهد الراشدين هم قواد الجند الذين فتحوا تلك الاقاليم وواجباتهم مراقبة سير الاحكام في البلاد التي افتتحوها

واقامة الصلاة واقتضاء الخراج وظلت أعمال الحكومة في داخل البلاد المفتوحة جارية على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان الذين يباشرون جباية الخراج ويتولون أعمال الحكومة في البلاد موظفين من أهلها الاصليين فاذا اجتمع الخراج والجزية انفقوا من مجموعهما ما تحتاج اليه الجباية من نفقات الجباة وغيرها ودفعوا الباقي الى الحاكم المسلم وهذا يدفع منه رواتب الذين معه من القواد والجنود وما يقتضيه اصلاح الري من اقامة الجسور والسدود ويرسل الباقي الى بيت المال في عاصمة المملكة

ذلك كان شأن الاعمال الاسلامية في زمن الراشدين ولما افضى الامر الى بني أمية واضطر معاوية الى اكنساب الاحزاب زاد في نفوذ العمال وجعل بعض الاعمال طعمة لهم فازدادوا استقلالاً في أعمالهم . ثم دعت الاحوال الى تمكن المسلمين من البلاد المفتوحة واستلام أزمة الاحكام بأيديهم وتحويل الدواوين الى لسانهم في أيام عبد الملك ومن جاء بعده — الاجباة الخراج فانهم ظلوا من أهل البلاد الاصليين القبط في مصر والدهاقين في العراق وفارس . وظل العمال يقبضون صوافي الخراج والجزية وينفقون النفقات اللازمة ويرسلون الباقي الى بيت المال في دمشق وهو ما يعبرون عنه بارتفاع الجباية . واذا لم تكف الجباية للقيام بالنفقات طالبوا الخليفة بالباقي^(١)

ولما تولى بنو العباس ظلت الاعمال على نحو هذا الشكل . ويهمن في هذا المقام تتبع تلك العلاقة من حيث الجباية فقط . والظاهر ان العمال زادوا استقلالاً من هذا القبيل عما كانوا عليه في أيام بني أمية حتى آل الامر أخيراً الى تضمين الخراج أي تقبيله . وهي ان يوظف على العامل مال معين يدفعه في السنة الى بيت المال في بغداد وهو يتولى قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب وينفق ما ينفقه كما يشاء لا يطالبه الخليفة الا بالمال المضروب . ويكون ذلك في اشارة الاستيلاء . كذلك فعل الرشيد مع ابراهيم بن الاغلب عامله على

افريقية وكان هذا الاقليم عالة على الحكومة يحمل اليه من مصر كل سنة ١٠٠,٠٠٠ دينار معونة له فلما تولاه ابن الاغلب تنازل عن هذا المال وبذل ان يحمل كل سنة ٤٠,٠٠٠ دينار^(١) وفعل الرشيد نحو ذلك ببرقة فانه جعلها قانوناً قائماً فوجه بمولى له فزرع خراج الارض بأربعة وعشر بين الف دينار^(٢) وكذلك فعل المأمون مع عبد الله بن طاهر فانه وظف عليه خراج خراسان وما يتبعه سنة ٢١١ هـ و ٢١٢ هـ قدرًا معينًا سيأتي ذكره . وقس عليه ما قبله الفضل بن مروان من فارس والاهواز وما قبله عمران بن موسى من السند^(٣) ثم صار التوظيف المذكور ضماناً وتكاثر حتى آل الى استئلال الامراء بولاياتهم

وجملة القول ان المال الذي كانوا يعبرون عنه بخراج البلد الغلاني انما يراد به ما يرد على بيت المال من خراج ذلك البلد بعد اداء اعطيات الجند المقيم فيه ونفقات الجباية واصلاح الري وسائر الكاف^(٤) او بطريق التوظيف كما تقدم فما يجتمع من جبايات الاعمال يعبرون عنه بارتفاع الدولة أو جباية الدولة أي مجموع صافي الدخل لا ينفق منه الا على موظفي الدواوين ورجال الدولة في بغداد غير ما يأخذه الخليفة وأهله ما سيأتي تفصيله . وقد صرح ابن خلدون في مقدمة كلامه عن مقدار تلك الجباية في أيام المأمون بقوله «ما يحمل الى بيت المال ببغداد في أيام المأمون من جميع النواحي نقلته عن جراب الدولة»^(٥) فبالقياس على ما تقدم تعتبر كل ما يرد من الكلام عن ارتفاع الدولة انه صافي اموال الجباية



(١) ابن الاثير ٦٣ ج ٦ (٢) يعقوبي (كتاب البلدان) ١٣٣

(٣) ابن خرداذبه ٣٤ و ٤٣ و ٤٨ و ٥٧ (٤) المقرئ ٩٧ ج ١

(٥) ابن خلدون ١٥٠ ج ١.

جباية الدولة العباسية

في العصر الاول

فلنقدم بعد هذا التمهيد الى تفصيل جباية الدولة العباسية في أيام المأمون باعتبار مايرد من كل عمل في السنة . والتوفى الى ذلك نادر في تاريخ الاسلام لان القوم قلما كانوا يدنون غير حوادث الحرب والفتح والقتل . اما قوائم ابن خلدون وقدامة وابن خرداذبه فقد عثرنا عليها عرضاً وهي :

(١) قائمة ابن خلدون : هي أقدمها كلها وقد أوردها ابن خلدون في مقدمته

في عرض كلامه عن « ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها » وقال انه نقلها عن جراب الدولة وفيها مقدار الخراج الذي كان يرد على بيت المال في بغداد في أيام المأمون . وقبل تحقيق ذلك الزمن توجه التفات القارىء لما تطرق الى هذه القائمة من الخطأ بتوالي الاعوام . وقد تصفحنا النسخ المطبوعة من مقدمة ابن خلدون في مصر والشام فرأينا خطأ في أسماء بعض البلاد لواردة في تلك القائمة نظمه وقع من النساخ لتشابه في أشكال بعض الالفاظ . فلا بد من التنبيه الى ذلك واصلاحه قبل ايراد القائمة المذكورة . لان الخطأ اللفظي المشار اليه يجبر الى الخطأ المعنوي لوقوعه في أسماء البلاد أو الاقاليم التي حمل الخراج منها وهالك اصلاحها :

١ كمنكر : ^(١) هي لفظة لا معنى لها في هذا المقام وصوابها « كسكر »

وهو أقليم من أقاليم السواد

٢ طبرستان والروبان ونهاوند ^(٢) : فالروبان بالباء صوابها « الرويان » بالياء وهي من أقاليم الديلم وقد ذكرناها في محلها . ونهاوند قصبة كورة مابصرة من كور الجبال كما تقدم . ونظراً لبعدها من طبرستان والرويان فالغالب ان يكون

(١) في السطر الثامن من طبعة بولاق صفحة ١٥٠ (٢) في السطر ٢١ من الصفحة المذكورة

المراد بها بلدًا آخر قريبًا من هناك نطنها « دماوند » وهي من كور طبرستان
 ٣ ما بين الكوفة والبصرة^(١) : لم نر في سائر القوائم ولا في غيرها من التقاويم
 كورة بهذا الاسم . وقد لاحظ ذلك البارون فون كيرير المؤرخ الالماني ولكنه
 حسبها كورة من كور السواد واقعة وراء الفرات بين الكوفة والبصرة دخلت في
 القوائم الاخرى باسم آخر^(٢) . والصحيح على ما نرى ان النساخ اخطأوا في قراءتهم
 « ما بين » وصوابها « ماها » او « ماهين » مثني « ماه » فيكون المراد « ماها
 البصرة والكوفة » وهما كورتان من كور الجبال قصبة الاولى نهاوند وقصبة
 الثانية الدينور كما تقدم . ويؤيد ذلك سقوط هاتين الكورتين من قائمة ابن
 خلدون بالكلية

٤ ماسبذان والدينار^(٣) : ماسبذان من كور الجبال تقدم ذكرها وأما
 « الدينار » فلا مسمى لها في بلاد الاسلام . وقد يتبادر الى الذهن انها تحريف
 « الدينور » قصبة ماه الكوفة لم تكن قد وقفنا على اسم الماهين معاً في هذه القائمة
 فهي على الغالب مبدلة من « الريان » وهي كورة بقرب كسكر في العراق

وهناك غلط نسخي في تعيين مقدار الخراج في بعض الاقاليم صوابه ظاهر
 مثل قوله عن خراج كور دجلة انه عشرون الف الف درهم وثمانية دراهم والعادة
 ان لا يدونوا في الديوان آحاد الدراهم^(٤) فالغالب ان يكون صوابها وثمانئة الف
 درهم . وكذلك قوله عن جباية الاهواز انها خمسة وعشرون الف درهم والصواب
 ٢٥ الف الف درهم لانها نحو ذلك في القائمتين الأخرين . وكقوله في طبعة
 بولاق عن خراج قومس « الف الف مرتين وخمسمئة الف من نقر الفضة » ونظن
 الصواب « ومن نقر الفضة الف فيكون خراجها ١٥٠٠,٠٠٠ درهم و١٠٠٠ من
 نقر الفضة » . وقوله عن العسل الوارد من الموصل انه ٢٠,٠٠٠ و ٢٠,٠٠٠ رطل والاقرب
 الى الصواب ان يكون ٢٠,٠٠٠ رطل فقط . ومن هذا القبيل خراج مصر فقد ورد

(١) في السطر ٢٦ من تلك الصفحة (٢) I. 356 cult. gesch. des orientis

(٣) في السطر ٢٧ من تلك الصفحة (٤) الطبري ١٤٦٨ ج ٣

هناك انه « الف الف الخ » والصواب على ما نرى « الفا الف الخ » بالقياس على جبايتها في ذلك العصر . والخطأ انما وقع بالنسخ لتشابه اللفظين خطأً
أما زمن هذه القائمة فقد عينه ابن خلدون صريحاً فقال انه في أيام المأمون ولكنه لم يعين السنة . والمأمون حكم ٢٢ سنة من سنة ١٩٦ هـ - ٢١٨ هـ وحساب بيت المال في بغداد احترق في الفتنة بين الامين والمأمون . ثم لم يدون الحساب الا بعد سنة ٢٠٤ هـ ^(١) فالقائمة المذكورة كتبت في ما بين ٢٠٤ و ٢١٨ هـ ونظراً لاختلاف خراج خراسان فيها عما وظفه المأمون على ابن طاهر سنة ٢١١ و ٢١٢ هـ فالارجح انها كتبت بين ٢٠٤ و ٢١٠ هـ

ورأينا للبارون فون كيرير المذكور انتقاداً على تاريخ قائمة ابن خلدون خلاصته انها كتبت قبل عصر المأمون بعشرات من السنين بحيث تصل بعصر المهدي أو الهادي أي بين سنة ١٥٨ و ١٧٠ هـ ومن أدلته على ذلك « انه ورد فيها ذكر خراج السند و افرقية و كانتا في أيام المأمون قد استقلتا عن سلطة بغداد ولم يذكرا قدامه ولا ابن خردادبه » . والبارون فون كيرير لا يستخف برأيه في تاريخ الاسلام و قدنهم وآدابهم لانه من أهل التحقيق والبحث ومن أكثر الامان تمحيصاً للحقائق . ولكننا نراه واهماً في حكمه على هذه القائمة للاسباب الآتية :

أولاً : ان استقلال الاقاليم عن سلطة بغداد لم يكن يستلزم استقلالها عن الخلافة العباسية وقطع المال عنها . نعم ان افرقية استقل بها الاغلبة وتوارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤ - ٢٩٦ هـ ولكن استقلالهم هذا لا يمنع تأديتهم مالاً معيناً كما كان يفعل معظم الامراء المستقلين في مصر وخراسان وغيرها . فانهم كانوا يخاطبون خليفة بغداد ويعتبرون انهم تابعون له دينياً فقط - كذلك كان شأن الدولة الطاهرية في خراسان والطولونية في مصر ^(٢) وكان بعضهم يقدم المال باسم المهدي والبعض الآخر باسم الخراج أو الضمان أو غيرها . وزد على ذلك أن افرقية لم تكن تحمل مالاً الى بيت المال الا بعد سنة ١٨١ هـ أي بعد أن تولاه ابراهيم

ابن الاغلب وهو الذي فرض على نفسه ٤٠.٠٠٠ دينار . فلا بعد ان يستمر الاغلبة على دفع مثل هذا المال الى أيام المأمون . لان الخلفاء العباسيين ظلوا يعدون افرريقية من مملكتهم كل أيام الاغلبة وكانوا يعينون الولاة عليها من بغداد باعتبار أن الاغلبة تحت هؤلاء الولاة ^(١) ويقال نحو ذلك في السند بل نرى في هذه شاهداً أقرب على صحة رواية ابن خلدون فإن المأمون نفسه استعمل على السند سنة ٢١٦ هـ عاملاً اسمه عمران بن موسى المتكي ^(٢) على أن يحمل اليه منها مليون درهم بعد كل نفقة ^(٣) ويدل ذلك على سيادته عليها وان كان المال المذكور أقل كثيراً مما ذكره ابن خلدون اذ يختلف المراد بحدود السند باختلاف الأزمنة . أما عدم ورود هذين البلدين في قائمتي قدامة وابن خرداذبه فقد يكون سببه عارضاً اما لا تقطاع الخراج منها بعد قائمة ابن خلدون أو لاسباب أخرى راجعة الى دخول بعض الاقاليم في بعض أو غير ذلك كما سيوضح من مقابلة القائمتين التاليتين . وعلى كل حال فان افتراض هذه الاسباب أقرب الى الصواب من اتهام ابن خلدون بالخطأ أو لومهم وهو ثمة كثير التبصر والتحصيل . وقد قال صريحاً ان هذه الجباية وردت على بيت المال في أيام المأمون

ثانياً : ان ابن خلدون استحوذ على أوراق رسمية من أيام المأمون عن الدخل والخرج كان يرجع اليها في تحقيق ما يكتبه في هذا الشأن ونحوه ^(٤)

ثالثاً : ان الديوان احترق في أيام الامين وقد قدمنا انه لم يدون فيه حساب الا بعد سنة ٣٠٤ هـ وأما ما كان منها قبل ذلك فقد ضاع

فبنا على ذلك يترجح عندنا ان يكون الحق في جانب ابن خلدون وأن يكون البارون فون كيرير واهماً في اعتراضه وفوق كل ذي علم عليم

(٢) قائمة قدامة : دونها قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي في كتابه

المسمى « كتاب الخراج » ولم يصل اليها منه الا تف طبعت في لايدن بعناية

(١) ابن الاثير ٤٥ ج ٧ (٢) ابن الاثير ١٧١ ج ٦

(٣) ابن خرداذبه ٥٧ (٤) ابن خلدون ٣٢٩ ج ١

دي كويه المستشرق الهولندي الشهير . توفي قدامة المذكور سنة ٣٣٧ هـ وكان أبوه نصرانياً وأسلم في أيام المكتفي (من ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وتولى منصباً كبيراً من مناصب الدولة العباسية والف كتباً كثيرة من جملتها كتاب الخراج هذا . ويظهر انه كتبه نحو ٣١٦ هـ نقلاً عن أوراق رسمية اتصلت به . ويستدل من مطالعة الكتاب ان ماورد فيه من جباية البلاد يراد به جبايتها نحو سنة ٢٢٥ هـ

(٣) قائمة ابن خرداذبه : هو عبد الله بن خرداذبه وذكر صاحب الفهرست انه كان يتولى البريد في بلاد الجبال . ويظهر انه كتب وهو في هذا المنصب كتابه « المسالك والممالك » وفيه هذه القائمة . ويظن دي كويه ناشر هذا الكتاب ان ابن خرداذبه كتبه سنة ٢٣٢ ثم أضاف اليه بعض الزيادات فيما بعد بحيث لا يتجاوز حوالي سنة ٢٥٠ هـ

هذه هي القوائم الثلاث وفيها جباية الدولة العباسية في أبان ثروتها فلنوردها باعتبار قدمها . وأقدمها قائمة ابن خلدون ثم قدامة ثم ابن خرداذبه :

١ جباية الدولة العباسية

(في أيام المأمون — نقلاً عن ابن خلدون)

من الاموال والغلال	من الدراهم	اسماء الاقاليم
ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ومن طين الحتم ٢٤٠ رطلاً	٢٧,٨٠٠,٠٠٠	السواد
	١١,٦٠٠,٠٠٠	كسكر
	٢٠,٨٠٠,٠٠٠	كور دجلة
	٤,٨٠٠,٠٠٠	حلوان
وسكر ٣٠,٠٠٠ رطل	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	الاهواز
ومن ماء الورد ٣٠,٠٠٠ قارورة ومن الزيت الاسود ٢٠,٠٠٠ رطل	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	فارس
درهم	١١٧,٠٠٠,٠٠٠	(المجموع)

درهم	١١٧,٠٠٠,٠٠٠	(مجموع ما قبله)
ومتاع يمني ٥٠٠ ثوب وتمر ٢٠,٠٠٠ رطل	٤,٢٠٠,٠٠٠	كرمان
	٤٠٠,٠٠٠	مكران
وعود هندي ١٥٠ رطلاً	١١,٥٠٠,٠٠٠	السند وما يليه
{ ومن الثياب المعينة ٣٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلاً }	٤,٠٠٠,٠٠٠	سجستان
{ ومن نقر الفضة ٢,٠٠٠ نقرة و ٤,٠٠٠ برذون و ١,٠٠٠ راس رقيق و ٢٠,٠٠٠ ثوب متاع و ٣٠,٠٠٠ رطل اهليلج و ١,٠٠٠ شقة ابريسم }	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	خراسان
{ ومن نقر الفضة ١,٠٠٠ نقرة و ٦٠٠ قطعة من الفرش الطبري و ٢٠٠ أكسية و ٥٠٠ ثوب و ٣٠٠ منديل و ٣٠٠ جام }	١٢,٠٠٠,٠٠٠	جرجان
و ٢٠,٠٠٠ رطل غسل	١,٥٠٠,٠٠٠	قوس
{ و ١,٠٠٠ رطل رب الرمانين و ١٢,٠٠٠ رطل غسل }	٠٦,٣٠٠,٠٠٠	{ طبرستان والريان وماوند }
	١٢,٠٠٠,٠٠٠	الري
	١١,٣٠٠,٠٠٠	همدان
	١٠,٧٠٠,٠٠٠	ماها البصرة والكوفة
	٤,٠٠٠,٠٠٠	ماسبدان والريان
	٦,٧٠٠,٠٠٠	شهرزور
و ٢٠,٠٠٠ رطل غسل	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	الموصل وما يليها
	٤,٠٠٠,٠٠٠	اذريجان
{ و ١,٠٠٠ راس رقيق و ١٢,٠٠٠ زق عسل وعشر بزاة و ٢٠ كساء }	٣٤,٠٠٠,٠٠٠	الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات
درهم	٢٩١,٦٠٠,٠٠٠	(المجموع)

درهم	٢٩١,٦٠٠,٠٠٠	(مجموع ما قبله)
و ٢٠ من القسط المحفور و ٥٣٠ رطلاً		
من الرقم و ١٠,٠٠٠ رطل من المسايح	١٣,٠٠٠,٠٠٠	ارمنية
السورماهي و ١٠,٠٠٠ رطل من الصويع		
و ٢٠٠ بغل و ٣٠ مهرأ	١,٠٠٠,٠٠٠	برقة
و ١٢٠ بساطاً	١٣,٠٠٠,٠٠٠	افريقية
درهم	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	(المجموع)
من الدنانير		
و ١,٠٠٠ هل زيت	٤٠٠,٠٠٠	قسرين
	٤٢٠,٠٠٠	دمشق
	٩٧,٠٠٠	الأردن
و ٣٠٠,٠٠٠ رطل زيت	٣١٠,٠٠٠	فلسطين
	٢,٩٢٠,٠٠٠	مصر
سوى المتاع (لم يذكر)	٣٧٠,٠٠٠	البحرين
	٣٠٠,٠٠٠	الحجاز
دينار و تساوي ٧٢,٢٥٥,٠٠٠ درهم	٤,٨١٧,٠٠٠	(المجموع)
باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره في ذلك العصر	٧٢,٢٥٥,٠٠٠	فيكون المجموع
		بالدراهم
	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	يضاف اليه جباية
		الاقليم المذكورة
		اعلاه
درهم	٣٩٠,٨٥٥,٠٠٠	(الجملة)

وترى من النظر في هذه القائمة ان خراج اقاليم المشرق كانوا يقدرونه بالدراهم وخراج اقاليم المغرب بالدنانير (الأبرقة وأفريقية) وسترى نحو ذلك

أيضاً في القائمتين الآخرتين والسبب على ما يظهر ان مناجم الفضة كانت أكثر في اقاليم المشرق منها في المغرب وبعكس ذلك مناجم الذهب

فمجموع جباية اقاليم المشرق (مع برقة وافريقية) ٣١٨,٦٠٠,٠٠٠ درهم ومجموع خراج سائر اقاليم المغرب ٤,٨١٧,٠٠٠ دينار حولناها الى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو صرفه في ذلك العصر فبلغت ٧٢,٢٥٥,٠٠٠ درهم وباضافتها الى جباية اقاليم المشرق بلغ المجموع كله ٣٩,٨٥٥,٠٠٠ درهم

ورأينا في ما نقله فون كرايمر من قائمة ابن خلدون بلدين هما الكرج والحيلان غير موجودين في ما لدينا من النسخ — نظنه وجدهما في نسخة فون همر . خراج الاولى ٣٠٠,٠٠٠ درهم والثانية ٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم وليس هنا مكان التحقيق عن صحة هذه الرواية او عدم صحتها

فيكون مجموع جباية المملكة العباسية في أيام المأمون نحو ٤٠٠ مليون درهم ماعدا الاموال والغلات مما لانعلم حقيقة قيمته واذا أعدت النظر فيه رأيت شيئاً كثيراً . والعادة في تقدير الجباية ان تقدر هذه الغلات بما تساويه من النقد ويضاف مبلغها الى مبالغ النقد كما فعل صاحب جراب الدولة في غلات السواد ومعظمها في الاصل من الحنطة وكما سترى في تفصيل خراج طساسيج السواد بقائمتي قدامة وابن خرداذبه

وقد تقدم ان الجباية التي كانت ترد الى بيت المال في بغداد انما هي صوافي ما تحصل منها في الاقاليم بعد دفع أموال الجند ونفقات الجباية واصلاح الري ونحو ذلك من نفقات الاقاليم ولم يبق على هذا المال الانفقات الدواوين في بغداد للعليفة ووزرائه وكتابه ورجال بطانته . وقد يرتاب القارئ في رواية ابن خلدون لبعدها عما هو مأوف عندنا من ميزانيات دول هذه الايام وما فيهن من ببق في صندوقها معشار هذا المال — ولذلك فنأتى بالروايتين الاخرتين للمقابلة بينهما وبين رواية ابن خلدون

٢ جباية الدولة العباسية

في أيام المعتصم - نقلاً عن قدامة بن جعفر

كانت جباية السواد معظمها من الخنطة والشعير وقد ذكر قدامة مقدار كل منها مفصلاً باعتبار طساسيج السواد اي نواحيه في الشرق والغرب طساسيج السواد في الجانب الغربي :

اسم الناحية	مقدار الخنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
الانبار ونهر عيسى	١١,٨٠٠	٦,٤٠٠	٤٠٠,٠٠٠
طسوج مسكن	٣,٠٠٠	١,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠
» قطربل	٢,٠٠٠	١,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
» بادوريا	٣,٥٠٠	١,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠
نهر سب	١,٧٠٠	١,٧٠٠	١٥٠,٠٠٠
الرومقان	٣,٣٠٠	٣,٣٠٠	٢٥٠,٠٠٠
كوئي	٣,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
نهر درقيط	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠
نهر حوير	١,٥٠٠	٦,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣,٥٠٠	٤,٠٠٠	١٢٢,٠٠٠
الزوابي الثلاثة	١,٤٠٠	٧,٢٠٠	٢٥٠,٠٠٠
بابل وخطرتية	٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠,٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢,٠٠٠	٣,٠٠٠	٢٨٠,٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥,٠٠٠
» عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥,٠٠٠
(المجموع)	٤٢,٨٠٠	٤٤,٩٠٠	٤,١١٢,٠٠٠

٤,١١٢,٠٠٠	٤٤,٩٠٠	٤٢,٨٠٠	(مجموع ما قبله)
١٥٠,٠٠٠	١,٦٠٠	١,٥٠٠	طسوج الحية والبسدة
٢٥٠,٠٠٠	٤,٥٠٠	١,٥٠٠	سورا وبرنسيا
١٥٠,٠٠٠	٥,٥٠٠	٥٠٠	البرس الاعلى والاسفل
٦٢,٠٠٠	٢,٥٠٠	٢,٠٠٠	فرات بادقلى
١٤٠,٠٠٠	١,٥٠٠	١,٠٠٠	طسوج السليحين
٢٠,٠٠٠	٥٠٠	٥٠٠	روذستان وهرمزجرد
٣٠٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢,٢٠٠	تستر
٢٠٤,٨٠٠	٢,٠٠٠	١,٢٠٠	ايفار يقطين
٢٧٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	كسكر

طساسيج السواد

في الجانب الشرقي :

٣٠٠,٠٠٠	٢,٢٠٠	٢,٥٠٠	طسوج بزر جسابور
١٢٠,٠٠٠	٤,٨٠٠	٤,٨٠٠	» الرادانين
١٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٢٠٠	» نهر بوق
٣٣٠,٠٠٠	١,٥٠٠	١,٦٠٠	كلواذى ونهر بين
٢٤٠,٠٠٠	١,٥٠٠	١,٠٠٠	جازر والمدينة العتيقة
٢٤٦,٠٠٠	١,٤٠٠	١,٠٠٠	روستقباد
١٥٠,٠٠٠	١,٥٠٠	٢,٠٠٠	سلسل ومهرود
١٠٠,٠٠٠	١,٠٠٠	١,٠٠٠	جلولا وجللتا
٤٠,٠٠٠	١,٣٠٠	١,٩٠٠	الذيين
٦٠,٠٠٠	١,٤٠٠	١,٨٠٠	السكره
٣٥,٠٠٠	٥٠٠	٦٠٠	البندنجين
١٢٠,٠٠٠	٥,١٠٠	٣,٠٠٠	طسوج براز الروذ
٧,٤٩٩,٨٠٠	١٠٨,٢٠٠	١٠٤,٦٠٠	

٧,٤٩٩,٨٠٠	١٠٨,٢٠٠	١٠٤,٦٠٠	(مجموع ما قبله)
٣٥٠,٠٠٠	١,٨٠٠	١,٧٠٠	النهر وان الاعلى
١٠٠,٠٠٠	٥٠٠	١,٠٠٠	النهر وان الاوسط
٣٣٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	٤,٧٠٠	بادرايا وباكسايا
٤٣٠,٠٠٠	٤,٠٠٠	٩٠٠	كور دجلة
٥٩,٠٠٠	٣,١٢١	١,٠٠٠	نهر الصلة
٥٣,٠٠٠	١,٣٠٠	١,٧٠٠	النهر وان الاسفل
٨,٨٢١,٨٠٠	١٢٣,٩٢١	١١٥,٦٠٠	مجموع خراج السواد

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥,٦٠٠ كر حنطة و ١٢٣,٩٢١ كر شعير و ٨,٨٢١,٨٠٠ درهم . على ان هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد ان اورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم فقد قال في ايراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧,٢٠٠ كر ومن الشعير ٩٩,٧٢١ كر و من الورق ٨,٠٩٥,٨٠٠ درهم »^(١) ولعل السبب في هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الاعداد . على ان الفرق على كثرته لا يعتمد به في ما نحن فيه . بقي علينا ان نحول الحنطة والشعير الى دراهم وقد فعل جعفر ذلك فحولهما باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين دينار والدينار على صرف خمسة عشر درهماً بدينار فبلغ ذلك ١٠٠,٣٦١,٨٥٠ درهماً وقال ان صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم فاذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤,٤٥٧,٦٥٠ درهماً على هذه الصورة

الدراهم المجموعة ورقاً	٨,٠٩٥,٨٠٠
قيمة الحنطة والشعير بالدرهم	١٠٠,٣٦١,٨٥٠
صدقات البصرة	٠٦,٠٠٠,٠٠٠
درهماً	١١٤,٤٥٧,٦٥٠

و بتحويل هذه الدنانير الى دراهم تبلغ ٠٠ , ٧١,٥٥ درهم تضاف الى مجموع جباية اقاليم المغرب اعلاه على هذه الصورة
درهم

جباية اقاليم المشرق ٢٢٧,٧١٥,٣٤٠

» » المغرب ٠٧١,٥٥ , ٠٠٠

الجملة ٢٩٩,٢٦٥,٣٤٠

مجل جباية الدولة العباسية

و خلاصة ما تقدم ان ارتفاع الدولة العباسية كان على معظمه في أيام المأمون ثم أخذ في التناقص بعده ولم يظهر ذلك النقص الا بعد أواسط القرن الثالث للهجرة لاسباب سيأتي بيانها . واما قبل ذلك فإن ارتفاع هذه الدولة كان عظيماً جداً كما تبين من القوائم الثلاث التي ذكرناها وهالك فذكرتها :
درهم

جباية الدولة العباسية في أيام المأمون بين سنة ٢٠٤ و ٢١٠ هـ ٣٩٦,١٥٥,٠٠٠

» » » » » المعنصر او بعده الى سنة ٢٢٥ ٣٨٨,٢٩١,٣٥٠

» » » » » في أواسط القرن الثالث (١) ٢٩٩,٢٦٥,٣٤٠

فترى من مقابلة هذه الارقام ان الفرق في الجباية ظهر حتى في النصف الاول من القرن الثالث وخصوصاً اذا اعتبرت ما أغفلناه من قائمة ابن خلدون من الاموال والامتنعة والمحصولات وهي من جملة الخراج . فعدل الوارد الى بيت المال في العام نحو ٣٦٠ مليون درهم وهي صوافي جباية الاعمال كما قدمنا مما لم نسمع

(١) لا يخفى على المتأمل أننا عينا هذه الازمنة بالتقريب اذ قد يرد في قائمة ابن

خرداذبه مثلاً خراج اقليم كما وُظف عليه في عهد قائمة ابن خلدون أو قدامة وبالعكس وانما اعتبرنا في تعيينها الاغلبية

بثله في الدول قديماً ولا حديثاً — الا اذا اعتبرنا ما أورده بعضهم اجمالاً بطريق العرض عن دولتي الروم والفرس . فقد قال جين مؤرخ الدولة الرومانية ان جباية هذه الدولة في أبان سطوتها ومعظم سعتها تساوي نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم منها ١٣٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم من اسيا (الصغرى) ^(١) وذكر ابن خرداذبه ان جباية مملكة الفرس في أيام كسرى برويز بلغت ٤٣٠,٠٠٠,٠٠٠ مثقال او نحو ٧٢٠ مليون درهم . فاذا سلمنا بصحة هذه الارقام اعوزنا الاطلاع على طريقة الاتفاق عندهم اذ ربما كانت تسغرق معظم هذه الجباية بخلاف الدولة العباسية كما سترى . اما ما خلا هاتين الدولتين فالفرق بين جبايتها وجباية هذه الدولة عظيم جداً . فالدولة العثمانية بلغت معظم سعتها في أيام السلطان سليمان القانوني في أواسط القرن العاشر للهجرة ولم يزد ارتفاع جبايتها في أيامه على ٨,٠٠٠,٠٠٠ دوكت ^(٢) او نحو ٦٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك . فاين ذلك من جباية الدولة العباسية فانها تزيد على اضعافه . وقس على ذلك دول هذه الايام باعتبار ما يبقى في صندوقها كإسياتي ولنتقدم الى الكلام في الجهات التي كانت تنفق فيها هذه الاموال

نفقات الدولة العباسية

لم نر في ما كتبه المؤرخون القدماء في العربية نصاً يتعلق بهذا الشأن ولا ندرى اذا كانوا فعلوا ذلك عمداً او ضاع ما كتبوه في ثنيات الزمان . على ان مؤرخي المسلمين قلما دونوا حوادث التمدن الاسلامي او ما هو في معناه كمقدار الدخل أو الخرج وثروة المملكة وحال العلم او نظام الهيئة الاجتماعية غير ما جاء عرضاً في أثناء ذكر الوقائع الحربية او وصف مجالس الطرب — الا ابن خلدون فقد أورد جباية الدولة في عرض الكلام عن بدخها في ابانها . واما قدامة وابن

Gibbon's Roman Empire I. 119

(١)

Porter's Const. Hist. of Turkey, Ms.

(٢)

خرداذبه فقد ذكر مقدار الخراج في عرض الكلام عن طرق البريد . وقد ذكر الخراج أيضاً بعض أصحاب التقاويم (الجغرافية) ولكنهم لم يذكر أحد منهم شيئاً عن الشؤون التي تنفق فيها الاموال المجموعة من الخراج في العصر الذي نحن في صدده

على اننا بالقياس على ما عرفناه من احوال ذلك التمدن نرجح ان المال المشار اليه كان يوضع في بيت المال بعد دفع رواتب الجند والكتاب والقضاة وسائر ارباب المناصب في دواوين الحكومة في بغداد والموظفين الذين قد تعيينهم الحكومة من بغداد وتدفع رواتبهم من بيت مالها ولو كان عملهم في الخارج مثل عمال البريد^(١) وغيرهم . وما بقي من اموال الجباية بعد هذه النفقات يوضع في بيت المال تحت اجتهاد الخليفة^(٢)

اما مقدار ما كان ينفق على الجند بالدواوين وغيرهم فما لا يمكن القطع فيه لانه يختلف باختلاف العصور واحوال الخلفاء ولم تقف على شيء صريح في هذا الشأن في العصر العباسي الاول ولا في غيره

على اننا توقفنا بهمة البارون فون كيرير الى قائمة تشمل ما اشترطه احمد بن محمد الطائي على نفسه ان يقدمه من ضمانه الى بيت المال - وفيه ما كان ينفقه بيت المال في بغداد في السنين الاولى من خلافة المعتضد العباسي (سنة ٢٧٩ هـ)^(٣) وقد عين فيه مقدار المال اللازم لكل فئة من فئات الموظفين الذين تدفع رواتبهم من بيت المال وجملة ذلك ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار في السنة تدفع مياومة باعتبار كل يوم سبعة آلاف دينار تفرق في الجند وموظفي الدواوين والخدم وغيرهم على هذه الصورة :



نفقات الدولة العباسية

في أيام المعتضد بالله سنة ٢٧٩ هـ بالمياومة

دينار في اليوم

ارزاق اصحاب النوبة ومن برسمهم من البوابين وفيهم البيضان من الجنابيين والبصريين واصحاب المصاف بباب العامة وغيرهم والسودان واكثر ممالك الناصر	١,٠٠٠
ارزاق العلماة الذين اعتقهم الناصر ويعرفون بالعلماة الخاصة	١,٠٠٠
ارزاق الفرسان من الاحرار المميزين	١,٥٠٠
ارزاق المختارين وهم جند منتخب من كل قيادة وقد عرفوا بالشهامة والشجاعة	٦٠٠
ارزاق الفرسان المثبتين في ايام الناصر	٥٠٠
« سبعة عشر صنفاً من المرسومين بخدمة الدار والرسائل الخاصة والقراء واصحاب الاخبار والمؤذنين والمنجمين والفتجامين واصحاب الاعلام والبوقيين والمضحكين والطباة وغيرهم	١١٠
المرتقة برسم الشرطة في مدينة السلام وغيرها	٥٠
اثمان ازال الممالك وغيرهم	٣٠٠
نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابر وازال الحرم والحشم ومخابر السودان	٣٣٣ $\frac{1}{4}$
ثمن وظائف الشراب الخاصة والعامة والآلة ونفقات خزائن الكسوة والحاج والطيب وحواشي الوضوء وخزائن السلاح والفرش الخ	١٠٠
ارزاق السقاين بالقرب في القصر والخزائن والمخابر والادور والحجر والخدم الخ	٤

٥,٤٩٧ $\frac{1}{4}$

مجموع ما قبله	٥,٤٩٧ $\frac{1}{3}$
ارزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من العلمان والممالك دون الاكابر الاحرار ومن اضيف اليهم من الحشم القدماء	١٦٧
ارزاق الحشم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة والصناع من الصاغة والحياطين والعقادين والاساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والتجادين والوراقين والعطارين والمشهرين والتجارين والخراطين والاسفاطين وغيرهم الخ	١٠٠
ارزاق الحرم	١٠٠
ثمن علوفة الكراع في الاسطبلات الخمسة	٤٠٠
ما يصرف في ثمن الكراع والابل والخيول الخ	٦٦ $\frac{1}{2}$
ارزاق المطبخيين	٣٠
» الفراشيين والمخبليين وخزان الفرش والطحالين	٣٠
» اصحاب الركاب والجنائب والسروج ومن يخدم في دواب البريد	٥
» الجلساء واكابر المناهلين ومن يجري مجراهم	٤٤
» جماعة من المتطيين وتلامذتهم الخ	٢٣ $\frac{1}{2}$
» اصحاب الصيد من البازيريين والفهاديين والكلابريين وغيرهم	٧٠
» الملاحين في الطيارات والشذات والخرافات وغيرها من السفن ثمن انتفط والمشاة لانتفاطات والمشاعل واجرة الرجال لخدمتها	١٦ $\frac{1}{2}$
الصدقة التي تحضر كل يوم عند صلاة الصبح في خرقه سوداء جاري اولاد المتوكل	١٥
» » الوائق	٣٣ $\frac{1}{2}$
» » الناصر	١٦ $\frac{1}{2}$
ارزاق مشائخ بني هاشم واصحاب المراتب والخطباء في المساجد	٢٠
ارزاق جمهور بني هاشم من العباسيين والمواليين	٣٣ $\frac{1}{2}$
(المجموع)	٦,٦٨٩

٦,٦٨٩ (مجموع ما قبله)	
جاري عبيد الله بن سليمان (الوزير) مع خمس مئة دينار للقاسم ابنه (في الشهر) برسم العرض	٣٣ $\frac{1}{2}$
ارزاق اكابر الكتاب واحباب الدواوين والخزان والبوايين والمديرين والاعوان وسائر من في الدواوين وثمان الصنف والقراطيس والكاغد - سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلفائهم على مجالس التفرقة واحبابهم واعوانهم وخزان بيت المال فانهم يأخذون ارزاقهم بما يوفرونه من اموال الساقطين وغرم المخلين بدوايهم	١٥٦ $\frac{5}{2}$
جاري اسحق بن ابراهيم القاضي وخليفته يوسف بن يعقوب والد أبي عمر واولادها وعشرة نفر من الفقهاء	١٦ $\frac{5}{2}$
جاري المؤذنين في المسجدين والمكبرين والقوام والائمة وثمان الزيت للمصابيح والحصر والبواري والماء وثمان الستار للصيف والجلباب والخزف والعمارة في شهر رمضان	٣ $\frac{1}{2}$
نفقات السجون وثمان اقوات الحبسين	٥٠
نفقات الجسرين وثمان ما يبدل من سفنهما وارزاق الجسارين	١٠
نفقات البيارستان الصاعدي ولم يكن يومئذ غيره وارزاق المتطيين والمأانين والكحاليين ومن يخدم المغلويين على عقولهم والبوايين والجنازين وغيرهم وثمان الطعام والادوية والاشربة	١٥

٦,٩٧٥ (الجملة)

فالمجموع نحو سبعة آلاف دينار وذلك نفقات الدولة العباسية في
اليوم الواحد من أيام المعتضد (سنة ٢٧٩ هـ) ومجموع ذلك في السنة نحو
مليونين ونصف (٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار) . فاذا فرضنا نفقاتها في أيام المأمون
والمعتصم نحو ذلك - وهي في اعتقادنا يجب ان تكون اقل من ذلك بالنظر
الى تكاثر الغلمان والماليك في اواخر القرن الثالث عما كانوا في اوائله - فاذا
فرضنا النفقات واحدة في أيام المأمون والمعتضد وحولناها الى دراهم باعتبار

الدينار عشرين درهماً على الأكثر بلغ ذلك ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم فإذا استقطناهما من معدل الجباية الذي ذكرناه وهو ٣٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم كان الباقي ٣١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم أو قل ٣٠٠ مليون فقط . فالدولة التي يبقى في بيت مالها هذا المبلغ العظيم كل سنة تعد في معظم الثروة لانالم نسمع بدولة من الدول يبقى في صندوقها نصف هذا المال أو رבעه أو عشره الا ما قدمناه عن دولتي الروم والفرس

وزد على ذلك ان هذه النفقات جزء صغير من مال الجباية لانها عبارة من خراج ما ضمنه الطائي من البلاد وهي سقي الفرات ودجلة وجوخي وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق والذبيبن وكواذى ونهر بين والردانين وطريق خراسان وكلها من العراق وهي بعضه كما يتضح ذلك من مراجعة قائمة قدامة صفحة ٥٧ — فلا مشاحة في ان نفقات الدولة العباسية كانت تستخرج من خراج بعض اعمالها

تقدير هذه الثروة بنقود هذه الايام

ولكي ينجلي لنامة دار هذه الثروة بالنظر الى التمدن الحديث يجب ان نخولها الى نقود هذه الايام . وقد تقدم ان الدينار كان صرفه في النصف الاول من القرن الثالث ١٥ درهماً فمقدار هذه الثروة بالدينار ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ويقدر ان الدينار بنقود هذه الايام بنصف جنيه فيكون مجموع الباقي في بيت المال في السنة يساوي عشرة ملايين جنيه

ثم ان قيمة النقود تختلف باختلاف ما تستبدل به من المحصولات أو ما يستخدم به من الرجال فصاحب الف جنيه في بلاد يباع فيها أردب الحنطة بخمسين قرشاً يعد بمنزلة صاحب الفين في بلاد يباع فيها الارب بمئة قرش

ويختلف ذلك في البلد الواحد باختلاف العصور فصاحب بضعة آلاف قرش كان يعد عندنا في أوائل القرن الماضي من الأغنياء لان حاجيات الحياة كانت رخيصة جداً ثم أخذت أثمانها تتصاعد بتكاثر الناس وتفننهم في طرق المعاش ولا سبب

أخرى حتى أصبح هذا المبلغ مما ينفقه أوساط الناس في شهر واحد . وقد لاحظنا فرقاً واضحاً في سعر الذهب في الأعوام الأخيرة بمصر يجدر بالحكومة ان تنتبه له وتراعيه لعلاقته برواتب مستخدميها — وذلك انه بالنظر الى تصاعد اثمان المآكل وأجور المساكن زادت نفقات البيوت نحو الربع عما كانت عليه منذ خمسة أعوام او ستة فالموظف الذي كان ينفق على عائلته ألف قرش في الشهر مثلاً أصبح لا يكفيه أقل من ١,٢٥٠ او ١,٣٠٠ قرش والراتب الذي كان يتقاضاه لا يزال واحداً ويعبر عن ذلك بنزول قيمة الذهب — فأصحاب الرواتب المعينة ينبغي ان تزداد رواتبهم كلما غلا السعر

فلوقوف على حقيقة ثروة المملكة العباسية بالنظر الى قيمة نقود هذه الايام يجب ان تقابل بين اثمان المحصولات يومئذ وأثمانها اليوم وأجور العمال في العصرين . وقد رأيت في ما تقدم ان ثمن النكر من الحنطة والشعير في أيام قدامة^(١) ثلاثون ديناراً والكر العراقي أربعون أردباً^(٢) والاردب من الحنطة والشعير اليوم يقدر بنحو جنيه فالاربعون أردباً بأربعين جنيهاً أو ثمانين ديناراً أي نحو ثلاثة أمثاله في تلك الايام

وكانت أجرة الاستاذ البناء في أيام المنصور قيراط فضة والروزكاري (الفاعل) حبتين^(٣) والقيراط في العراق $\frac{1}{16}$ من الدينار^(٤) والحبة $\frac{1}{6}$ منه فكأن أجرة الاستاذ بنقود هذه الايام $\frac{1}{2}$ الدرهم أي نحو ثلاثة قروش وأجرة الفاعل قرش وذلك نحو ثلث أجرته اليوم او ربعها . فالنقود في أيام العباسيين كانت تساوي ثلاثة أضعاف ما تساويه اليوم على الأقل . فالباقى في بيت مال العباسيين في السنة يساوي ثلاثين مليون دينار بنقود هذه الايام وكانت توضع في بيت المال تحت تصرف الخليفة واجتهاده يستخدمها في الجهات التي يريدونها او يتراعى له فيها مصلحة للدولة — فهل نستغرب بعد ذلك اذا قيل لنا ان الخليفة الفلاني اعطى شاعراً مئة

(١) قدامة ٢٣٩ (٢) محيط المحيط (٣) ابن الاثير ٢٧٢ ج ٥

(٤) محيط المحيط

الف درهم او عشرة آلاف دينار . ونحن نرى أغنياءنا اليوم يتناعون الصورة القديمة بمئة الف جنيه والقطعة من الآثار القديمة (الانتيكة) بنصف مليون جنيه او مليون - وانما ذلك من نتائج الغنى الفاحش

وما في دول هذه الايام ما يزيد الباقي في صندوقها على مليون واحد الانادراً مع ان مصادر الدخل عندها زادت عما كانت عليه في ايام العباسيين . خذ انكاثراً مثلاً وهي من أعظم الدول وأقربهن اليها الآن فان دخلها لعام ١٩٠٠ بلغ نحو ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه منها :-

جنيه	
٢٢,٠٠٠,٠٠٠	ضرائب المشروبات الروحية والتبغ والشاي
٣٢,٠٠٠,٠٠٠	قيمة الرخص على بيع هذه المشروبات ونحوها
١٨,٥٠٠,٠٠٠	ضريبة الايراد
١٣,٠٠٠,٠٠٠	طوابع البريد
٠٣,٠٠٠,٠٠٠	من التلغراف
٠٨,٥٠٠,٠٠٠	طوابع للمقود ونحوها
٩٧,٠٠٠,٠٠٠	(المجموع)

فترى من هذا المجموع ان نحو أربعة أخماس دخل هذه الدولة من مصادر لا يكاد يكون لها أثر في صدر الدولة العباسية

ويغلب في نفقات الدول الحديثة ان تساوي دخلها او يبقى لها باق قليل جداً . فندر ان يزيد على مليون جنيه وكثيراً ما يعجز صندوقها عن القيام بالنفقات كلها لحدوث ما يدعو الى زيادة النفقة كالحروب ونحوها كما حدث لانكاثراً في الاعوام الاخيرة أثناء حربها في جنوبي افريقيا حتى اضطرت الى الاستقراض كما هو مشهور - فما هو السبب في الفرق بين ميزانية دول هذه الايام وميزانية الدولة العباسية ؟ ولا يتضح لنا ذلك الا اذا ذكرنا أسباب الثروة العباسية فنقول :-

اسباب الثروة العباسية

من القضايا البديهية ان مثل هذه الثروة لا يتأتى الا اذا كان الدخل كثيراً وكانت النفقة قليلة . والثروة المشار اليها عبارة عن الباقي من اسقاط الخرج من الدخل . فلنبحث في أبواب الدخل وهي مصادر الجباية وفي أبواب الخرج وهي سبل النفقة ونرى الفرق بينهما ونبين أسباب كثرة الاولى وقلة الثانية

مصادر الجباية

كانت الجباية في أوائل الهجرة قاصرة على الزكاة ثم حدثت الغنائم بعد واقعة بدر الكبرى ثم الجزية لمن صالح النبي من نصارى جزيرة العرب وبنو ذها وتوفي النبي ومصادر الجباية الزكاة والغنائم والجزية . فلما كانت الفتوح في الشام والعراق ومصر وضعوا الخراج والعشور على الارض والمكس على التجارة وانقضت دولة الراشدين وهذه مصادر الجباية . وما زال الحال على نحو ذلك في ايام بني أمية مع ما فرضوه من الضرائب غير القانونية واستخدموه من العنف في تحصيلها كما تقدم . وما وضعوه في ايامهم ضرائب الاسماك وضعها محمد بن مروان في اثناء ولايته ارمينيا سنة ٧٢ هـ^(١) وظلهم وضعوا ايضاً اعشار السفن وهي العشور التي تؤخذ من المراكب المسارة في البحار . واخماس المعادن التي تحفر لاستخراج المعادن منها . وما زالت مصادر الجباية تترقي وتفرع حتى اصبحت في ايام العباسيين عديدة ترجع الى احد عشر وهي :

(١) ابن الاثير ١٩٦ ج ٤

- | | | | |
|-------|-------------------|--------|--------------------|
| (١) | الصدقة او الزكاة | (٧) | اخماس المعادن |
| (٢) | الجزبة | (٨) | المراسد (انكسار) |
| (٣) | الخزاج | (٩) | غلة دار الضرب |
| (٤) | المكوس (الفردة) | (١٠) | المستغلات |
| (٥) | الملاحات والاسك | (١١) | ضرائب الصناعة |
| (٦) | اعشار السفن | | وغيرها |

على ان العمدة في زيادة الثروة انما هي على الخزاج حتى انهم سمو مجموع الجباية خراجاً باطلاق البعض على الكل . فاذا قالوا خراج فارس مقداره كذا وكذا ارادوا مجموع جبايتها من كل الضرائب . وعليه فلنبحث اولاً في الخزاج وسبب كثرته في العصر العباسي الاول ثم نلثم بالضرائب الاخرى على وجه الاختصار

اسباب كثرة الخزاج

الخزاج ما يوضع من الضرائب على الارض او محصولاتها وكثرته في الدولة العباسية اسباب اهمها اربعة وهي :

(١) سعة المملكة العباسية

لما كان الموئل في مقدار الجباية على الخزاج فجباية المملكة لتعظم بزيادة مساحة أرضها وخصب تربتها . والمملكة الاسلامية في العصر العباسي الاول كانت عظيمة الاتساع جداً بل هي اوسع ممالك التمدن القديم (وخصوصاً اذا اعتبرنا اسبانيا منها) الاممكة الاسكندر فربما قاربها أما مساحة المملكة العباسية فنقدرها انما يعرف من مساحات الممالك التي قامت مقامها اليوم وهي :

مساحة المملكة العباسية

في القرن الثالث للهجرة

اسماء البلاد	الدولة التابعة لها الآن	مساحتها بالاميال
ايران كلها	شاه العجم	٦٢٨,٠٠٠
افغانستان	مستقلة	٢١٥,٠٠٠
بلوچستان	انكلترا	١٣٠,٠٠٠
السند	انكلترا	٤٨,٠٠٠
تركستان روسيا فقط	روسيا	٢٥٧,٠٠٠
قوقاسيا (تفليس)	روسيا	١٥,٣٠٠
ارمينية وكردستان	تركيا	٧٢,٥٠٠
{ العراق الجزيرة }	تركيا	١٠٠,٢٠٥
{ سوريا فلسطين }	تركيا	١٠٩,٥٠٩
جزيرة العرب (منها)	تركيا	٢٠٠,٠٠٠
القطر المعصري	تركيا	٤٠٠,٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٣٠٠,٠٠٠
طرابلس الغرب	تركيا	٣٩٨,٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	١٨٤,٥٠٠
تونس	فرنسا	٥١,٠٠٠
مراكش	مستقلة	٢١٩,٠٠٠

٣,٣٢٨,٠١٤ ميلاً مربعاً

(المجموع)

فمجموع مساحة هذه المملكة ٣,٣٢٨,٠١٤ ميلاً مربعاً وذلك نحو

مساحة اوربا كلها . فخراج ممالك اوربا لوجباه المسمون لم يزد على خراج مملكتهم

فاعتبر عدد تلك الممالك وفيها أعظم دول الارض اليوم . فلو كان اعتماد تلك الدول في جبايتها على الخراج لما استقام أمرها وانما عمدتها على ضرائب المشروبات الروحية والكمارك كما تقدم على ان سعة المملكة العباسية لا تكفي وحدها لتعليل ثروتها لأن المملكة العثمانية بلغت من السعة في أيام السلطان سليمان القانوني ما يقرب من سعة مملكة بني العباس ومع ذلك فان الجباية في أيامه لم تزيد على ٦٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك كما رأيت وانما ساعد الدولة العباسية على ذلك اهتمام الناس في الزراعة وثقل الضرائب وخصب الارضين وغير ذلك

(٢) اشتغال الناس في الزراعة

قلنا في كلامنا عن بيت المال في عصر الامويين ان عمالهم كانوا يسيئون اصحاب الخراج من الرعايا بما يستعملونه من العنف والعسف في تحصيلها فتشاغل الناس عن الزرع فاهلكت الارض وزادها اهمالاً انتشاب الفتن والحروب في العراق وفارس وسائر انحاء المملكة الاسلامية ونقم الناس على حكومتهم وابطلوا الزراعة نكاية فيها ولقلة انتفاعهم بها فأصبح معظم البلاد خراباً من الاهمال^(١) وفيها الضياع والمزارع . فلما تولى العباسيون ونشروا لواء العدل واحسنوا معاملة أهل الذمة والموالي وأمنوهم على حقوقهم وأموالهم وأرواحهم عاد الناس الى الاشتغال بالزرع وغيره

وكان للخلفاء الاولين من بني العباس عناية كبرى في تأييد الامن وتعمير البلاد ورعاية أهلها من الذميين والموالي . فلمنصور كان يتتبع العمال الظلام ويأخذ أموالهم ويستبدلهم بسواهم ويضع ما يأخذ من أموالهم في بيت مال مفرد سماه بيت مال المظالم^(٢) وكان يبعث الى الاطراف يسأل عن اسعار الغلة

لثلا يظلم الناس بعضهم بعضاً ويبحث عن كل ما يقضي به القضاة او يعمل به الولاية وعما يرد الى بيت المال وعن كل حدث . فاذا رأى الاسعار تغيرت سأل عن السبب واذا شك في شيء مما قضى به القاضي سألوه ووبخه ^(١) . وبعد ان كان الموالي كالارقاء في أيام بني أمية أصبحوا في أيام العباسيين هم أهل الدولة وحماة الخلافة يوصي الخلفاء بعضهم بعضاً برعايتهم وخصوصاً آل خراسان فقد أوصى المنصور ابنه المهدي قائلاً « انظر الى مواليك فاحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم فانهم مادتك لشدتك اذا نزلت بك وأوصيك بأهل خراسان خيراً فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك » ^(٢) وكذلك فعل المأمون وغيره . وكان المنصور يشغل نهاره في النظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم وهدبهم . ومن وصاياه لابنه المذكور « يا بني لا يصلح السلطان الا بالقوى ولا تصلح رعيته الا بالطاعة ولا تعمر البلاد بمثل العدل »

وأدلة عدل الخلفاء العباسيين الاولين ونفواهم ورفقهم كثيرة . فقد كان المهدي يجلس للظالم فينصف الناس من عماله وقضاته وأهله . وأخبار الرشيد في العدل أكثر من ان تحصى وكان اذا ذكروا الظلم بين يديه بكى . من أمثلة ذلك انه كان قد حبس أبا العتاهية وجعل عليه عيناً يأتيه بما يقول فأروه يوماً قد كتب على الحائط

اما والله ان الظلم لوئم وما زال المسي هو الظلم

الى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد فبكى واحضره واستحله واعطاه الف دينار . وله مع أبي العتاهية حديث أغرب من هذا وهو ان الرشيد أومأ وليمة ووضع طعاماً وطلب الى أبي العتاهية ان يصف ما هم فيه من النعيم فقال :

عش ما بدالك سالماً في ظل شاهقة القصور

يسعى عليك بما اشتتهى ت لدى الرواح وفي البكور

فاذا النفوس نفعقت في ظل حشجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ما كنت الا في غرور
فبكى الرشيد فقال الفضل بن يحيى « بعث اليك أمير المؤمنين لتسره فخرته »
فقال الرشيد « دعه رأنا في عى فكره ان يزيدنا »^(١)

وأمثله ذلك كثيرة عن الرشيد والمأمون مما لا يستوعبه كتاب . فكيف
لا يستتب الأمن في ظل هؤلاء ولما اذا لا تخصب الزراعة وتوسع التجارة في حمايتهم
وكيف لا ينقاطر الناس الى جوارهم والاستهلاك في خدمتهم . وكيف لا تنعم البلاد
في ظل العدل وهو ميزان نصبه الله بين عباده فلا عمران الا في ظله ولا حياة الا
به . ولا يتم عزُّ للسلطان الا بالعدل اذ لا عزَّ للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا
بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعارة ولا سبيل الى العارة الا بالعدل^(٢) والعدل
أساس الملك

ومما ساعد على عمران المملكة العباسية ان الخلفاء كانوا يبذلون جهدهم في تعمير
ما تركه الامويون خراباً من الضياع والمزارع بتسليمها الى من يصلحها ويعمرها^(٣)
فضلاً عما كانوا يبذلونه من العناية في احتفار الانهر وانشاء السدود وغيرها من
مسهلات الري

(السواد) فعمرت بذلك البلاد وكثرت غلتها وخصوصاً السواد (والعراق)
فانه من أخصب بقاع الارض واذا راجعت ما ذكرناه من جبايته رأيت خواجه
١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وذلك نحو ثلث خراج المملكة كلها . والسواد كثير الجباية
من أيام الفرس فقد جباه قباذ بن فيروز ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٤) وجباه كسرى
بن قباذ ٢٨٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٥) وجباه غيرهم من ملوك الفرس ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠
درهم سوى ٣,٠٠٠,٠٠٠ من الواضع لموائد الاكل^(٦) -- كانوا يجبون ذلك
على غير ظلم ولا عسف ولكنهم كانوا يعتنون بالري فيحفرون الترع ويبنن السدود

(١) ابن الاثير ٨٨ ج ٦ (٢) ابن خلدون ٢٤٠ ج ١ (٣) الفخري

١٥٧ (٤) ابن خرداذبه ١٤ (٥) الماوردي ١٦٥ (٦) ابن الفقيه ٢٠٥

والجسور . ووادي الفرات كما لا يخفى كثير الشبه بوادي النيل من جملة وجوه لخصب تربته وغزارة مائه وهو يفيض مثله كل سنة ولكن الفرات ودجلة يجريان من الشمال الى الجنوب و يفيضان في الشتاء والنيل يجري من الجنوب الى الشمال و يفيض في الصيف . ويحتاج السواد بعد كل فيضان الى اصلاح ما تخرب من الجسور ونحوها بطغيان الماء

وكان ماء دجلة يجري قديماً غير مجراه اليوم . اي انه كان يجري مثل مجراه اليوم من بغداد جنوباً الى المدائن فالدير فالعاقول فخرجرايا فجابول الى ماذرايا ومن هناك ينعطف غرباً حتى يسير سيراً عمودياً الى قم الصالح فواسط حتى يصب في البطائح حيث يلتقي بالفرات ومنها الى دجلة العوراء بقرب البصرة ومنها الى خليج فارس قرب عبادان . ثم جرى بعد ذلك من ماذرايا شرقاً ثم انعطف جنوباً شرقياً على ما هو عليه اليوم . وكان الفرات فرعين احدهما بجانب الكوفة والاخر شرقيه وكلاهما يصبان في البطائح

﴿ البطائح ﴾ والبطائح مستنقعات او ارض كان يغمرها الماء في أسفل العراق بين البصرة والكوفة . وسببها ان دجلة انبثقت في ايام قباز فيروز بشقاً كبيراً بقرب كسكر فاغفل أمره حتى غلب ماؤه وغرق كثيراً من ارضين عامرة كانت تليه وتقرّب منه . فلما ولي أنوشروان العادل الشهير امر بذلك الماء فزحم بالمسنيات حتى عاد بعض تلك الارضين الى العمارة ثم خلفه ابنه برويز وفي ايامه زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة (في السنة السادسة للهجرة) لم يرمثلها وانبثقت بثوق كبار فجهد برويز ان يسكرها حتى ضرب اربعين سكرّاً في يوم واحد فلم يقدر على رد الماء . فظلت الحال على ذلك حتى جاء المسلمون لفتح العراق وشغل الفرس بالحرب فكانت البثوق تنفجر ولا يلتفت اليها أحد ويعجز الدهاقين عن سدها فعمّ ماؤها واتسعت البطيحة وعظمت ^(١) ومع ذلك فقد كان خراج هذه الارض المستنقعة كبيراً فان عبد الله بن دراج استغل منها ٥٠٠,٠٠٠ درهم في خلافة

معاوية بن أبي سفيان^(١) لكنهم قلما عنوا في اصلاحها والانتفاع بالارض المغمورة . فلما تولى الحجاج بن يوسف اشتغل بالحروب عن اصلاح الري . وفي أيامه انبثقت بشوق أخرى وكبرت البطائح فكتب الى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبرها وانه قدر على سدها للنفقة ٣٠٠٠,٠٠٠ درهم فاستكثرها الوليد فقال له أخوه مسلمة بن عبد الملك « انا انفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الارضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على أيدي ثقاتك » فرضي الوليد بذلك فحصلت للوليد أرضون وطاسيج كثيرة فحفر نهر بن سماها السيدين وتألف الاكرة والمزارعين وعمر تلك الارضين واستخرج للوليد أيضاً من البطائح ثم لهشام بعده مالاً كثيراً ثم جرى الناس على ذلك الى أواخر بني أمية^(٢)

ولما افضت الخلافة الى العباسيين واتخذوا السواد مقر ملكهم جعلوا همهم احياء ارضه باحتفار الانهر وانشاء الجسور حتى تشبكت الترع في السواد وأصبح ما بين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز فتخزق اليه انهار من الفرات^(٣) وقس على ذلك سائر انحاء العراق . وهو لم يصر الى هذا الخصب والرخاء الا في أيام العباسيين لارتياح الناس الى العمل ورغبة الخلفاء في تعمير البلاد مع قابلية الارض لذلك

(خراسان) ومن البلاد التي زاد بها الخراج زيادة كبرى خراسان فقد كانت أرض خصبة مع سعتها ورغبة أهلها في نصرة الدولة العباسية . وخراج خراسان نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم اذا أضيف الى خراج العراق بلغ المجموع نحو نصف جباية المملكة كلها . ولذلك كانت عناية بني العباس في أبان دولتهم بمذولة في هذين البلدين وفي الحجاز . اما العراق فللمال واما خراسان فللمال والرجال . وأما الحجاز فهو مصدر الثقة في الخلافة وثبيت البيعة . وعمران خراسان في ذلك الوقت مما لا ريب فيه — قال المقدسي في عرض كلامه عن مدائن العراق وقد

أطنب في عمرائها « فهذه مدن بغداد وبخراسان قرى كثيرة أجل من أكثر هذه المدن » ^(١) وكثيراً ما كان الخلفاء العباسيون يعدون خراسان المملكة كلها ^(٢) ويدخل في ولاية خراسان بلاد ماوراء النهر وهي كثيرة الخصب جداً — قال ابن حوقل « ولم أر ولم أسمع في الاسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارا لانك اذا علوت قمندزها لم يقع بصرك من جميع النواحي الا على مغارس تفضل خضرتها بلون السماء وكأن السماء مكتبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللطيفة او كالكواكب العلوية يياضاً ونوراً من أراضي ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرأة » قال « والمشار اليه من منتزهات الارض سفد سمرقند ونهر الابله وغوطة دمشق » ^(٣) ناهيك بعمران سائر المدن الاسلامية في ذلك العصر الزاهر (راجع خريطة المملكة الاسلامية الملاحقة بهذا الكتاب)

﴿ مصر ﴾ ولا غرابة فيما تقدم من عمران البلاد في ظل الدولة العباسية فان العدالة توطد دعائم الامن واذا أمن الناس على ارواحهم وحقوقهم تفرغوا للعمل فتعمر البلاد ويرفأ أهلها ويكثر خراجها . اعنبر ذلك بمصر وتاريخ جبايتها فقد كان عدد سكانها عند الفتح الاسلامي نحو ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس على ما أجمع عليه مؤرخو العرب ويستبعد أهل هذا الزمان امكانه . واكثر منهم استغراباً أهل أوائل القرن الماضي . فقد ذكر الدكتور كلوت بك تقدير العرب لسكان وادي النيل انه عشرون مليوناً وعقب عليه بأنه « بعيد الاحتمال لان طبيعة الارض لا تحتل ان يزيد عدد سكانها على ثلث هذا القدر » ^(٤) وقد رأينا اليوم انه زاد على نصفه ولا يزال آخذاً في الزيادة

أما كلوت بك فانه أعظم ذلك لان احصاء هذا القطر كان على عهد كتابه (سنة ١٨٤٠) ٣,٠٠٠,٠٠٠ نفس فقط على انه لما ذكر هذا الاحصاء اظهر إعجابه

(١) المقدسي ١٢٢ (٢) اليعقوبي ٥٥٥ ج ٢ (٣) ابن حوقل ٣٤٥

(٤) Aperçu gen. sur l'Egypte I. 165

بزيادة سكان وادي النيل في ظل محمد علي باشا عما كانوا عليه في أيام المماليك لما كان من عدالته ورغبته في احياء البلاد

اما في أيام الامراء المماليك قبله فلم يكن يزيد عدد سكان مصر على ٢,٠٠٠,٠٠٠ ولا نظن الارض المزروعة فيها كانت تزيد مساحتها على مليون فدان وبعض المليون بالنظر الى ماكان يقاسيه المصريون من استبداد الامراء المماليك . فلما ظلمهم العدل في عهد محمد علي وخلفائه تزايد السكان واتسعت مساحة الارض المزروعة حتى بلغت الآن ٥,٥٠٠,٠٠٠ فدان وسكانها نحو عشرة ملايين وهي آخذة في الزيادة . وبالطبع ان مقدار الجباية يزداد بزيادة العمران وكثرة السكان وهما لا يكونان الا في ظل العدل الصحيح - اعثر ذلك في جباية مصر بالنظر الى الدول والعصور فترى انها تمتش على هذه القاعدة تمامًا :

كانت جباية مصر في زمن الراشدين أعلى ما بلغت اليه في الاسلام . فقد جباها عمرو بن العاص في زمن عمر بن الخطاب ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار ومساحة الارض المزروعة على تقديرهم ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فدان . وجباها عبد الله بن سعد في أيام عثمان ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار ولكنه استعمل العنف في تحصيلها^(١) . فلما كانت أيام بني أمية وكان ما كان من ظلم العمال وعنفهم انحطت الجباية ولم تزد في أيامهم على ٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار الا في أيام ابن الحبحاب على عهد هشام بن عبد الملك فبلغت ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار لانه بذل الجهد في تحصيلها وتعديها وزاد الخراج . فلما كانت الدولة العباسية لم تزد الجباية كثيرًا لبعده مصر من دار الخلافة يومئذ فظلت على نحو ما كانت عليه في أيام بني أمية . ولما أخذت الدولة العباسية في التمهقر زاد انحطاط الجباية في مصر حتى اصبح في بعض سني القرن الثالث للهجرة ٨٠٠,٠٠٠ دينار فلما تولاها ابن طولون سنة ٢٥٧ هـ استقصى عمارتها فبلغت جبايتها في أيامه ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار مع رضاء الاسعار وكان القمح كل عشرة

أرادب بدينار^(١) فلما انقضت دولة بني طولون والدولة الاخشيدية ودخلت مصر في حوزة الفاطميين سنة ٣٦٣ هـ جباها جوهر القائد ٧,٠٠٠,٠٠٠ دينار^(٢) لكنه لم يستطع ذلك الا بزيادة الخراج على الافدنة . ثم عادت الجباية فانحطت وارتقت تبعاً لما تناوب عليها من الدول مما يطول شرحه .

وآخر عهدنا بانحطاطها على أيام الامراء المماليك في أواخر القرن الثامن عشر كما تقدم . اذ كانت جبايتها قليلة جداً مع كثرة الضرائب والتشديد في تحصيلها . واليك ميزانية الحكومة المصرية سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) : -

الوارد

ميدة او نصف	
٦٨,٤٦٠,٨٠	مال الميري على القرى والاوقاف
١٠,٨٧٠,٧٧٣	» » » الايراد
٢٢,٨١١,٨٠٥	» » » الصنائع والمأكولات
٢,٥٠٩,٠٨١	» » » على الرؤوس
١١٦,٦٥١,٧٢٧	

الخارج

ميدة او نصف	
٢,٩٣٩,٢٤٧	نفقات كبار الموظفين
٢٩,٨٧٢,٦٥٧	» » الجند
٢,٦٥٣,٥٨٥	» » مختلفة
٨,٤٣٨,٩٩٤	» » العلماء والتعليم ووقفات
١٣,٨٩٢,١٣٩	» » رجال الدين والجوامع ونحوها
٤٢,٠٧١,٦٥٤	» » الحج
٩٩,٨٦٨,٢٧٦	مجموع الخارج يستخرج من مجموع الوارد اعلاه
١٦,٧٨٣,٤٥١	الباقى

والباقي المشار اليه كانوا يسمونه الخزنة وكانوا يحملونها الى الاستانة كل سنة .
ولما تمرد حكام مصر حاول بعضهم اسقاطها والبعض الآخر تخفيضها ثم انتهت اخيراً ان
يقنطعوا منها ٩,٢٨٣,٤٥١ نصفاً في مقابل نفقات فوق العادة على هذه الصورة :

ميدة او نصف	
٣,٠٠٠,٠٠٠	ترميم قلاع القاهرة
١,٥٠٠,٠٠٠	» » سائر القطر
٢,٠٠٠,٠٠٠	اثمان سكر وخلافه
٢,٧٨٣,٤٥١	نفقات اخرى يأمر بها شيخ البلد
٩,٢٨٣,٤٥١	الجملة

فاذا اسقط هذا المال من الخزنة المذكورة كان الباقي ٧,٥٠٠,٠٠٠ ميدة ^(١)

وخلاصة ما يهمنا في هذا المقام ان مجموع الايراد في عصر المماليك باع
٧٢٧,٦٥١,١١٦ نصفاً أو ميدة والميدة في تلك الايام كانت تساوي اربعة سنتيمات
تقريباً ^(٢) او كل ٢٨ نصفاً تساوي فرنكاً واحداً . فجباية مصر يومئذ قيمتها بالفرنكات
نحو ٤,١٥٠,٠٠٠ فرنك . غير ان قيمة نقود تلك الايام كانت تختلف عن قيمتها
اليوم وقياس ذلك الاختلاف أسعار المأكولات فقد كان ثمن الرطل من اللحم
الضاني سبعة أنصاف وثمان أردب القمح ٢٤ نصفاً ^(٣) فاذا قسنا ذلك بأثمانها في هذه
الايام رأينا الميدة والنصف يقابل نصف القرش المصري تقريباً . فنكون جباية مصر
في عصر المماليك تساوي نحو ٥٨,٠٠٠,٠٠٠ قرش مصري او ٥٨٠,٠٠٠ جنيه . فلما
تولتها العائلة الخديوية وعملت على عمرانها أخذت جبايتها في الزيادة حتى بلغت في
العام الماضي ١١,٨٥٠,٠٠٠ جنيه أي أكثر من عشرين ضعف جبايتها في أيام
المماليك والتربة واحدة والنيل واحد والفصول على حالها — وانما هي العدالة يكثر في

(١) Descrip. d'Égypte XII. (٢) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠

(٣) الخطط التوفيقية ١٥٥ ج ٢٠

ظلمها الناس وتخصب الارض وتتوفر الثروة — سنة الله في خلقه ولن تجد اسنة الله تبديلاً

(٣) نقل الخراج المضروب

كان الخراج المضروب على الارض في المملكة العباسية يختلف نوعه باختلاف البلاد فبعضها بالمساحة أي ان يضربوا على المساحة المعلومة من الارض مالاً معيناً في العام سواء زرعت تلك الارض ام لم تزرع . والبعض الآخر بالمقاسمة أي ان يكون الخراج جزءاً من حاصل الارض بعد زرعها واستغلالها . فلم يزرع لا يطالب بالخراج وكل من خراج المساحة والمقاسمة درجات وفتات سيأتي بيانها . ولما كان السواد (او العراق) أهم أقاليم المملكة العباسية بالنظر الى الخراج بدأنا به ﴿ السواد ﴾ كان السواد لما فتحه المسلمون يجبي بالمساحة باعتبار « الجريب » وهو قطعة من الارض مساحتها ستون ذراعاً في ستين أي ٦٠٠ و ٣ ذراع مربع فكل ما كانت مساحته جريباً كان الفرس يأخذون عليه قفيزاً ودرهماً^(١) . والقفيز عشرين الجريب ويعبرون عن القفيز وزناً بثنائية أرتال و يقدرون قيمته بثلاثة دراهم^(٢) وكانت ضريبة الخراج بالقفيز معروفة في الجاهلية ومن ذلك قول زهير بن ابي سلمى

تغلُّ لكم ما لا تغلُّ لاهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم
فاذا اعتبرنا القفيز بثلاثة دراهم كان الجريب بثلاثين درهماً يؤخذ عليه اربعة دراهم اي نحو $\frac{1}{13}$ في المئة وهو خراج خفيف جداً — لولا ان كثيراً من الاجربة تبقى بلا زرع ويدفع أصحابها الخراج عنها

فلما فتح السواد على عهد عمر بن الخطاب وعلم بما كان الفرس يجبونه أمر بمساحته فمسحوه له وعدلوه باعتبار نوع الفرس . وخلاصة ذلك انه أبقي الخراج على الخنطة كما كان في أيام الفرس أي على الجريب قفيز ودرهم او اربعة دراهم .

وجعل على الجريب من الكرم عشرة دراهم ومن النخيل ثمانية دراهم ومن القصب ستة دراهم والرطبة خمسة دراهم وعلى الشعير درهين وعلى الرأس من الناس ١٢ درهماً أو ٢٤ أو ٤٨ درهماً وأخرج من ذلك النساء والصبيان^(١) وكان العمال يجبون السواد لعمر المذكور ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم باعتبارانه ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ جريب . وظل السواد في أيام الراشدين عامراً واكثره مزروع . فلما كانت الفتنة بعد مقتل عثمان واشتغل المسلمون بالحروب الى أيام بني أمية واستصفاء الاموال في أيام معاوية والحجاج وغيرها اشتغل أهل السواد عن الزرع كما تقدم . ومع ذلك فان الحجاج جباه نحو جبايته في أيام عمر ولا بد انه استخدم العسف والشدة في ذلك لان صاحب الارض كان يطالب بالخراج عن أرض لم يزرعها فاذا لم يؤد ما عليها ظل عليه الخراج ديناً عاماً بعد عام فيتراكم ذلك على أصحاب الارضين وهم يزدادون ضكاً فخرت البلاد وهجرها أهلها وجرى على ذلك معظم عمال العراق بعده حتى اضطر أصحاب الارضين الى اللجوء كما سيأتي . ناهيك بما كان في نفوس أهل السواد وغيرهم من كره بني أمية لتعصّبهم للعرب واحتقارهم غير العرب ولو كانوا مسلمين فلما افضت الخلافة الى العباسيين سنة ١٣٢ هـ وجهوا عنايتهم الى السواد بنوع خاص وأول من فعل ذلك منهم المنصور فانه نظر في السواد فاذا هو يكاد يكون خراباً للأسباب التي قدمناها فرأى استبقاء الخراج عليه بالمساحة على تلك الصورة ظلماً فجعل خراج الحنطة والشعير مقاسمة (وهما اكثر غلات العراق) اي ان يؤخذ خراج الارض من غلتها اذا زرعت فاذا لم تزرع لا يؤخذ منها شيء وأبقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر من الخراج بالمساحة^(٢) ولا ندري كم جعل حصّة بيت المال من المقاسمة المذكورة ولكننا نعلم ان ابنه المهدي (من سنة ١٥٦ - ١٦٩) عين ذلك وحدده فجعل المقاسمة بالنصف في الارض التي تسمى سيجاً اي بدون تعب وبالثالث في الارض التي تسقى بالدوالي وبالربع في الارض

التي تسقي بالدواليب وأبقى خراج النخل والكرم والشجر على المساحة وفضل بعضه على بعض باعتبار قربه من الاسواق والعرض - أشار عليه بذلك وزيره معاوية بن يسار^(١) فكان خراج العراق عبارة عن نصف غلته تقريباً لان أكثره يسقى سيجاً وهو خراج ثقيل ولكن الناس عدوه يومئذ فرجاً ورحمة

ويظهر ان الهادي أو الرشيد زاد على ذلك الخراج العشر فصار خراج العراق نصف غلته وعشرها أي ستة اعشارها وظل ذلك شأنها الى سنة ١٩٢ هـ فأسقط الرشيد العشر وأبقى النصف فقط^(٢) وما زال أهل السواد يدفعون نصف غلتهم خراجاً الى سنة ٢٠٤ هـ فجعلها المأمون خمسين^(٣) فكأنه أسقط عشرين في المئة من مقدار الخراج . وخفض خراج بعض البلاد الاخرى غير السواد كالري فانه جاءها سنة ٢١٠ هـ فأقام فيها مدة وأمر بتخفيف الخراج عنها . فلما انصرف وبلغ أهل قم ذلك طلبوا اليه ان يحط خراجهم كما فعل بالري فأبى فتمردوا وامتنعوا عن اداء الخراج وكان مقداره ٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم فخاربهم المأمون وجباه في ذلك العام ٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم تأدياً لهم^(٤)

فترى مما تقدم ان خراج السواد كان ثقيلاً بالنظر الى ما كان عليه في أيام الراشدين على المساحة لانهم كانوا يأخذون على الجريب اربعة دراهم ونسبة الجريب الى الفدان كنسبة ١٢٦٠ : ٤٢٠٠ او نسبة ١٠٠ : ٣٣٣ ١/٣ فاذا كان على الجريب ٤ دراهم كان على الفدان ١٣ ١/٣ وهو خراج زهيد بالنظر الى الارض التي تزرع واما بالنظر الى ما يبقى بوراً فهو كثير وربما كان المعدل في الجالين واحداً - يدلك على ذلك ان الفرق في ارتفاع الخراج بين المساحة في أيام الراشدين والمقاسمة في أبان كثرتها لا يعتمد به . أما بالنظر الى هذه الايام فان ضرائب السواد ما زالت حتى في أيام المأمون ثنيلة اذ ليس في العراق الآن أرض يزيد خراجها

(١) الماوردي ١٦٨ والفخري ١٦٤ والبلاذري ٢٩١ (٢) الطبري ٦٠٧

ج ٣ وابن الاثير ٤٨ ج ٦ (٣) الفخري ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦ والطبري

١٠٣٩ ج ٣ (٤) الطبري ١٠٩٣ ج ٣

على خمس غلتها وفيها جانب كبير يؤخذ منه العشر فقط . وفي لبنان ظاهر الخراج على المساحة ولكنه مؤسس على المقاسمة . لانهم مسحوا الارضين وقسموها باعتبار ما يحصل من غلتها باختلاف المغروسات فالارض التي غلتها كيل زيتون او حمل ورق توت او بذار مدقح او ما تساوي قيمته ٣٦٠ قرشاً سموها سهماً وفرضوا على السهم ٢١ قرشاً الا ربع قرش فيكون الخراج ٦ في المئة فقط

(مصر) وبلي العراق بالخصب مصر وكان خراجها على المساحة باعتبار الفدان وهو قطعة من الارض كانت مساحتها عندهم ٤٠٠ قصبه والقصبه خمسة اذرع بذراع التجار وستة اذرع وثلاث اذرع بذراع القماش^(١) وفي تعريف الحكومة المصرية اليوم الفدان $\frac{1}{3}$ ٣٣٣ قصبه والقصبه ٣٥٥ من المتر المربع وتحويله الى أمتار مربعة يكون الفدان نحو ٤,٢٠٠ متر مربع وقد تزيد أو تنقص قليلاً^(٢)

وقد تقدم ما كان يقاسيه المصريون في عهد بني أمية من العسف وزيادة الضرائب فدخلت الدولة العباسية ومصر اكثرها خراب لما كان يسومهم عمال بني أمية من زيادة الخراج وأشهر من فعل ذلك منهم عبيد الله بن الحبحاب في أيام هشام بن عبد الملك فانه زاد على القبط قيراطاً في كل دينار كما تقدم قال ذلك الى ثورة كبرى . على ان الثورات كانت ثنواً في مصر بسبب ضغط العمال فلما تولى العباسيون بعثوا اليها العمال ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رعاية أعمالهم وملاحظة سيرهم كما كانوا يلاحظون سير عمال العراق لبعده وادي النيل من مركز خلافتهم فكان العمال حتى في صدر الدولة العباسية يضاعفون الخراج ويشددون في تحصيله كما فعل موسى بن علي سنة ١٥٦ هـ في أواخر أيام المنصور وموسى بن صعب في أيام المهدي فانه ضاعف الخراج وشدد في استخراجه^(٣) وربما كان ذلك بايعاز الخليفة لان المهدي زاد الخراج على أهل العراق كما رأت

(١) المقرئ ١٠٣ ج ١ (٢) القوانين العقارية ١٦١ (٣) المقرئ

اما في أيام المأمون أي في أبان الثروة الاسلامية فقد كان الخراج المضروب على مصر دينارين عن كل فدان ^(١) وذلك كثير بالنظر الى ما يؤخذ منها الآن اذا اعتبرنا الفرق في السعر بين تلك الايام واليوم . لان الخراج المضروب على اطيان مصر الخراجية (وهي الجانب الاكبر) يختلف مقداره اليوم باختلاف خصصها وهو وان كان على المساحة فأساسه المقاسمة . لانهم قسموا القطر المصري الى نواح يختلف خراجها باختلاف خصصها . وأخصب النواحي لا يزيد خراج الفدان فيها على ١٨٠ قرشاً ^(٢) وأمثال هذه الفدادين قليل جداً . وأما الاكثر فخراجه حوالي مئة قرش وفيها ما خراجه عشرون قرشاً أو عشرة قروش . واذا اعتبرنا غلة الارض بالنظر الى خراجها رأينا الخراج لا يزيد على خمس الغلة بوجه التقريب لان الفدان الذي تقدير خراجه مئة قرش مثلاً يضمن بخمسة جنهات او ستة

واذا استخرجنا معدل خراج مصر على كل الفدادين رأينا معدل خراج الفدان لا يزيد على ٨٥ قرشاً لان في القطر المصري نحو ٥,٥٠٠,٠٠٠ فدان زراعي بلغ مقدار خراجها للسنة الماضية ٤,٦٥٢,٥٧٠ جنيهاً ^(٣) فيلحق الفدان الواحد نحو ٨٥ قرشاً وقد تقدم في غير هذا المكان ان القرش اليوم يساوي ثلث قرش تلك الايام . فالديناران خراج الفدان في أيام المأمون يساويان ستة دنانير في هذه الايام او ثلاثة جنيهاً . فيكون خراج مصر في أيام المأمون يزيد على ثلاثة أضعافه في هذه الايام

ولكن يظهر ان الخراج في مصر زاد بعد المأمون حتى بلغ في أواسط القرن الرابع للهجرة لما جاءها القائد جوهر وفتحها باسم الخلفاء الفاطميين ثلاثة دنانير ونصفاً فجعلها هو سبعة دنانير ^(٤) وذلك شيء كثير

وقد رأينا في كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي انه « ليس على مصر خراج ولكن

(١) المقرئ ٩٩ ج ١ (٢) الفوائن العقارية ١٦٤ ومابعدا

(٣) ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ صفحة ١٣ (٤) ابن حوقل ١٠٨

يعمد الفلاح الى الارض فيأخذها من السلطان ويزرعها فاذا حصد ودرس وجمع رشت بالعرام وترك ثم يخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعون كرى الارض ويعطى ما بقي للفلاح » ولكن ذلك كان خاصاً بالارضين التي كانت الحكومة تقبلها أي تضمناها وليس لها مالك وقد تكون في الاصل لبعض القواد او العمال من الروم الذين قتلوا في الحرب او هربوا فبقيت حلالاً لبيت المال كما تقدم فيضمونها الحاكم ويأخذ ضمانتها عيناً أو نقداً

﴿ بلاد أخرى ﴾ وهناك بلاد بعضها كان يجبى بالمساحة والبعض الآخر بالمقاسمة . فبلاد فارس مثلاً كان خراجها على ثلاثة أصناف (١) المقاسمة (٢) المساحة (٣) القوانين وهي المقاطعات . على ان اكثر بلاد فارس على المساحة وتختلف الاخرجة فيها باختلاف البلاد فأثقلها في شيراز^(١) فان خراج الجريب حنطة أو شعيراً ١٩٠ درهماً والجريب من الارطاب والمباطح $\frac{1}{4}$ ٢٣٧ درهم ومن القطن ٢٥٦ درهماً وأربعة دوانق ومن الكرم ١,٤٢٥ درهماً ولكن الجريب عندهم كبير اي سبعون ذراعاً بذراع الملك وهو تسع قبضات^(٢) فافرض الجريب جريبين من أجربة العراق فالخراج مع ذلك لا يزال ثقيلاً جداً . وهو خراج تلك البلاد في أواسط القرن الرابع ولم تنقص على مقداره في أيام المأمون ومن هذا القبيل خراج المغرب في أيام الاغالبية فقد بلغ خراج الغدان في أيام عباس بن ابراهيم بن الاغلب ١٨ ديناراً^(٣) ولا نظن مثل هذا المال يطول اقتضاؤه من أصحاب الارضين وانما هو يختلف باختلاف الاعوام والاحوال

وجملة القول ان الخراج كان في العصر العباسي الاول ثقيلاً ومع ذلك لم يكن يمسر اقتضاؤه وقلما شكوا الناس ثقله وربما استطاع العامل ان يجمع الملايين من الدراهم بسهولة في بضعة أيام كما اتفق للمأمون لما مرّ بدمشق وكان أخوه المعتصم عاملاً له عليها وقد قلّ المال مع المأمون فشكا ذلك الى المعتصم فقال « يا أمير

المؤمنين كانك بالمال وقد وافك بعد جمعة « فجاءه بثلاثين الف الف درهم
(٣٠,٠٠٠,٠٠٠) من خراج ما يتولاه له ففرق معظمه وهو واقف^(١)

سائر مصادر الجباية

على اننا لا نرى بأساً من الاشارة الى ما بقي من مصادر الجباية في العصر
العباسي الاول تنمة للموضوع - منها :

أ) **اعشار السفن** هي ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال
مبالغ وافرة لم نعر على تفصيلها ولا وقفنا على مقدار ما كان يجبي في العصر العباسي
ولكن يؤخذ مما نعلمه من اتساع التجارة في تلك الايام بين العراق وسائر اقطار
الدنيا حتى الهند والصين ان السفن كانت كثيرة واحمالها ثمينة . وقد ذكروا تاجراً
واحداً من تجار البصرة في القرن السادس للهجرة اسمه حسن بن العباس له
مراكب تسافر الى اقصى بلاد الهند والصين بلغ مقدار ما ينحصل من ضرائبها
١٠٠,٠٠٠ دينار في العام^(٢) فاعنبر ذلك وقس عليه غيره في البصرة وغيرها من
نعمور الاسلام وفيها ما يكون اكثر دخله من اعشار السفن . فقد كان ضمان
اعشار المراكب في عدن في القرن الرابع ٢٠٠,٠٠٠ دينار^(٣) وضمانها في القرن السادس
١١٤,٠٠٠ دينار^(٤) والظاهر ان جباية تلك الاعشار كانت في العصر العباسي
اقل مما صارت اليه بعد ذلك لاننا نرى في جريدة علي بن عيسى التي كتبها
للخليفة المقتدر سنة ٣٠٦ هـ ان ضرائب المراكب في البصرة بلغت ٢٢,٥٧٥
ديناراً وقد تقدم ان اضعاف ذلك كان يتحصل من احد تجارها بعد قرنين

(١) الطبري ١١٤٣ ج ٣ - وفي ابن الاثير وابي الفداء والفتخري ان مقدار
ذلك المال ثلاثون الف الف درهم (٣٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) وهذا خطأ من

النساج (٢) ابن حوقل (في الذيل) (٣) ابن حوقل ٢٠

(٤) ابن حوقل (في الذيل)

٢ (اخماس المعادن) كانت المعادن عندهم ضريبن ظاهرة و باطنة فالمعادن الظاهرة ما كان جوهرها المستودع فيها بارزاً كمعادن الكحل والملح والقار والنفط فهذه لا يجوز اقطاعها لانها كالماء والناس فيه سواء يأخذونه من ورد اليه . واما المعادن الباطنية فهي ما كان جوهرها مستكناً فيها فهذه كانت الحكومة تقطعها لمن يستخرجها ولها الخمس مما يخرج منها ^(١) ونظراً لسعة المملكة العباسية فقد كانت المناجم فيها عديدة ومنها الذهب والفضة والنحاس والزئبق والفيروز والزبرجد وغيرها وهالك امثلة منها ومن اماكن وجودها :

كان في خراسان معادن الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم والنوشادر والزئبق ^(٢) . وفي ماوراء النهر معادن الذهب والفضة والزئبق الذي لا يكافئه معدن في الغزارة والكثرة ^(٣) . وفي بلاد فارس عامة المعادن الفضة والحديد والالانك والكبريت والنفط والصفرة والزئبق . وبغربي اصبهان معدن الكحل ^(٤) . وفي كرمان مدينة اسمها دمندان كان فيها اكثر معادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والنوشادر والصفرة ^(٥) . ومن هذا القبيل مفاوذن المرجان بسواحل افريقيا الشمالية وهو شيء كثير كانوا يوسقون من منجم واحد منه خمسين قارباً او اكثر وفي كل قارب عشرون رطلاً ^(٦) . وفي سوريا معادن الحديد كانت بجوار بيروت والمغرة الجيدة في حلب وجبال الحجر في مكان آخر ومعدن الرخام في فلسطين ومعدن الكبريت في الاغوار ^(٧) . وفي مصر معادن الشب بالصعيد وكانت العربان تحضره من معادنه الى ساحل اخميم واسيوط والبهنسا ويحمل منها الى الاسكندرية ايام النيل وكانوا يبيعون منه تجار الروم نحو ١٢,٠٠٠ قنطار بسعر أربعة دنانير كل قنطار الى سنة . وكذلك النظرون في البر الغربي للنيل وفي غيره كان يستخرج منه كل سنة ١٠,٠٠٠ قنطار وكان يضمن في بعض الاحوال ضماناً

(١) الماوردي ١٨٧ (٢) المقدسي ٢٢٦ (٣) ابن حوقل ٣٣٧

(٤) الاصطخري ١١٥ و ٢٠٢ (٥) ابن الفقيه ٢٠٦ (٦) ابن حوقل ٥١

(٧) المقدسي ١٨٤

تبلغ قيمته ١٥,٥٠٠ دينار ^(١) . وفي النوبة مما يحاذي اصوان معدن الذهب المشهور - قال ابن حوقل « والمعدن ليس من أرض مصر ولكنه في ارض البجة وينتهي الى عيذاب والمعدن ارض مبسوطة لاجبل فيها وهي رمال ورضراض وجمع تجارهم العلاقي » ^(٢) . وفي بلاد الغرب مما يلي سجلماسة معادن الذهب والفضة وكذلك في ما وراء ذلك الى بلاد السودان ^(٣) . وكان في صعيد مصر جنوبي النيل (كذا) معدن الزبرجد في برية منقطعة عن العمارة ^(٤) . وفي البحرين بجليج فارس مغاوص اللؤلؤ وفي صنعاء مناجم العقيق وبين ينبع والمروة معادن الذهب وعلى شواطئ عدن ومخا العنبر ^(٥)

هذه أمثلة مما كان في المملكة العباسية من المعادن تمثيلاً لما كان يجبي من اخماسها الى بيت المال . وكانوا يقطعون هذه المعادن اقطاعاً أو يضمونها تضيماً بال معين وقد يكون ذلك المال كثيراً - من امثلة ذلك ان معادن الفيروز في نيسابور بلغت ضمانتها في أواسط القرن الرابع للهجرة ٧٥٨,٧٢٠ درهماً ^(٦)

٣ (الجزية والزكاة) كانت الجزية في صدر الاسلام كثيرة ثم تناقصت بدخول الناس في الاسلام . والزكاة كان لها شأن كبير في أول الاسلام ثم قلت اهميتها وسيأتي بيان ذلك

٤ (المكوس والمراسد) وهما تقابلان الكارك والعوائد في هذه الابام وكانوا يأخذون ضريبة من كل تجارة واردة في البحر او البر مهما يكن نوعها من الانسجة او المحصولات او المصنوعات او الرقيق او غيره . وكان يحصل لهم من ذلك مال كبير . ولا نعلم مقدار ما كان يجمع منه ولكن يظهر انها كانت تختلف باختلاف الزمان والمكان وربما اختلفت في البلد الواحد باختلاف الزمان وفي الزمن الواحد باختلاف البلاد مما لا يمكن حصره وانما نأتي بما شاهده شمس الدين المقدسي بنفسه في مصر باواسط القرن الرابع للهجرة من الضرائب التي كانت تؤخذ في

(١) المقرئزي ١٠٩ ج ١ (٢) ابن حوقل ١٠٧ (٣) المقدسي ٢٣١

(٤) الاصطخري ٥١ (٥) المقدسي ١٠١ (٦) المقدسي ٣٤١

تنيس ودمياط قال « واما الضرائب فتقيلة بخاصة تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل
وأما الثياب الشطوية فلا يمكن القبطي ان ينسج شيئاً منها الا بعد ما يجتم عليها
بجتم السلطان ولا ان تباع الا على يد سماسرة قد عقدت عليها وصاحب السلطان
يثبت ما يباع في جردته ثم تجمل الى من يطويها ثم الى من يشدها بالقشر ثم الى
من يشدها في السفط والى من يحزمها وكل واحد منهم له رسم يأخذه . ثم على باب
الفرضة يؤخذ شيء وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش المراكب عند
اغلاقها . ويؤخذ بنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا واشباهه . ثم على شط النيل
بالفسطاط ضرائب يقال رأيت بساحل تنيس ضرائباً جالساً قبل هذه الموضع في كل
يوم الف دينار ومثله عدة على سواحل البحر في الصعيد وساحل الاسكندرية .
وبالاسكندرية أيضاً على مراكب الغرب وبالفرما على مراكب الشام ويؤخذ
بالقلم من كل حمل درهم » (١)

وذكر ابن حوقل انه كان يتحصل مما يخرج من اذريجان الى نواحي الري
ولوازم على الرقيق والدواب واسباب التجارات والابقار والاغنام ١,٠٠٠,٠٠٠
درهم في السنة (٢)

على ان هذه الضرائب وامثالها لم يكن لها رواج في اوائل الدولة العباسية
ولا كانت غلتها تستحق الذكر ولكن دخلها تعاظم في عصر الانحطاط

د « المستغلات وغلة دار الضرب » براد بالمستغلات ما يجبي لبيت المال
من أسواق أو منازل أو طواحين ابناها الناس في أرض تربتها لسلطان فيؤدون
عنها أجرة (٣) . وذكر ابن خردادبه مبلغ غلات الاسواق والارحاء ودور الضرب
في مدينة السلام بقدر ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم في السنة (٤) وبلغت غلات ومستغلات
سامراً وأسواقها ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة (٥)

(١) المقدسي ٢١٣ (٢) ابن حوقل ٢٥٣ (٣) ابن حوقل ٢١٧

(٤) ابن خردادبه ١٢٥ (٥) يعقوبي (كتاب البلدان) ٣٨

فالدولة العباسية في أبان زهوها كانت تحيي من هذه الضرائب شيئاً كثيراً
ولكن العمدة كانت على الخراج كما تقدم

(٤) صدق العمال في ارسال المال المجموع

قد رأيت مما ذكرناه من جور عمال بني أمية أنهم كثيراً ما كانوا يستأثرون
بالخراج لانفسهم اما باذن الخلفاء كما فعل عمرو بن العاص بمصر اذ جعلها معاوية
طعمة له في مقابل نصرته اياه على علي او بحجة الحاجة الى المال في الحروب كما
حصل في أيام الحجاج او استرضاء لعامي متمرّد التماساً لعوده^(١) او ان يعصى
العامل بالخراج لغير سبب كما فعل مسامة بن عبد الملك في ولايته على العراق في
أيام أخيه يزيد^(٢) فان يزيداً استحيى ان يطالبه بالخراج ولعله خاف عصيانه .
ناهيك بما كان يكتمه العمال عن خلفائهم من أموال النفي والغنائم وهو من حق
بيت المال وقد يذكرونه ويطمعون فيه كما فعل يزيد بن المهلب بعد فتحه جرجان
سنة ٩٨ هـ فانه أصاب مالا كثيراً بقي منه لبيت المال ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم كتب
عنها للخليفة لكنه استبقاها لنفسه^(٣) — ذلك ونحوه دعا الخلفاء في بعض الاحوال
الى ان يستخرجوا المال من عمالهم بالقوة كما تقدم

أما بنو العباس فقد كان معظم عمالهم في أوائل الدولة من اهلهم الاقربين ثم
استعملوا انصارهم الفرس وهم اكثر الناس رغبة في قيام دولتهم . وكان الخلفاء
من الجهة الاخرى لا يقصرون في زيادة رواتبهم حتى بلغت في ايام المأمون
ثلاثة ملايين درهم^(٤) وهي عمالة الفضل بن سهل على المشرق ولم يدرك مثلاً أحد
من عمال بني أمية . لان اكبر راتب اقتضاه عمالهم لم يزيد على ٦٠٠,٠٠٠ درهم
وهي عمالة يزيد بن عمر بن هبيرة على العراق^(٥)

- | | |
|-----------------------------|---------------------------|
| (١) ابن الاثير ١٤٣ ج ٢ | (٢) ابن الاثير ٤٧ ج ٥ |
| (٣) الطبري ١٣٣٤ و ٢١٣٥٠ ج ٤ | (٤) الطبري الطبري ٨٤١ ج ٣ |
| (٥) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ | |

ومما ساعد بني العباس في أوائل دولتهم على حفظ نظام أعمالهم واجماع العمال على ولائهم سداد رأي وزرائهم وخصوصاً البرامكة فانهم كانوا واسطة عقد تلك الدولة وزهرة تمدنها . وكذلك كان الفرس على الاجمال لانهم كانوا يمدون اسنيلا بني العباس عليهم رحمة من الله كانوا يتوقعونها منذ أعوام للتخلص من بني أمية واحتقارهم ايامهم

وهناك أسباب أخرى لكثرة جباية الدولة في أيام المأمون كقلة الحروب والغنن فانها مذهب للاموال مضيعة للخراج مفسدة للاعمال لاشتغال الناس عن الزراعة والتجارة وانفاق الاموال في الجند

اسباب قلة النفقة

فرغنا من الكلام عن اسباب كثرة الخراج في الدولة العباسية بالقياس على أيام بني أمية وهذه الايام وهي القسم الاول من أسباب الثروة العباسية فلنأت الى القسم الثاني وهو قلة النفقة وأهم أسبابها ثلاثة :

(١) قلة الموظفين

يختلف عدد الموظفين في مصالح الحكومة باختلاف نمط تنظيمها ويقال بالاجمال انهم أقل عدداً في الحكومات الاستبدادية منهم في الحكومات المقيدة لاستغناء الحكم المطلق عن تدوين كل شيء وضبطه لمراجعة النظر فيه . اعتبر ذلك في الحاكم القضائية ومقدار الفرق بين عدد موظفيها في عهد الاحكام العرفية وبينهم في عهد الاحكام القانونية وقس عليه سائر مصالح الحكومة والسبب فيها متشابه . ويكفي لبيان هذا الفرق مقابلة عدد موظفي الحكومة المصرية قبل نظامها الحالي بعددهم اليوم

كانت حكومة مصر قبل دخول الفرنسيين اليها (في اواخر القرن الثامن عشر) لا تزال على نحو ما رتبها عليه السلطان سليم الفاتح وابنه السلطان سليمان .

وخلاصة ذلك ان رئيسها الباشا وهو والي المرسل من الاستانة يليه ٢٤ ييكاً (طلبه خانه) منهم ١٢ يتولون المصالح الكبرى في القطر وهم :

- (١) الكخيا وهو نائب الباشا و كاتب سره
 - (٢) الدفتردار وهو ينظر في الخراج و يقابل ناظر المالية عندنا
 - (٣) امير الخزنة وهو يحمل الى الاستانة ما يخصها من خراج مصر
 - (٤) امير الحج وهو يتولى قيادة الحج الى الحجاز
 - (٥) ثلاثة قباطين لقيادة ثغور السويس ودمياط والاسكندرية
 - (٦) خمسة مدراء لاقاليم جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية
- وهناك اربعة كتاف لاقاليم القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم واعماهم مثل اعمال البكوات مديري الاقاليم الاخرى

ومن المصالح الاخرى القاضي وامين الضربخانه والمختضب وكان الجند عبارة عن ست فرق تسمى وجاقات وهي :

- (١) وجاق المتفرقة . وهو مؤلف من نخبة الحرس الساطاني
- (٢) وجاق الجاوشية . وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج
- (٣) وجاق الهجانة
- (٤) وجاق التفقجية . وهم ناقلو البنادق
- (٥) وجاق الانكشارية وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية وكانوا يعرفون ايضاً بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم
- (٦) وجاق العرب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من افراد يلقب لهم « وجاقية » واحدهم « وجاقلية » على كل وجاق منها ضابط يلقب بالآغا يصحبه الكخيا والباش اخنيار والدفتردار والخزندار والروزنمجي^(١) . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من

(١) تاريخ مصر الحديث ٦٧ ج ٢

سائر الوجاقات يتألف مجلس شوري الباشا فلا يقضي امرًا الا بمصادقتهم هذه خلاصة نظام الحكومة المصرية المركزي ولا ترى عدد الموظفين فيه يزيد على خمسين (ماعدا الجيش) فاذا اعتبرنا ما يلحقه من الكتاب والنواب وغيرهم ربما بلغ الى ٢٠٠ او قل ٣٠٠ او ٤٠٠ وهو يقابل في هذه الايام نظارات الحكومة ومجلس النظار والمعية ومصلحة الصحة والبوليس والسجون وسائر المصالح ما يربو عدد موظفيها على الفين كما يأتي

الموظفون في الحكومة المصرية الآن ثنتان الفئة الاولى العمال . وهم الذين يتولون اعمالها وادارة شؤونها ومنهم النظار ورؤساء المصالح ورؤساء الاقلام والكتاب والحساب . والفئة الثانية الخدمة ومنهم الفراشون والبايون ونحوهم . واليك عدد الموظفين من طبقة العمال فقط مرتبة باعتبار النظارات والمصالح والاقلام^(١)

عدد موظفي الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢ من طبقة العمال

عدد	١٠,٦٢٨	(مجموع ما قبله)
١,١٢١	٦,٦٤٤	مصاحبة البوليس
١٨	٥٢٦	» الصحة
٢٦	١٠٥	» السجون
٢٤	١٥	» منع الرقيق
٤١٩	٣٦	الدفترخانة
٤٢٤	٥١٠	الكمبارك
١٨٦	٢١٨	خفر السواحل
٢,٧٦٠	١٤٠	الدخوليات
٦٢٩	٤	مصايد الاسماك
٣,٣٠٦	١٣	الرسالة
١,٧١٥	١,٩٣٨	مصالح ادارة الاقاليم ومالياتها السكة الحديدية
١٠,٦٢٨ (المجموع)	٢٠,٧٧٧ (المجموع)	

(١) ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٩٠٢

٢١,٨٠٧ (مجموع ما قبله)	٢٠,٧٧٧ (مجموع ما قبله)
٣٠١ مكاتب تابعة للمعارف	٣٢٧ التلغرافات
١١ المكتبخانة الخديوية	٢٩ مينا الاسكندرية
٤ الانتكخانة	٥٥٠ البوسطة
١٤ المطبعة الاهلية	١٠٣ الفنارات
٩٠ املاك الميري الحرة والمشاركة	٦ اللجانات
٢٢٧ الكومسيون البلدى	١٥ التبعة للمصاغات
٢٢,٤٥٤ (الجملة)	٢١,٨٠٧ (المجموع)

فجملة موظفي الحكومة المصرية من العمال ٢٢,٤٥٤ فاذا اخرجنا منهم المصالح ذات الايراد اذ لا دخل لها في ادارة شؤون الحكومة وهي :

عدد	
١,٩٣٨	السكك الحديدية
٣٢٧	التلغرافات
٢٩	مينا الاسكندرية
٥٥٠	مصلحة البوسطة
١٠٣	الفنارات
٦	اللجانات
١٥	قلم التبعة

(الجملة) ٢,٩٦٨

ومصالح ادارة الاقاليم وعدد موظفيها ١,٧١٥ كان المجموع ٤,٦٨٣ وباخراجه من العدد الاصلي يبقى ١٧,٧٧١ وهو عدد موظفي الحكومة في نظاراتها ومصالحها ماعدا الجيش . فاعتبر الفرق العظيم بين هذا العدد وبين ما كان عليه في أيام الممالك وقس عليه عدد موظفي الحكومة في الدولة العباسية

على ان ذلك يتضح من مراجعة قائمة نفقات الدولة العباسية صفحة ٦٧

فانك ترى معظم اصحاب الرواتب هناك من الجند وخدمة البلاط والحرس الخاص والعلمان والحشم والفراشين واصحاب الصيد ونحوهم وليس من عمال الحكومة الحقيقيين الا جزءاً صغيراً وهم المعبر عنهم صفحة ٦٩ « باكاير الكتاب واصحاب الدواوين والخزان والبوابين الخ وعبد الله بن سليمان (الوزير) واسحق بن ابراهيم القاضي والفرسان ونفقات السجن والعلوفة » ونحو ذلك . ولا نطن نفقات الحكومة على مصالحها الحقيقية تزيد على نصف ذلك المال (اي ١,٢٥٠,٠٠٠ دينار) مع ان نفقات الحكومة المصرية الآن على مصالح الادارة والتحصيلات وحفظ النظام فقط تزيد على ٣,٢٥٠,٠٠٠ جنيه . وما مصر بالنظر الى المملكة العباسية الا جزءاً صغيراً . واما سبب هذه الزيادة فمن كثرة الموظفين لما اقتضاه النظام الحديث من الضبط والتحرير كما تقدم

على ان السبب في قلة نفقات الدولة العباسية من حيث الموظفين ليس قلة عددهم فقط ولكن هناك سبباً آخر ذا بال اعني تسديد ارزاق بعض العمال من مال يوفرونه ولا يدخل في باب الوارد . فقد رأيت صفحة ٦٩ ان ارزاق اكابر الكتاب واصحاب الدواوين والخزان الخ $\frac{2}{3}$ ١٥٦ دينار في اليوم غير ان هؤلاء ليسوا كل موظفي الدواوين بل هم الكبراء فقط . ويتضح ذلك من قوله هناك « سوى كتاب دواوين الاعطاء وخلائقهم على مجالس التفرقة واصحابهم واعوانهم وخزان بيت المال فانهم يأخذون ارزاقهم مما يوفرون من اموال الساقطين وغرم الخليلين بدوايهم » ويدل ذلك أيضاً على اختصار الحسابات مما لا يرتكبه في هذه الايام اصغر الباعة اذا اراد ضبط حسابه فضلاً عن دوائر الحكومة . فان اموال الساقطين وغرم الخليلين كان يجب ان تدون في ابواب الوارد وتدون رواتب أولئك الموظفين في باب النفقات . وعلى اننا نستبعد ان لا يكون لهذه القيود محل في دفاتر الحكومة العباسية وانها اسقطت من هذه القائمة حباً بالاخصار اولاً سباب اخرى

(٢) عدم وجود الدين على الحكومة

من ادران التمدن الحديث انغماس الحكومات الاوربية في الديون وما من دولة الا وهي مديونة بمال لا بد لها من تأدية فوائده او تسديد بعضه من دخلها كل عام . فهو عبء ثقيل على ماليتها وسبب كبير في قلة ما يفضل من دخلها مع كثرة أبواب الدخل عندها مما فرضته من الضرائب المختلفة التي لم تكن معروفة في الدولة العباسية او انها كانت خفيفة جداً . فقد تقدم صفحة ٧٢ ان دخل انكلترا ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه يجتمع نحو اربعة اخماسها من ضرائب اكثرها حديثة العهد وان نفقات الدولة تستغرقها كلها . فمن اسباب ذلك ان ربع هذا الدخل تقريباً يذهب في وفاء فائدة ما على هذه الدولة من الديون . ولولا ذلك لبقى في خزينة الحكومة الانكليزية كل عام حوالي ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه أي نحو ثروة الدولة العباسية كلها . وليست انكلترا وحدها غارقة في الديون فان معظم دول اوربا مثلها وان تفاوتت ديونها - وهالك ديون اشهر دول العالم في آخر القرن التاسع عشر بقطع النظر عن كسور المليون وقد رتبناها في الجدول الآتي باعتبار الاكثرية

(١) ديون اشهر دول العالم

جنيه	جنيه
فرنسا ١,٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠	٢,٧٠١,٠٠٠,٠٠٠
انكلترا ٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠,٠٠٠
روسيا ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠	٩٣,٠٠٠,٠٠٠
الولايات المتحدة ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠	٥٤,٠٠٠,٠٠٠
الدولة العثمانية ١٢٨,٠٠٠,٠٠٠	٤٨,٠٠٠,٠٠٠
النمسا ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠	٢٢,٠٠٠,٠٠٠
مصر ١٠٣,٠٠٠,٠٠٠	١٢,٠٠٠,٠٠٠
المجموع (٢,٧٠١,٠٠٠,٠٠٠)	٣,٠٣٠,٠٠٠,٠٠٠ (الجملة)

وقد تراكت هذه الديون على تلك الدول بتوالي الاجيال بما احتاجت اليه من النفقة في الحروب او في انشاء المشروعات الكبرى او نحو ذلك مما لم تكن الدولة العباسية في غنى عنه ولكنها كانت في أيام زهوها تنفق مما تذخره من فضلات الجباية كما تقدم . فلما قلت الجباية وكثرت أسباب النفقة في طور الانحطاط ولم يبق في بيت مالها ما تنفقه في الحروب عمدت الى استخراج الاموال من اهل الثروة وخصوصاً من كبار موظفيها كالوزراء والعمال والكتّاب الذين اتوا من مالها بالاختلاس ونحوه وسموا ذلك مصادرة كما سيأتي

على ان الدولة العباسية كانت في بعض الاحوال تستلف من بعض التجار اموالاً في مقابل اوراق لم يحل اجالها واكثر ما كانوا يفعلون ذلك مع اليهود وهم اقدر الناس على المرافاة كما لا يخفى — وبلغ مقدار الربا الذي كانوا يأخذونه على تلك السفليات نحو ٢٠ في المئة فقد كان علي بن عيسى وزير المقتدر في اوائل القرن الرابع للهجرة اذا احتاج الى المال وليس له وجه استلف من التجار على سفاتيج وردت من الاطراف ولم تحمل بعد . وكان مقدار ما يدفعه عليها من الربا دائق ونصف على كل دينار في الشهر فاذا استدان عشرة آلاف دينار بلغ رباها في الشهر ٢,٥٠٠ درهم . واشهر من كان يتعامل معهم من صيارف اليهود في بغداد رجل كان يعرف بيوسف بن فحّاس وهو من تجار الاهواز أيضاً وآخر اسمه هرون بن عمران او من قام مقامهما مدة ست عشرة سنة^(١) — غير ان ذلك لا يعد من قبيل الدين الاهلي الشائع في هذه الايام

(٣) اقتصاد الخلفاء الاولين وتديبرهم

من الامور المقررة في التاريخ السياسي ان مؤسسي الدول ومن يتلوهم من الامراء الاولين يغالب فيهم الاقتصاد والتديبر ولولا ذلك لم يثبات لهم انشاء الدول او تثبيت دعائمها ويعبر فلاسفة التاريخ عن ذلك بصبوة الدولة . والصبوة تدعو الى

النمو بالاذخار . فاذا بلغت الدولة شبابها وتم نموها عادت ناكسة على عقبها كما يتقهقر المرء الى الكهولة فالشيخوخة — فالدولة العباسية نشأت في حجر السفاح طفلة فتناولها المنصور صبية فغذاها وانماها حتى ادركت شبابها في ايام الرشيد والمأمون ثم تمتهرت الى الكهولة فالشيخوخة فالهرم في ايام الخلفاء التابعين

توفي السفاح وقد ملك اربع سنوات ولم يخلف سوى بعض الثياب ^(١) ولو كان طامعاً لجمع مالاً كثيراً لكثرة ما وقع له من غنائم بني امية فضلاً عن الجبايات وغيرها

وخلفه المنصور فتولاها بضعاً وعشر بن سنة اذخر في اثائها نحو ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ و ٨١٠ درهم كما تقدم . وكان لفرط حرصه متعماً بالبخل ولم يكن بخيلاً ولكنه كان لا يضع الكرم في غير موضعه — لم يكن يبذل المال الا اذا رأى في بذله منفعة في تأييد دولته . وفضل المنصور في تأييد الدولة العباسية بالحزم والشدة والعدل مثل فضل عمر بن الخطاب في تأييد الاسلام — يكفيك من دلائل اقتصاده وتدبيره وحسن نظره ما اوصى به ابنه المهدي عند وفاته . من ذلك قوله « قد جمعت لك من الاموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لارزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث . . . واياك ان تدخل النساء في امرك واياك والاثرة والتبذير لاموال الرعية واشتحن الثغور واضبط الاطراف وامن السبل العامة وادخل المرافق عليهم وادفع المكارة عنهم واعد الاموال واخزنها فان النوائب غير مأمونة وهي من شيم الزمان واعد الكراع والرجال والجند ما استطعت واياك وتأخير عمل اليوم الى الغد فيندارك عليك الامور وتضيع . . . واعد رجالاً في الليل لمعرفة ما يكون في النهار ورجالاً في النهار لمعرفة ما يكون في الليل وباشر الامور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل واستعمل حسن الظن وأسيئ الظن بعالمك وكتابتك وخذ نفسك بالتيقظ » ^(٢)

قضى المنصور مدة خلافته ولم يرَ في داره لهو ولا شيء يشبه اللهو أو اللعب أو العبث الا مرة وكان في مجلسه فسمع جليلة فامر حماداً التركي وكان واقفاً على رأسه ان يبحث عن سبب ذلك . فمضى فرأى خادماً من خدم المنصور قد جلس وحوله الجواري وهو يضرب لمن بالطنبور وهن يضحكن فعاد حماد واخبر المنصور فقال « وأي شيء هو الطنبور » فوصف له فقال « وما يدريك انت ما الطنبور » فقال « رأيته بجراسان » فقام المنصور ومشى الى الجواري فلما رأيته تفرقن خوفاً منه فامر بالخدام فضرب رأسه بالطنبور حتى تكسر الطنبور واخرج الخادم فباعه

وكان المنصور بخيلاً على نفسه باللباس فمرتدي بجمبة هروية ويرقع قميصه واذا استجداه احد بجمل الا اذا رأى الجود لازماً . فرجما سأله احداهم درهماً فلا يعطيه ويعطي الآخر ألفاً بلا سؤال . من امثلة ذلك ان احد معارفه القدماء لقيه بعد الخلافة وكان فقيراً فسأله المنصور « ما عيالك » قال « ثلاث بنات والمرأة خادم لمن » فقال له « انت ايسر العرب . أربع مغازل يدرن في بيتك » ولم يعطه شيئاً . ولما توفي عيسى بن نهيك سأل المنصور خادمه عما خلفه من المال فقال الخادم « خلف ألف دينار انفقته امرأتها على مائة » فقال « كم خلف من البنات » قال « ستاً » فاطرق المنصور ثم امر لكل من البنات بتلاثين ألف دينار وسمى في تزويجهن . وفرق المنصور في اهل بيته في يوم واحد ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم^(١)

ولما توفي المنصور خلفه ابنه المهدي وكان شبيهاً بابيه من عدة وجوه ومن جعلتها النظر في دقائق الامور . وفي ايامه ترتبت الدواوين وتنظمت ادارة الحكومة وتقررت القواعد على يد وزيره معاوية بن يسار^(٢) وكان يجلس للظالم بنفسه وكان ثقيلاً رعاً ولكنه لم يكن في مثل ما كان عليه ابوه من الاقتصاد . وتولى بعده الهادي زمناً قصيراً ثم الرشيد وكان تدير المملكة قدافضى الى الوزراء من آل برمك وقد انتسعت الارزاق وكثرت الاموال . وكان البرامكة اهل كرم

وسخاء فزادوا الخلفاء كرمًا وكانوا يجرضونهم على ذلك منذ صغرهم كما فعل يحيى البرمكي بالرشيد وكان يسايره يوماً فقام رجل فقال « يا أمير المؤمنين عطبت دابتي » فقال الرشيد « يعطى خمسمية درهم » فغمره يحيى . فلما نزل الرجل قال الرشيد ليحيى « يا أبتاه أومأت اليّ بشيء وقت ما أمرت بالدرهم فما هو » فقال « مثلك لا يجري هذا المقدار على لسانه إنما يذكر مثلك خمسة آلاف وعشرة آلاف الف » قال « فإذا سئلت مثل هذا كيف أقول » فقال « نقول يشتري له دابة يفعل به فعل نظرائه »^(١)

وكان الرشيد ميالاً للجود من فطرته فنشطه ذلك حتى صار إلى أبعد مما أرادوه واضطروا إلى إيقافه عند حده^(٢) . وأوغل الخلفاء بعد ذلك في البذخ والاسراف وهما من أسباب سقوط دولتهم على ما سيحيى

وجملة القول أن أسباب الثروة العباسية كثرة الدخل وقلة النفقة . وأسباب كثرة الدخل (١) سعة المملكة (٢) اشتغال الناس بالزراعة والتجارة لاطمئنان خواطهم (٣) ثقل الخراج المضروب على الأرض (٤) صدق العمال في إرسال المال المجموع إلى بغداد . وأسباب قلة النفقة (١) قلة الموظفين (٢) عدم وجود الدين (٣) اقتصاد الخلفاء الأولين



(١) سير الملوك ٧٨ (٢) الطبري ١٣٣٢ ج ٣

ثروة الدولة العباسية

في عصر الانحطاط

تمهيد - في اسباب ذلك الانحطاط

لكل دولة أدوارٌ شبيهة بأدوار الحياة من الطفولة الى الشيخوخة . فالدولة العباسية بلغت شبابها في أيام الرشيد وناماً موم وهو العصر العباسي الزاهر . ثم أخذت بعدها في الانحدار نحو الكهولة فالشيخوخة كما بلغت الدولة الاموية في الشام شبابها في أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد والدولة الاموية بالاندلس بلغت شبابها في أيام الخليفة الناصر وابنه الحكم . والدولة العثمانية بلغت ذلك الدور في أيام السلطان سليمان . وقس عليه

وقد قسم ابن خلدون ايام الدولة الى خمسة أطوار (١) الظفر (٢) الاستبداد (٣) الفراغ والدعة (٤) المسالمة والقنوع (٥) الاسراف والتبذير (٦) . وهو تقسيم اجمالي ربما لا ينطبق على أحوال الدول انطباقاً تاماً الا بانأويل . واما تقسيمها باعتبار العمر فانه صريح واضح . ويحسن بنا قبل التقدم الى الكلام عن الثروة العباسية في عصر الانحطاط ان نذكر أسباب ذلك الانحطاط مما يتعلق بموضوع هذا الكتاب فنقول :

﴿ العرب والفرس ﴾ علمت مما تقدم ان الدولة العباسية انما قامت بنصرة الفرس وخصوصاً أهل خراسان . وهؤلاء لم ينصروها الا انتقاماً لانفسهم من بني أمية لما كان من نصيبهم للعرب واحتقارهم سائر الامم الخاضعة لهم ولو كانوا مسلمين . فالعباسيون عرفوا للفرس فضاهم في ذلك فقرّبهم واستخدموهم في مصالح الدولة واتخذوا منهم الوزراء والعمال والكتاب وغيرهم . فضعف شأن العرب وصاروا

ينظرون الى الدولة نظر المخاذر المراقب ولا حيلة لهم في ارجاع نفوذهم . وبلغ
الفرس ارفع المنازل عند العباسيين في أيام البرامكة فزاد العرب عليهم وسعوا
في اسقاطهم رغم ما كان من جود البرامكة وكرم أخلاقهم - ولعلمهم كانوا يبالغون
في السخاء دفاعاً عن مركزهم . على انهم لم ينجوا من الحساد ممن ينتصرون للعرب
فوشوا بهم واتهموهم بالطمع في الملك حتى نكبهم الرشيد . ومن أشهر وشاتهم
الفضل بن الربيع وهو لم يكن عربياً ولكنه ينتسب الى العرب لاتصال نسبه بمولى
عثمان بن عفان^(١)

فلما نكب البرامكة ظن العرب انهم سيرجعون الى شوكتهم وسلطانهم . ثم
مات الرشيد واختلف ابناؤه الامين والمأمون على الخلافة والامين عربي الابوين
لان أمه زبيدة حفيدة المنصور . فأخذ أهل بغداد بناصره وفيهم جند العرب
(الحلبية) . وأما المأمون فأمه فارسية وكان في خراسان بين أخواله وشيعته^(٢)
فنصره الخراسانيون كما نصرُوا اجداده وانتهى الخلاف بمقتل الامين وفوز
المأمون فعاد النفوذ الى الفرس وعادوا الى امتحان العرب . فعظم ذلك على هؤلاء
وخصوصاً لما تولى الحسن بن سهل وهو فارسي مجوسي الاصل حديث العهد في الاسلام
فطعنوا في اسلامه وقالوا « لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي » وتمردوا على الحكومة
ولكنهم عادوا الى السكينة قهراً^(٣) وجاء المأمون الى بغداد واستتب الامر له ولنصرائه
واشتغل هو بالعلم والفلسفة فجزَّه ذلك الى القول بان القرآن مخلوق فازداد العرب
كرهاً له ولكنهم لم يستطيعوا رده

(الأتراك) فلما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ أفضت الخلافة الى أخيه المعتصم
بالله وكانت أمه تركية الاصل من بلاد السغد في تركستان^(٤) فشب محباً للأتراك
وكان قد أصبح لا يأمن الفرس على نفسه بعد ان قتلوا أخاه الامين وهي أول

(١) ابن خلكان ٤١٢ ج ١ (٢) ابن الاثير ٩٢ ج ٦

(٣) ابن الاثير ١٢٩ ج ٦ (٤) ابن الاثير ٢١٥ ج ٦

مظاهر جرائهم على الخلفاء . ولم يكن له من الجهة الاخرى ثقة في جند العرب لما يعلمه من ضعفهم بعد ما ساء بهم اياه العباسيون من الازلال . وزد على ذلك أن أخاه المأمون أوصاه عند دنو أجله بمحاربهم - فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب . وكانت الفتوح الاسلامية قد أدركت ما وراء النهر وكان العمال هناك يبعثون الهدايا الى بلاط الخلفاء وفي جملتها صيدان الاتراك والفراغنة فإن عليه اقتنائهم لانصال نسب أمه بهم . فاقبض منهم ألوفاً اشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أتاه على سبيل الهدية وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً^(١) فضاقت بهم بغداد وضجر البغداديون من سوء تصرفهم فأبقوا لهم مدينة سامراً واقامهم فيها^(٢) واطاق لهم الارزاق وجند منهم الجنود . ولا ريب انهم كانوا عوناً له في تأييد سلطانه والفوز في حروبه ضد اعدائه من الروم والترك ولكنهم كانوا من الجهة الاخرى سبيلاً الى تهقر الدولة العباسية بما كان من مطامعهم في الاموال واستئثارهم بالنفوذ حتى اصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها عرضة لاغراضهم

وكان المأمون عالماً حكماً وكل بطائنه وجلسائه من اهل الحكمة والعلم وكان مع ذلك رقيق الجانب يضرب المثل برقنه ودعته - قال يحيى بن اكرم : ماشيتُ المأمون يوماً من الايام في بستان مؤنسة بنت المهدي فكنت من الجانب الذي يستره من الشمس فلما انتهى الى آخره واراد الرجوع اردت ان ادور الى الجانب الذي يستره من الشمس فقال « لا تفعل ولكن كن بحالك حتى استرك كما سترتني » فقلت « يا أمير المؤمنين لو قدرت ان اريك حر النار لفعلت فكيف الشمس » فقال « ليس هذا من كرم الصحبة » ومشى سائراً لي من الشمس كما سترته^(٣) وقال يحيى ايضاً « كنت نائماً عند المأمون فغطش فامتنع ان يصيح بغلام يسقيه وانا نائم فينص عليّ نومي فرأيتُه وقد قام يمشي على اطراف اصابعه حتى اتى موضع الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان نحو من ثلثمائة خطوة

(١) القرطبي ١٥٧ (٢) اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٢

(٣) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١

فأخذ منها كوزاً فشرّب ثم رجع يمشي على اطراف اصابعه حتى قرب من الفراش الذي انا عليه فخطا خطوات خائف لئلا يذهبي حتى صار الى فراشه «
وبالغ المأمون بملاطفة حاشيته ورجال دولته حتى طمع خدمه فيه واستخفوا به . قال عبد الله بن طاهر «كنت عند المأمون يوماً فنادى بالخادم يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادى ثانياً وصاح يا غلام فدخل غلام تركي وهو يقول « ما يذبني للغلام ان يأكل ولا يشرب ؟ كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام الى كم يا غلام ؟ » فنكس المأمون رأسه طويلاً فما شككت أن يأمرني بضرب عنقه ثم نظر اليّ فقال : يا عبدالله ان الرجل اذا حسنت اخلاقه ساءت اخلاق خدمه واذا ساءت اخلاقه حسنت اخلاق خدمه وانا لا نستطيع أن نسيء اخلاقنا لنحسن اخلاق خدمنا »^(١)

تلك كانت مناقب المأمون من اللطف والدعة والحلم مع العلم والادب والفضل وسعة الصدر . فخلفه المعتصم وكان عارياً من العلم يقرأ قراءة ضعيفة^(٢) وكان غضوباً شديد النعمة^(٣) . منصرف الهمّة الى ركوب الخيل واللعب بالصوالجة^(٤) وساعده على ذلك قوة بدنه فقد كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات^(٥) . فرأى رجال الدولة فرقاً بعيداً بينه وبين اخيه فلم يخلصوا له فازداد هو رغبة في اتراكه وفراغته . وكان مع ذلك على رأي اخيه المأمون من قبيل القول بخلق القرآن فاستخدم العنف والشدة في تأييده حتى انه احضر احمد بن حنبل الامام الشهير وسأله عن رأيه في القرآن فلم يجب الى القول بخلق فامر به فجلد جلدًا عظيماً حتى غاب عقله وقطع جلده وحبس مقيداً^(٦) فزاد نفور عامة المسلمين منه وخصوصاً العرب وهو لا يكثر بذلك وانما كان معتمده على جنده الاتراك وهم حديثو العهد في الاسلام وفي التمدن الاسلامي لانهم جاؤوا من بلاد كانت

(١) المستطرف ٩٦ ج ١ (٢) القرماني ١٥٥ (٣) ابو الفداء ٣٧ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٢١٦ ج ٦ (٥) الفخري ٢٠٩ (٦) ابن الاثير ١٨١ ج ٦

لا تزال في عهد الجاهلية وكانوا حجرة عثرة في طريق ذلك التمدن ففسدت النيات واضطربت الاحوال وابتدأت الدولة بالنهقر من ذلك الحين ﴿ المال ﴾ وكانت غاية المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين تأييد الاسلام ونشره ورفع شأن العرب . فلما طلب الامويون الخلافة احتاجوا الى المال فبدلوا كل وسيلة في سبيل جمعه وقلت الرغبة في تأييد قواعد الدين ولكنهم ظلوا على تعصبهم للعرب وزادوا عليه احقارهم سائر الامم . فكان مطمح انظارهم « العرب والمال » فلما تولى العباسيون اهملوا امر العرب واستبدلوه بنصرة الاسلام على الاطلاق وانصرفوا في ايام زهومهم الى الاشتغال بالعلم والفلسفة والتجارة وغيرها من عوامل التمدن واستعانوا على ذلك بالفرس وكانوا عريقين في المدينة قبل الفتح الاسلامي وفيهم استعداد فطري للتمدن فضلاً عن ان تأييد الدولة العباسية يعود بالعمران على بلادهم لان مركز الخلافة فيها . فإخلصوا الخدمة فعمرت البلاد ونضجت الثروة وتدفقت ينابيعها ففاضت الاموال في خزائن الخلفاء ورجال دولتهم فاسرفوا وبذخوا وانغمسوا في الرخاء والرغد والترف حتى بلغوا قمة المجد في ايام الرشيد والمأمون . فلما كانت ايام المعتصم واستكثر من المالك الاتراك كما تقدم واستخدمهم في مصالح الدولة انحصرت غاية رجال الدولة في اختزان الاموال لانفسهم ولو آل ذلك الى خراب البلاد لانها ليست ببلادهم ولا اهلها اهلهم . وانما كان همهم حشد الاموال وحملها الى بلادهم^(١) وضعف الخلفاء عن رد شكيمتهم فطمع فيهم العمال والوزراء واستبدوا وصاروا يتسابقون الى الاستئثار بالاموال . فتحولت ثروة الدولة العباسية من الخليفة وبيت المال الى الوزراء والعمال والكتّاب والقواد ونحوهم . فاضطر الخلفاء في اصلاح شؤونهم واستيقاظ سلطانهم الى الجند والجند يتطلبون الاموال والاموال عند الوزراء والعمال والكتّاب فعمد الخلفاء الى مصادرة هؤلاء اي اخذ اموالهم بالقوة . والمصادرة تحتاج الى الرجال وهم لا يعملون عملاً الاّ بالمال

فأصبح المال محور القوة لحفظ كيان الدولة وعليه معول الخلفاء في تثبيت يديهم ومخاربة أعدائهم والدفاع عن حياتهم حتى في داخل قصورهم . وامتحت الحمية القرشية التي قضت على عيسى بن مصعب بن الزبير ان يخالف أباه مصعباً في أثناء محاربتة عبد الملك بن مروان سنة ٧١ هـ ويسلم نفسه للقتل حياً من قريش — وكان مصعب قد يش من البقاء . وهو يدافع عن حق أخيه عبدالله في الخلافة فجاءه محمد بن مروان فبذل له الامان اذا سلم فأبى ولكنه عرض ابنه عيسى على التسليم لحفظ حياته فاجابه الغلام « لا نتحدث نساء قريش اني خذلتك ورغبت بنفسي عنك » فقال له مصعب « اذهب انت ومن معك الى عمك في مكة فاخبره بما صنع اهل العراق ودعني فاني مقتول » فقال الغلام « لا اخبر عنك قريشاً ابداً ولكن يا أباي الحق بالبصرة فانهم على الطاعة او الحق بأبى المؤمنين » فقال مصعب « لا نتحدث قريش اني فررت » ثم قال لابنه « نقدم اني احسبك » فنقدم وقتلوا حتى قتلوا جميعاً ^(١)

ثم ان ثروة الدولة تتبع حال الدولة من العسر واليسر . فلما كانت الدولة العباسية في أبان عمارتها على عهد الرشيد والمأمون كانت الثروة على معظمها فيها ثم أخذت بالتقهقر بغتة من أيام المعتصم — ويتضح ذلك جلياً من مقابلة مجاميع القوائم الثلاث المتقدم ذكرها وأقدمها أكثرها وهي :

- ١ قائمة ابن خلدون من سنة ٢٠٤ الى ٢١٠ هـ ارتفاعها ٣٩٦,١٥٥,٠٠٠ درهم
- ٢ « قدامة » حوالي ٢٢٥ « » ٣٨٨,٢٩١,٣٥٠ « »
- ٣ « ابن خرداذبه » « ٢٥٠ » « ٢٩٩,٢٥٦,٣٤٠ « »

فترى ان ارتفاع الدولة كان في أول القرن الثالث نحو ٤٠٠ مليون درهم ماعدا الاموال والغلات . ثم صار في الربع الاول من القرن المذكور ٣٨٨ مليون بدون غلات ثم صار في أواسط ذلك القرن اقل من ٣٠٠ مليون . فاعتبر هذا التدرج في

النقص الى اواخر ايام الدولة . على اننا لا نستطيع اثبات ذلك صريحاً في كل العصور لقلة المصادر التي بلغت الينا في هذا الشأن اما لعدم عناية الحكومة في تدوين الميزانيات المضبوطة او لضياعها في اثناء الفتن الاهلية وغيرها

مقدار الجباية في عصر الانحطاط

واذا نظرنا في ما كان يجمع بيت المال من بقايا الجباية على توالي الاعوام رأيناه لا يقاس بما كان يبقى فيه على عهد الخلفاء الاولين . على انهم كانوا اذا توفق لهم خليفة حكيم يقصد فيجمع شيئاً خلفه من يسرف فيضيعه . ومن أمثالهم المأثورة ان ما جمعه السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد انفقته الامين (سنة ١٩٣ - ١٩٨) وما جمعه المأمون والمعتمد والواثق انفقته المنوكل (سنة ٢٣٢ - ٢٤٧) وما جمعه المنتصر والمستعين والمعز والمهتدي والمعتمد والمعتمد والمكنتي انفقته المقتدر (سنة ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)

اما مقدار الجباية في العام فلم تتوفق الى تفصيل لها الا في أيام المقتدر اذ اضطر وزيره علي بن عيسى لتبرئة نفسه مما لحق بيت المال من العجز ان يرفع تقريراً بما كان من مقدار الدخل والخرج لعام ٣٠٦ هـ . وكانت نسخة هذا التقرير ضائعة حتى اظهرها البارون فون كرايم ونشرها في كتاب سماه جباية الدولة العباسية^(١) لسنة ٣٠٦ وصدره بمقدمة المانية ذكر فيها كيفية عثوره على تلك النسخة وما عاناه في قراءتها لانها مكتوبة بخط عربي غير مألوف كما ترى في الشكل المقابل . وأبدى ملاحظاته على تلك القائمة مما يطول شرحه فنكتفي بذكرها كما قرأها هو

والقائمة المذكورة عبارة عن أربعة أقسام : الاول في جباية السواد ولمحققاته . والثاني في جباية المشرق أي البلاد الواقعة شرقي السواد . والثالث جباية المغرب اي البلاد الواقعة غربي السواد . والرابع جباية الاموال الخاصة والموقوفة

جباية الدولة العباسية لسنة ٣٠٦ هـ

وهي قائمة علي بن عيسى وزير المقتدر — كما قرأها فون كريم

١ — جباية السواد

حرف عن السواد والاعمال المعمورة والبلاد المذكورة

دينار } اموال السواد وطسايجه وصدقات اراضي المغرب
 ١,٥٤٧,٧٣٤ } بالبصرة والمراكب بها وسائر ما ينسب اليها ويجري معها
 (تفصيلها)

باذوريا وكلواذي ونهر بين ١٦٦,٢٨٣ درهم

الانبار وقطر بل وسد ١٩٨,٣١٣

هرسير والرومقان وايفار يقطين وجازر والمدينة العتيقة ٧٥,٥٧٦

كوئي ونهر درقيط ٢٥,٠٠٠

الزاب الاعلى ونهر كشتاسب ٩,٥٢٦

الفلوجة العليا والارحاء ١٦,٧٣٦

الفلوجة السفلى والنهرين وعين التمر ١٣,٥٨٥

السيب الاعلى وسورا وبابل وخطرنية وباروسما الاعلى ١٤٠,٢٥٩

نهر الملك ومورجا ونهر جوبر والاساسان والمالكيات ٣٨,٣٥٠

باروسما الاسفل ٤٦,٣٣٦

طسايجه الكوفة والحزن ١١٠,١٥٤

العمارت بسر من راي ٥٠,٢١٩

نهر بوق والدير الاسفل ٢٠,٥٩٠

بزر جسابور ٢٤,٣٠٠

الراذامان ٣٠,٠٣٥

روستقباد ١٣,٦٦٦

النهر وان الاعلى وسمنطاي ٤٦,٤٨٠

(المجموع) ٨٥٩,١٢٥

(مجموع ما قبله)	٨٥٩,١٢٥
النهر وان الاوسط	٤٠,٣٢٧
النهر وان الاسفل	٦٠,٥٣٢
الصالح والمنازل	١٥٩,٠٨٩
بادرايا وباكسايا	٤٢,٤٩٩
واسط مع الخاصة والمستحدثة والعباسية بعد النفقات الراتبية	٣١٠,٧٢٠
البصرة وكور دجلة	١٢١,٠٩٥
المراكب بالبصرة	٢٢,٥٧٥
اموال الضمانات وما يؤدى عن نصول الانهار مما ينسب الى مفردات العبارة بهيت	٨٠,٢٥٠
اسواق الغنم بمدينة السلام وسر من راى وواسط والبصرة والكوفة	١٦,٩٧٥
دور الضرب بمدينة السلام وسر من راى وواسط والبصرة والكوفة	٦٠,٣٧٠
الجوالي بمدينة السلام	١٦,٠٠٠
ما يؤدى الى الحضرة عن مال الارثفاقات والشجر والمقاطعات	١٣,٨٧٤
(المجموع) ^(١)	١,٨٤٦,١٨١

٢ - جباية المشرق

كور الاهواز ضمناً على ابراهيم بن عبد الله المسيع وغيره	١,٢٦٠,٩٢٢
(اموال فارس مع ما يسوغه مونس الخادم مع ما في ايدي اصحاب الاطراف مما اورد نقلاً فقط)	١,٦٣٤,٥٢٠
ضياع الامراء بهذه النواحي مع مال المراكب بسيراف	٢٥٨,٠٤٠
كرمان مع ضياع الامراء سوى مال العهد والورث وقرى	} ٣٦٤,٣٨٠
المقازاة وما يسوغه مونس الخادم عن مال الخزن والجهدة	
مقاطعة عمان سوى اللطف المحمول الى الحضرة	٨٠,٠٠٠
(المجموع)	٣,٥٩٧,٨٦٢

(١) ترى فرقاً بين هذا المجموع والمجمل المذكور في اول القائمة لعل سببه خطأ في قراءة الاعداد في الاصل وسنعمد على المجمل الاول

(مجموع ما قبله)		٣,٥٩٧,٨٦٢
ارتفاع الخراج والضيايع العامة بالمشرق على العقد		
والارتفاع بالامانة والضمانة ١,٥٧٠,٥٢٥		
{ الخراج والاعشار والاختاس بالري والدماء وندم مع ما فيه مما استخرجه ابن داودان واحمد بن علي	٤٦٥,٠٧٨	
	الضيايع بها	١٢٢,٦٤٤
قزوين وزنجان وابهر		
الخراج	١١٥,٧١٠	
الضيايع	٥٨,٢٩٠	
قم		
الخراج	١٩٧,٢٢٩	
الضيايع	٨٠,٢٢٩	
اصفهان		
{ الخراج على العقد المحددة مع خراج الاكراد وما يقل من الايفار وضيايع السلطان	٤١٠,١٧٨	
	الضيايع بها	١٨٩,٣٣٤
ماه البصرة والايفارين		
الخراج	١٨٥,٦٣٦	
الضيايع	٢٦٧,٥٢٠	
همدان		
الخراج	١٥٠,٤٨٠	
الضيايع	٥٥,٧٨٩	
ما سبذان		
الخراج	٥٧,٧٤٦	
الضيايع	١٦,٧٥٠	
ساوة ودار السرب بها	١٧,٦٢٥	٢,٣٩٠,٢٣٨
(المجموع)		٥,٩٨٨,١٠٠

		٥,٩٨٨,١٠٠ (مجموع ما قبله)	
} ماء الكوفة بالخراج سوى الضياع الراسية والمستحقة والطعم		١٠٥,٦٧٨	
		الضياع بها ٨٩,٥٠٠	
حلوان عن الخراج والضياع ٣٠,٠١٥		٢٢٥,١٩٣	
آذربيجان وأرمينية على المعارف التي فورق عليها سبيل السعر		٢٢٦,٣٧٠	
		٦,٤٣٩,٦٦٣ (المجموع)	

٣ — جباية المغرب

حرف الضياع والخراج العامة بالمغرب واجناده بعد الاحتسابات التي وضعها من أصول الارتفاع كما هو جار في العادات وسوى مقاطعة وثمان اجناس الغنائم مع ما فورق اهل (جزيرة قبرس) على ادائه في كل سنة والاعمال المذكورة والاموال المسماة

يكون

ما يتعلق بالمغرب واجناده

٤,٧٤٦,٤٩٢

تفصيله

مصر والاسكندرية بعد الاحتسابات القديمة	٢٩٠,٧٧٣
{ وسوى مصادرة الماذرائيين ومال المرافق والتجارة الواردة واثمان الغنائم	١,٠٨٠,٠٠٠
جند فلسطين بعد الاحتسابات	
مال	٨٠,٧٥٠
	٢٣٠,٦٤٧
جند الاردن بعد الاحتسابات	
مال	٤٠,٤٦٠
(المجموع)	١,٧٢٢,٦٣٠

مجموع ما قبله (	١,٧٢٢,٦٣٠	
	١٠٢,٠٦٢	
جند دمشق بعد الاحسابات		
مال	١١٣,٠٥٧	
	٣١٥,٣٠٠	
جند حص بعد الاحسابات		
مال	٢٠٠,٤٦٠	
	١١٥,١١٤	
جند قنبر بن والعواصم بعد الاحسابات		
مال	١٣٣,٠٩٧	
	٣٥٢,٥٧٠	
دلولك ورعبان	١٥,٧٦٥	
الثغور الشامية سوى صاح احمد ابن الحسين الكاتب	٥٢,٩٨٥	
شمشاط وحصن منصور وكيسوم بعد الموضوع	٥,٣٩٧	
مال		
	٦٥,٣٣٢	
سميساط وملطية بعد الاحسابات		
مال	١٤,٥٠١	
	٣٤,١٢٠	
آمد سوى ما جمع في اقطاع وكاسه وبعد الاحسابات		
مال	٥,٤٧٨	
	٨٢,٤٢٢	
ارزن وميافارقين بعد الاحسابات		
مال	٥٦,٧٥٠	
	٨٢,٤٢٢	
(المجموع)	٣,٤٦٨,٤٦٢	

٣,٤٦٨,٤٦٢ (مجموع ما قبله)

ديار مضر

٢٥٧,٢٢٥

ديار ربيعة بعد الاحتسابات

٢٢,٧٩٧ مال

٣٠٤,٠٩٣

الموصل ومردين وبهذرا والرساتيق الحيلية بعد الاحتسابات

١٧,٧٥٠ مال

٤٩٢,٤٣٠

٩٦,٥٨٤ طريق الفرات

٤,٦٥٩,٣٤١ (المجموع ^(١))

٤ — جباية الاموال الخاصة

يكون اموال الاعمال المسماة و اموال الخاصة

والاموال المنوقوفة وغير ذلك

٢٨٩,٠٣٦ الضبايع المستحدثة بعد الذي جرى في ضمان واسط اسوة حال الخاصة

اموال الخاصة سوى ما كان منها بنواحي واسط فانه اضيف الى اموال العامة وخالط بها ودخل في حمولها ونفقاتها	٥١٦,٢٤٧
--	---------

١٨٥,٤١١ العبر

١١٦,١٢٠ الاهوار

٧٢,٦٦٦ المشرق

١٠٤,٧٠٠ المغرب

١٨,٧٧٨ هيت واعمالها سوى ضبايع السكر

٨,٢٤٠ العبر ٥٨,٤٥٠ المغرب

٥,٢٦٢ الاهوار ٦٢,٢٠٠ المشرق

٨٢٤,٢٦١ (المجموع)

(١) ترى فرقاً بين هذا المجموع والمجموع المذكور في اعلاه وسنعمد على ذلك

	٨٢٤,٢٦١ (مجموع ما قبله)
مال الضياع العباسية سوى ما هو بنواحي واسط	١٤٤,٧٦٠
العبر	١٤,٧٣٢
الاهوار	١٤,٢٤٦
المشرق	٣٠,٦٧٢
المغرب	٧٥,١١٦
مال الموقوف للمساجد سوى ما كان منها بواسطة	٤,٥٧٠
الشرق	٢٢,٨٦٩
المغرب	١٢,٧٦٠
مال الضياع الفراتية	٦١٧,١٢٦
العبر	١٧٠,٣٢٦
الاهوار	١٢٩,٧٢٤
فارس	٩٧,٣٣٦
المشرق	٩٥,٢٧٨
المغرب	١١٤,٢٢٥
مال الضياع المفردة في سنة ثلث وثلثمائة	١٠٠,٣١٨
مال الحزن والجهنم سوى ما يجمعه العالم مع اصول الاموال وسوى	٧٦,٩٨٠
ماسوغه مونس الخادم منها بفارس وسوى ما دخل منها في ضمان واسط	
	١,٧٦٨,٠١٥ (المجموع)

الخلاصة

حباية السواد	١,٥٤٧,٧٣٤
» المشرق	٦,٤٣٩,٦٦٣
» المغرب	٤,٧٤٦,٤٩٢
» الاموال الخاصة	١,٧٦٨,٠١٥

دنانير ١٤,٥٠١,٩٠٤

نسبة هذه الحياة الى ما كانت عليه في العصر العباسي الاول

فمجموع هذه الحياة اكثر من ١٤ مليوناً ونصف مليون من الدنانير واذا تحولت الى دراهم بلغت نحو حياة العصر العباسي الاول . غير ان الحال في هذه الحياة غير ما كانت عليه في ذلك العصر . لان هذا المجموع لم يف بالنفقات اللازمة للدولة . وكانت النفقات قد تضاعفت لاسباب سيأتي بيانها . ومن ادلة ذلك ما جاء في عنوان السير عن نفقات الدولة على عهد علي بن عيسى وقد ذكرها المؤلف المذكور بنوع خاص غير النفقات الاعتيادية وهي :

دينار

نفقات الحرهين وطريقهما	٣١٥,٤٢٦ $\frac{1}{f}$
» الثغور	٤٩١,٤٥٦
رواتب القضاة في الممالك	٥٦,٥٦٩
رواتب ولاية الحسبة والمظالم في جميع البلاد	٣٤,٤٣٩
» اصحاب البرد	٧٩,٤٠٢

$\frac{1}{f}$ ٩٧٧,٢٩٢

وكل هذه الابواب لم يكن لها ذكر في قائمة المعتضد — ناهيك بزيادة الجند وغيره من اسباب النفقة بحيث زاد الخراج على الدخل في ايام علي المذكور ٢٠,٨٩,٨٩٤ ديناراً^(١)

وقس على ذلك احوال بيت المال قبل المقتدر وبعده مما يختلف باختلاف الخلفاء والوزراء وسائر الاحوال . ولكن يقال بالاجمال ان الثروة تدهورت بعد المأمون بتهقر الدولة وانحطت بانحطاطها . والثروة كما قدمنا ما يفيض من الدخل على الخرج ولذلك قلما كان يبقى في بيت المال بقية الا في احوال خصوصية وبمبالغ صغيرة

(١) عنوان السير نقله كريمة في كتاب Ein. Abbasiden

فالمعتصم ترك في بيت ماله ٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(١) والمستعين (سنة ٢٥١) خلف في بيت المال ٥٠٠,٠٠٠ دينار^(٢) والمكتفي (سنة ٢٩٥ هـ) خلف ١٥,٠٠٠,٠٠٠ دينار والظاهر انها اجتمعت بتوالي الخلفاء فلما تولى المقتدر انفقها كلها وأنفق ما جمعه في أيامه من أموال المصادرة فضلاً عن الخراج^(٣) حتى قدروا ما أنفقه ضياعاً وتبذيراً بنيف و ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار^(٤) ماعدا نفقات الدولة واضطر مع ذلك لاسترضاء الجند والعلدان للخلافة ان يبيع ضياعه وفرشه وآنية الذهب^(٥) . وبلغ من فقر بيت المال في أيام المطيع لله سنة ٣٦١ هـ انه باع ثيابه وانقاض داره ليدفع ٤٠٠,٠٠٠ درهم طلبت منه للجند في أثناء الفتنه ببغداد^(٦) . وكانت أحوال الخلفاء قد تغيرت في أيام الرازي بالله سنة ٣٢٢ وخرجت قيادة الامور من أيديهم ولم يبق لهم غير الخطبة والسكة^(٧)

ولانحطاط الثروة العباسية أسباب توضح كثيراً مما جاء في جريدة علي بن عيسى من أسماء بعض الضرائب غير المألوفة



- | | |
|------------------------------------|------------------------|
| (١) الفخري ٢٠٩ | (٢) الطبري ١٥٤٥ ج ٣ |
| (٣) ابن الاثير ج ٨ | (٤) ابن الاثير ٩٠ ج ٨ |
| (٥) صلة تاريخ الطبري ١٤٤ | (٦) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ |
| (٧) الفخري ٢٥٢ وابن الاثير ١٤٢ ج ٨ | |

اسباب انحطاط الثروة العباسية

في العصر العباسي الثاني

قلنا في بحثنا عن الثروة العباسية في العصر العباسي الاول وعلة كثرتها ان اسباب تلك الثروة كثرة الجباية وقلة النفقة وفصلنا ذلك تفصيلاً . فاسباب قلة الثروة يجب ان تكون قلة الجباية وكثرة النفقة ولكل من هذين البابين فروع لكل منها اسباب هاك تفصيلها :

اسباب قلة الجباية

(١) ضيق المملكة العباسية

بلغت المملكة العباسية اكبر سمعتها في ايام الرشيد والمأمون ثم اخذت بعض الولايات تنفصل عنها لاسباب يطول شرحها . واول ما استقل من الولايات العباسية افرقية بدأت بالاستقلال في ايام الرشيد كما تقدم . ثم خراسان في ايام المأمون ثم مصر في ايام المعتمد في أواسط القرن الثالث للهجرة ثم فارس وما وراء النهر وغيرها . ولم يمض الربع الاول من القرن الرابع حتى انقسمت تلك المملكة الواسعة الى بضعة عشر قسماً كل منها في حوزة دولة من دول المسلمين^(١) . على ان معظم هذه الدول كانت تعد الخليفة العباسي رئيسها الديني وتؤدي اليه الاموال بعضها باسم الضمان والبعض الآخر باسم المصالحاة والآخر باسم الهدية او غير ذلك . وكان اكثرهم لا يؤدي ما عليه الا مرة كل بضعة أعوام . وطبيعي ان نشأت المملكة على هذه الصورة يقلل مقدار الجباية

(٢) تخفيض الخراج المضروب

ذكرنا من أسباب زيادة الثروة العباسية في أيام زهوها ثقل الضرائب وخصوصاً في العراق اذ كانت مقاسمة على النصف الى أيام المأمون . فأدرك هذا الخليفة الماقل ثقل هذا الخراج ورأى الثروة فائضة في بيت ماله والاموال متوفرة فعمد الى التخفيف عن الناس فجعل خراج العراق 'خمسین' ^(١) اي انه انقصه عشرين في المئة وهو اسقاط عظيم وقد ظهر فرق ذلك في ارتفاع جباية العراق حالاً اذ كان في قائمة قدامة ١١٤,٤٥٧,٦٥٠ درهماً فصار في قائمة ابن خرداذبه ٧٨,٣١٩,٣٤٠ درهماً لان الاول قدّمه على ما يظهر باعتبار النصف والثاني باعتبار الخمسين

واقعدى بالمأمون في تخفيض الضرائب من جاء بعده من الخلفاء فأبطل الواثق سنة ٢٣٢ هـ اعشار السفن ^(٢) وقد رأيت انها ضريبة ذات بال كان يرد منها الى بيت المال شيء كثير . واقعدى بالواثق خلفه المتوكل فافرق بأهل الخراج بتأخير ميقات اقتضائه شهرين . وسبب ذلك ان الفرس قبل الاسلام كانوا يبدأون بجباية الخراج في النوروز وهو يقع عندهم في الخامس من حزيران (يونيو) وكانوا يكبسون في كل مائة وعشرين سنة شهراً بحيث يرجع النوروز الى الخامس من حزيران . فاذا مضت ١٢٠ سنة اسقطوا شهراً فيجعلون الخامس من حزيران الخامس من ايار (مايو) ولا يعيدون النوروز او يطالبون بالخراج الا بعد شهر أي حتى يأتي الخامس من حزيران . فلما فتح المسلمون العراق وفارس ظل الحساب في جباية الخراج على ما كان عليه قبل الاسلام حتى تمت المائة والعشرون وكان ذلك في ولاية خالد القسري على العراق فاراد الفرس ان يسقطوا شهراً على جاري عاداتهم فنهام خالد وقال « هذا من النسيء الذي نهى الله عنه »

(١) الفخري ١٩٨ وابن الاثير ١٤٧ ج ٦ والطبري ١٠٣٩ ج ٣

(٢) الطبري ١٣٦٣ ج ٣

واستشار الخليفة هشام بن عبد الملك في ذلك فوافقه على ابطال الكبس . فظل الحساب الجاري منقداً شهراً عن الحساب الحقيقي الذي تنضج فيه الغلات وظل الفرس يحاولون العود الى الكبس فلم يتم لهم . ولما كانت خلافة الرشيد طلبوا الى يحيى بن خالد ان يتوسط لدى الخليفة بشأن ذلك فأراد يحيى ان يجيب طلبتهم فتقول أعداؤه في ميله الى الزرداشية فمدل عن عزمه . وما زال ذلك الفرق يتعاضم بتوالي الاعوام حتى صار في أيام المتوكل يقع في نيسان (ابريل) والزرع أخضر . واتفق ان المتوكل مرّ ببستان فرأى الزرع أخضر فقال لرفيق له « مالي أرى الدواوين تطلب الخراج والزرع لم ينضج » فقص عليه السبب فأمر ان يضاف الى تلك السنة ما كان تأخر فاذا هو شهران وبضعة أيام حتى يصير النوروز في الوقت اللازم . فأصدر أمره بذلك سنة ٢٤٣ هـ ففرح الناس^(١) لانه رفع عنهم من خراج تلك السنة نحو الخمس فقال البحتري في ذلك :

ان يوم النوروز عاد الى العهـ د الذي كان سنه اردشير

ولكن أمر المتوكل لم ينفذ تماماً لانه قتل بعد قليل واضطربت أحوال الخلافة حتى اذا كانت أيام المعتضد بالله روجع في ذلك فأصدر أمره آخر سنة ٢٨١ هـ بتأخير النوروز ستين يوماً وكان قد وافق اوائل المحرم سنة ٢٨٢ هـ فأمر ان يكون في ١٣ ربيع أول منها . وجعلوه موافقاً ١١ حزيران (يونيو) وان يكبس بعد ذلك في كل أربع سنين من سني الفرس يوم واحد .^(٢) فعل ذلك ترفيحاً للناس ورقفاً بهم^(٣)

وكان المهدي (٢٥٥ هـ) قد أمر باسقاط الكسور عما بقي من الزرع على المساحة - وذلك ان المنصور لما جعل خراج العراق مقسمة كما تقدم ابقى بعضه على اسم الخراج القديم بالمساحة وكان ينكسر على أصحابه شيء كل عام والحكومة

(١) البيروني ٣١ (٢) المقرئ ٢٧٣ ج ١

(٣) ابن الاثير ١٨٦ ج ٧

تطالب به فلما تولى المهدي أمر باسقاط الكسور وغض النظر عن أمثالها ومقدار ذلك نحو ١٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة^(١)

فترى من مجمل ذلك ان موارد الخراج ضعفت عما كانت عليه في عصر الرشيد والمأمون وكان ذلك مساعداً على تقليل الجباية

﴿ الجزية والزكاة ﴾ ومن هذا القبيل ما أصاب الجزية من النقص بدخول الناس في الاسلام بتوالي الاعوام حتى انحط مقدار ما يجبي منها بمدينة السلام في أواسط القرن الثالث للهجرة الى ١٣٠,٠٠٠ درهم^(٢) وقد رأيت في قائمة علي بن عيسى انهم جبوها ١٦,٠٠٠ دينار أي نحو ضعفي ما ذكره ابن خردادبه ومع ذلك فاذا اعتبرنا تقديرها على أوسط قيمتها وهي ٢٤ درهماً على الشخص كان عدد الرجال نحو ٩,٠٠٠ وبإضافة ما يلحقهم من النساء والاولاد لا يزيد عددهم على ٤٠,٠٠٠ نفس من أهل الذمة في مدينة بغداد من النصارى واليهود وهي في أبان مجدها وسكانها يزيدون على المليون . فقس على ذلك سائر المدن ويقال نحو ذلك أيضاً في الزكاة فقد تناقصت بتوالي الاعوام حتى كادت تلاشى وأصبحت المطالبة بها تدعو الى التذمر^(٣) وكانت قد أبطلت في مصر حتى أعادها السلطان صلاح الدين الايوبي . وتذمر المسلمون منها وشنعوا على الذي يطالب بها حتى اذا تولى المنصور قلاوون سنة ٦٧٨ هـ أبطل الزكاة من مصر^(٤)

(٣) استثمار العمال بالحياة

قد رأيت استبعاد العمال في عصر بني أمية واستثمارهم بالخراج وكيف تحسنت احوالهم في عصر العباسيين . غير ان ذلك التمسك لم يدم طويلاً فلما ضعف شأن الخلفاء عاد العمال الى ما تطمح اليه انظارهم من طلب الاستقلال

(١) الماوردي ٧٧ (٢) ابن خردادبه ١٢٥

(٣) ابن الاثير ٨٢ ج ٨ (٤) المقرئ ١٠٦, ١٠٨ ج ١

بالحكم أو الاستشارة بالجباية واضطر الخلفاء الى التراضي معهم على مال مضمون وان يكن أقل مما يجبي وهو الضمان أو المناطة — كما قاطع المأمون بشر بن داود على السند سنة ٢٠٥ هـ على ان يدفع له ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم في العام^(١) مع ان ارتفاع جبايتها الحقيقي ١١,٥٠٠,٠٠٠ درهم^(٢) وضمن البريدي الاهواز على أيام الراضي كل سنة ٣٦٠,٠٠٠ دينار على ان يدفعها اقساطاً^(٣) وخارجها الحقيقي يزيد على أربعة اضعاف هذا المبلغ . ومع ذلك فالضامنون لم يكونوا يدفعون الا قليلاً مما تهمدوا به . فاذا الح الخليفة عليهم في المطالبة اتخذوا الحاحه ذريعة الى الاستقلال التام فيستعبد الخليفة جفده ونصرتهم تحتاج الى المال ومن تمكن من المال ملك واستبد

(٤) اشغال الناس بالفتن والظلم عن العمل

لما نشأت الفتن وانتشبت الحروب بين طوائف الجند او بينهم وبين العمال انشغل الناس عن تجارتهم وزراعتهم وتوقف العمال وغلت الاسعار وتعطلت لزراعة لضياح الأمن قفلت الجباية واحتاج العمال والقواد الى الاموال فظلموا الناس في تحصيلها منهم فزاد الخراب — وما من هادم للعمران كالظلم فانه يفل الأيدي ويقعد الناس عن السعي فينشغل به الزارع عن زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته ووبال ذلك عاند على الدولة اذ لا قوام لها الا بالرية . والمشهور ان الظلم أخذ المال من يد ماله بلا عوض ولا سبب ولكنه أعم من ذلك كثيرًا فان كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه . فجباة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والممانون لحقوق الناس ظلمة وغصاب الاملاك على العموم ظلمة — فاذا ساد الظلم أقبل الخراب لا محالة

(٢) ابن خلدون ١٥٠ ج ١

(١) ابن الاثير ١٤٩ ج ٦

(٣) ابن الاثير ١٢٦ ج ٨

ومما زاد البلاء جسامه ان اكثر ما احتفروه الخلفاء المصلحون في أوائل الدولة العباسية من اترع والانهر لري لارض وتسهيل الاستغلال انسدت بالحروب . لان الحار بين كثيرًا ما كانوا يضطرون الى سد الانهر لينعوا سفن الاعداء من المرور فيها^(١) فضلاً عما يدعو اليه اهمال العمال من فساد الري وضياع الزرع



(٥) تحويل أكثر البلاد الى ضياع

يراد بالضياع عندهم المزارع او ما يعبر عنه المصريون بالابعادية او العزبة . ويذاب في الضياع ان تكون لاهل الدولة من الخلفاء أو أقرابهم أو عمالهم أو وزراءهم أو كتابهم أو من يلود بهم من أهل النفوذ وقد رأيت صفحة ١١ من هذا الجزء ان عمر بن الخطاب نهى المسلمين عن اتخاذ الزرع واقتناء الضياع لحكمة أرادها من بقائهم على أهبة الرحيل عند الاقتضاء لا يقعدهم الترف أو القصف كما نهى عن اختزان المال في بيت المال . غير ان هاتين القاعدتين لم يطل العمل بهما الا ريثما انتقلت الدولة الاسلامية من الخلافة الدينية الى الملك الموض في أيام بني أمية فاخترن الصحابة الاموال واتخذوا المصانع والضياع كما يبناه هناك . واقتدى بهم من جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين وكان أقدمهم على ذلك الخلفاء من بني أمية فقد أكثروا من المصانع والضياع حتى كان بعض أهلهم يقبضها اغصاباً من أصحابها وليس من ينصفهم لتعصب بني أمية للعرب واحتقارهم سائر الامم ولا اعتبارهم ما فتحوه من الارض ملكاً حلالاً لهم فما ارادوا اخذه اخذوه وما ارادوا تركه تركوه^(٢) حتى افضت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز فعمل على الاقضاء بعمر بن الخطاب بالرفق والاحسان مع العدل وامر باسترجاع الضياع المعتصبة الى اهلها من النصارى او اليهود او المجوس فساء ذلك اهلهم ففعلوا به

(١) ابن الاثير ١٨١ ج ٦ و ٢٢٦ ج ٨

(٢) المقرئ ١٧٧ ج ١ والاغانى ٣٠ ج ١١

وعادت الأحوال بعده الى اشد مما كانت عليه كما تقدم فلما افضت الخلافة الى بني العباس سنة ١٣٢ اعملوا السيف في بني أمية ففروا وتركوا اموالهم وضياعهم فاستولى عليها العباسيون ولم يعدوا امتلاكها مخالفاً لشروط الخلافة لاعتبارهم ذلك لازماً لحياطة الدولة او حقاً من حقوق الملك اذ ليس من اوامر الدين او نواهيه ما يمنعه من ذلك صريحاً . والانسان ميال من فطرته الى الاستكثار من حطام الدنيا واختزان القوة اذا وجد الى ذلك سبيلاً . فالخلفاء العباسيون في اوائل دولتهم بذلوا الجهد في انصاف الناس وتأمينهم ليعينوا لهم الفرق بين حالهم في ايام بني أمية وفي ايامهم فلم يكونوا يغتصبون ضيعة ولا مالاً ولكن بعض الذين دخلوا في خدمتهم او انضموا اليهم من الامراء او الكبراء كانوا يمدون ايديهم الى ضياع الناس وكان الخلفاء ينصفون أصحاب الضياع اذا ظلموا ويردون ضياعهم اليهم^(١) على ان ذلك قلما كان يقلل من مطاعم اهل الدولة في اموال الناس فاستكثر العمال والوزراء وغيرهم من اقتناء الضياع والابنية بحق او بلا حق والخلفاء يمنعونهم جهد الطاقة فاذا لم يتمكنوا من منعهم بالحسنى صادروهم او قبضوا اموالهم بعد موتهم . كما فعل الرشيد بأموال محمد بن سليمان عامله على البصرة وكان مبلغها ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات وكانت غلته ١٠٠,٠٠٠ درهم في اليوم^(٢) وامثال هذا القبض كثيرة ناهيك بالمصادرات التي سيأتي تفصيلها . فالضياع التي تقبض على هذه الصورة تصير الى الخليفة او الدولة فآل ذلك الى استكثار الخلفاء انفسهم من الضياع

على ان اكثر ما يكون اقتناء الضياع لحاشية الخليفة واهله . وذلك طبعي في الحكومات الاستبدادية وخصوصاً اذا كان الحاكم كريم الخلق او ضعيفاً تؤثر عليه وساطة اهله ورجال حاشيته . ولذلك كثرت الضياع عند رجال الدولة حتى صاروا يتهاونها او ينعمون بها على الناس جائزة على قصيدة او خطاب او نكتة او غير

(١) الماوردي ٨٧ (٢) المسعودي ١٨٨ ج ٢

ذلك . وفي اخبار البرامكة كثير من امثال هذه العطايا . ومن هذا القبيل ما فعله الحسن بن سهل لما زفت ابنته بوران الى المامون فانه كتب ضياعه في رقاع اسم كل ضيعة في رقعة ونثرها على القواد فمن وقع له رقعة اخذ الضيعة المسماة فيها^(١) وكان من ابواب اقتناء الضياع عندهم - حتى في صدر الدولة العباسية - كثرة ما كان من الارضين الموهلة من عهد بني امية . فيأمر الخليفة بعض اهله او خاصته بتعميرها وغرسها ثم تصير له - كما فعل المنصور بابنه صالح اذ امره بهارة بعض المزارع العاطلة في الاهواز^(٢) - ومن احيا ارضا مواتا فهي له

(الالغاء) ومن اسباب كثرة الضياع عند اهل الخلفاء ورجال الدولة الجلاء الاهالي ضياعهم ومغارسهم الى بعض اقارب الخلفاء او العمال تعززا بهم من جباة الخراج . فكان صاحب الارض يلتجئ الى بعض اولئك الكبراء فيستأذنه ان يكتب ضيعته او ضياعه باسمه فلا يتجرا الجباة على العنف او الظلم في اقتضاء خراجها بل هم قد يكتفون منهم بنصف الخراج او رבעه مراعاة لذلك الكبير . ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعاً له ويدون ذلك في دفاتر الحكومة . فتصبح تلك الضيعة بتوالي الاعوام ملكاً للجلاء اليه^(٣) ويصبح صاحبها الاصلي شريكاً في غنائها . ومثل هذا الجلاء يحدث في كل العصور في البلاد التي يخاف اهلها سطوة الحكام واستبدادهم

وقد بدأ الجلاء في الاسلام بايام بني امية لما كان من ظلم عمالهم . فألجأ اهل السواد في ولاية مسلمة بن عبد الملك وخلافة اخيه الوليد ضياعهم الى مسلمة المذكور تعززا به من جباة الخراج . ثم صارت تلك الضياع له وبقيت في اعقابها حتى قامت الدولة العباسية فقبض الخلفاء العباسيون عليها في جملة ما قبضوه من اموال بني امية وضياعهم . وأقطعت هذه الضياع لداود بن علي بن عبد الله بن

(١) ابو الفداء ٣١ ج ٢ (٢) الفخري ١٥٧

(٣) ابن الفقيه ٢٨٢ وابن خلدون ٣٠٨ ج ١

عباس ثم صارت من الضياع السلطانية ^(١) وكذلك فعل بعض اهل المراغة في اذربيجان مع مروان بن محمد لما تولى ارمينيا فانهم الجأوا تلك الضيعة اليه فقبضت في جملة ما قبض من ضياعهم ^(٢)

وامتد الاجاء الى أيام بني العباس بالاستمرار فألجا اهل زنجان ضياعهم الى القاسم بن الرشيد ثقباً اليه ودفعاً لمكروه الصعاليك عنهم . فكتبوا له الاشربة وصاروا مزارعين له ثم صارت تلك الارض من الضياع السلطانية ^(٣) وحدث نحو ذلك أيضاً في فارس فقد كان فيها ضياع الجأها اربابها الى الكبراء من حاشية السلطان بالعراق وظلت تجري بأسمائهم فحفف عنهم الربع وبقيت اجيالاً وهي في ايدي اهلها باسماء هؤلاء يتبايعونها ويتوارثونها ^(٤) وأصبح اهلها مزارعين لهم .

ولم ينقض عصر الزهو العباسي حتى أصبح في حوزة الخلفاء وأقاربهم ورجال دولتهم مالا يحصى عدده من الضياع واضطرت الحكومة الى انشاء ديوان خاص بخراجها وعشورها سموه ديوان الضياع وهو غير ديوان الخراج . وقد رأيت مقدار خراج الضياع في مادونه علي بن عيسى في جريدة سنة ٣٠٦ وكها في بلاد المشرق في الري ودماوند وقزوین وزنجان وقم واصهبان وهمدان ومانسندان وغيرها . وترى خراج الضياع في بعض الممالك يزيد على خراج الارضين الاخرى . فخراج الضياع في ماه البصرة والايقارين مثلاً ٢٦٧,٥٢٠ ديناراً وخراج سائر الارض هناك ١٨٥,٦٣٦ ديناراً . ولو عوملت الضياع في مقدار الخراج وطرق تحصيله مثل معاملة الارضين الاخرى لزاد خراجها اضعاف ذلك . لان خراج تلك الضياع كان خفيفاً جداً بالنظر الى غيره وكثيراً ما كان يترك ولا يطالب به اعواماً على مقنضى احوال السياسة وعلاقة ذلك بالعمال والخلفاء وربما تراكم الخراج عدة اعوام حتى تتغير السياسة ويأتي من يطالب به ^(٥)

(١) قدامة ٢٤١ (٢) ابن الفقيه ٢٨٤ (٣) ابن الفقيه ٢٨٢

(٤) الاصطخري ١٥٨ (٥) ابن الاثير ١٨٢ ج ٧

﴿ الضياع السلطانية ﴾

وكانت الضياع بالاجمال قسمين : الضياع العامة وهي ضياع رجال الدولة وأرباب الثروة من الاهلين وغيرهم . والضياع السلطانية وهذه اقسامٌ سميت بأسماء تدل على انواعها وهي :

(١) الضياع الخاصة : وهي ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيه احد . وقد رأيت خراج هذه الضياع في جريدة علي بن عيسى (غير ما كان منها في نواحي واسط لانه أضيف الى أموال العامة) ٥١٦,٤٤٧ ديناراً

(٢) الضياع العباسية : وهي في الغالب لبني العباس اهل الخليفة وقد بلغ عددهم في أيام المأمون ٣٣,٠٠٠ نفس ^(١) وبلغ خراج تلك الضياع سنة ٣٠٦ هـ ١٤٤,٧٦٠ ديناراً سوى ما هو منها في واسط

(٣) الضياع المستحدثة : قدر رأيت خراجها في تلك السنة ٢٨٩,٠٣٦ ديناراً

(٤) الضياع الفراتية : وسميت بذلك لانها واقعة على ضفاف الفرات وخراجها لذلك العام ٦١٧,١٢٦ ديناراً

وكانت هذه الضياع من سواد بغداد والكوفة والبصرة وواسط والاهواز واصبهان ^(٢) يضمونها احياناً بأموال معينة في العام ^(٣) ولها دواوين وكتاب وعمال فالضياع على اجمالها قليلة الخراج مع انها أخصب الارضين لان الخلفاء وعمالهم كانوا يقضون عن كثير من الاموال المطلوبة منهم ^(٤) وقد يتركونها لهم ومع ذلك فقد رأيت خراج الضياع السلطانية يزيد على مليون ونصف غير ما هو منها في واسط وغيرها مما يدل على كثرة تلك الضياع وسعتها . والظاهر ان ذلك طبيعي في الدول المطلقة في تلك العصور فقد ذكرنا صفحة ٦٥ ان جباية الدولة العثمانية بلغت في أيام السلطان سليمان ٨,٠٠٠,٠٠٠ دوكلات منها ٥,٠٠٠,٠٠٠

(١) ابو الفداء ٢٤ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٤٣ ج ٨

(٣) ابن الاثير ٦٨ ج ٨ (٤) Ein. Abb. 80.

من الضياع السلطانية وحدها^(١)

﴿الايغار﴾ وكان عندهم ضرب من استهلاك الخراج اسمه «ايغار» ومعناه في الاصل «استيفاء» فيقولون «أوغر العامل الخراج اي استوفاه» ثم استخدموها بمعنى الاعفاء من الخراج بما لم يدفعه صاحب الارض مرة واحدة ولذلك قالوا «أوغر الملك الرجل الارض جعلها له من غير خراج» او هو أن يؤدي الخراج الى السلطان الا كبر فراراً من العمل ويسمى ضمان الخراج ايغاراً^(٢) فكان اصحاب الضياع يستوغرون ضياعهم اذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً . ومن الايغارات المشهورة في الدولة العباسية «ايغار يقطين» وأصلها ان رجلاً اسمه يقطين اوغرت له ضياع من عدة الطساسيج ثم صار ذلك الى السلطان فنسب الى ايغار يقطين^(٣)

اسباب كثرة النفقات

(١) اسراف الخلفاء ونسائهم

من الامور الطبيعية في العمران اذا كثرت الاموال في الدولة ان يسخو الملوك في بذلها وخصوصاً في الدولة المطلقة وعلى الاخص في الدولة العباسية والحنيفة مطلق التصرف في بيت المال^(٤) ودعاة الخلافة كثيرون لا يقعد فتنهم غير استرضاء الاحزاب بالمال او كسر شوكتهم بالحرب والاول اسلم عاقبة وأقرب مثلاً اذا توفرت الاموال وقد رأيناها متوفرة خصوصاً في عصر الرشيد والمأمون . فلا غرو اذا رأيناها يبدلان الاموال في اسنكفاف الاذى عن الدولة او سد أفواه أهل الفتن . لكنهم تجاوزوا ذلك الى صنوف البذخ وضروب التبذير والترف فاقتنوا الجواري واتخذوا الفرش من الخز والديباج والحرير والمسامير الفضة^(٥)

(١) Porter's Const. Hist. of Turkey MS. (٢) محيط المحيط

(٣) قدامة ٢٤١ (٤) الماوردي ٢٠٣ (٥) اعلام الناس ٩٨

وابتذوا المنزهات والقصور والمدن واقتنوا الندماء وانشأوا مجالس الغناء وارتركبوا سائر ضروب الترف والتأنق بالطعام واللباس والرياش . وقد سهل عليهم ذلك لقرب عهد العراق وفارس من بذخ الفرس قبيل الفتح الاسلامي ^(١) واطلقوا أيدي نسائهم وأمهاتهم وخاصتهم في الاموال

(ثروة نساء الخلفاء) لم يتزوج السفاح الا امرأة واحدة ^(٢) . وقبل ان يثوى المنصور اوصى ابنه المهدي ان لا يشرك النساء في أمره ^(٣) ومع ذلك فان الخيزران ام الرشيد كانت هي صاحبة الامر والنهي في ايام الهادي واياه وكان وزيره يحيى تحت امرها ^(٤) فافضى نفوذها الى حشد الاموال لنفسها حتى بلغت غلتها في العام ١٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ^(٥) وذلك نحو نصف خراج المملوكة العباسية لذلك العهد . وغلة اعظم متبولى العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال . فقد ذكروا ان ايراد روكفار الغني الاميركي الشهير نحو ١٠,٥٠٠,٠٠٠ جنيه في السنة وغلة الخيزران اكثر من ١٠,٥٠٠,٠٠٠ دينار . وقد بينا في غير هذا المكان ان قيمة النقود كانت تساوي ثلاثة اضعافها اليوم والدينار نصف جنيه فتكون غلة روكفار نحو ثلثي غلة الخيزران

وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة رغبة في الاستئثار فلما آتست في ابنها الهادي معارضة لارادتها دست اليه من قتله ^(٦) ولما مات توسع الرشيد باموالها واقطع الناس ضياعها ^(٧)

على ان الخيزران كانت من اهل العلم والرأي فلا غرابة في اقتنائها الاموال في ابان الثروة العباسية انما الغرابة في اقناء أمهات الخلفاء الاموال الكثيرة في عصر الانحطاط وبيت المال فارغ . فان قبيحة ام المعز وجدوا لها من مخبآت

(١) ابن الاثير ٢٥٤ ج ٢ (٢) اعلام الناس ٤٥

(٣) ابن الاثير ٨ ج ٦ (٤) ابن الاثير ٤٠ ج ٦

(٥) المسعودي ١٨٨ ج ٢ (٦) ابن الاثير ٤٠ ج ٦

(٧) سير الملوك ٨٥

في الدهاليز ونحوها نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار نقداً وما لا تقدر قيمته من التحف والجواهر مما نأتي بذكره على سبيل المثال : من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الثمين ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها للقتل من أجل ٥٠,٠٠٠ دينار^(١)

وأغرب من ذلك شأن ام محمد بن الواثق فقد كانت غلتها ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار^(٢) في العام تنفقها في جواربها وهي نحو غلة الخيزران . وأخرجوا من تربة والدة المقتدر ٦٠٠,٠٠٠ دينار كانت مخبأة هناك ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة وفراغ بيت ماله^(٣) وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام . فقد كن يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الاموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهن من اطلاق الايدي في أمور الدولة كما فعل المستعين العباسي (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والدته ويد اتمامش وشاهك الخادم في بيوت الاموال وابعاهم فعل ما أرادوا . فكانت الاموال التي ترد من الآفاق يصير معظمها الى هؤلاء الثلاثة^(٤)

فلا عجب والحالة هذه اذا تحولت النفي الى النساء والخدم والقواد . وهل تستغرب بعد ذلك اذا علمت انه كان بين رياش ام المستعين بساط انفقت على صنعه ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار (ربما درهم) فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور أجسامها من الذهب وعيونها من الجواهر ؟^(٥) او اذا قيل لك ان فلانة حشت فم الشاعر الفلاني درهماً فباعه بمشرين الف دينار^(٦) او اذا سمعت بهدياً قطر الندى وغيرها من نساء الخلفاء ؟^(٧)

(١) الطبري ١٧١٩ ج ٣

(٢) الطبري ١٧٢٠ ج ٣

(٣) ابن الاثير ٧ ج ٧

(٤) ابن الاثير ٤٧ ج ٧

(٥) المستطرف ١٣٤ ج ١

(٦) ابن خلكان ١٩٩ ج ١

(٧) المستطرف ٤٦ ج ٢

ناهيك بما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من القهرمانات اللواتي كنَّ
 يشوئن شؤون دور الخلفاء والنفقة عليها بالاتفاق مع الوزير او من ينوب عنه^(١)
 وكان لهؤلاء النساء نفوذ عظيم في قصور الخلفاء وفي اعمال الدولة - كما كانت
 تفعل ام موسى القهرمانة في ايام المقتدر في اوائل القرن الرابع للهجرة^(٢) ولم يكن
 لاولئك القهرمانات سبيل الاتفاق لولا ما في قصور الخلفاء من الجواري والخدم وغيرهم
 (الجواري والغلمان) وقد رايت في ما ذكرناه من مناقب المنصور صفحة
 ١٠٤ انه لما علم بوجود الطنبور في داره كسره على حامله . ولكن لم يمض على موته
 اربعون سنة حتى اصبحت دور الخلفاء مرسخاً للفناء والاهو - قالوا انه كان في قصر
 الرشيد ثمانية جارية ما بين جنكية الى عودية الى دفية الى قانونية الى زامرة الى
 مغنية الى راقصة الى سنطيرة فضلاً عن كان في قصره من الندماء والمضاحكين
 كالشيخ ابي الحسن الخاليع الدمشقي^(٣) وابن ابي مريم المدني^(٤) وغيرها . وما من
 جارية الا وثمها الف دينار او عشرة آلاف دينار^(٥) الى مئة الف دينار غير ما يقتضيه
 اقتضاؤهن من العفقات الاخرى كاللبسة والحلى وهي شيء كثير . فقد اشترى الرشيد
 خاتمة بمئة الف دينار^(٦) وقس على ذلك

ناهيك بما كانوا يقتنونه من المالك والغلمان مما يعدون بالمئات والالوف فقد
 بلغ عدد خدم المقتدر ١١,٠٠٠ خصي من الروم والسودان^(٧) غير ما يقتضيه
 ذلك من الابنية والقصور والرياش . فقد بنى المعز داراً في بغداد أنفق عليها
 ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٨) وبنى الامين قصوراً في الخيزرانية أنفق عليها
 ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم^(٩) واصطنع في دجلة خمس حراقات (سفن) احداها على

(١) ابن الاثير ٣٧ ج ٨ (٢) ابن الاثير ٢٤ ج ٨

(٣) اعلام الناس ٩٧ (٤) الطبري ٧٤٣ ج ٣

(٥) ترتيب الدول ١٢٦ (٦) ابن الاثير ٤٤ ج ٦

(٧) الفخري ٢٣٤ (٨) ابن الاثير ٢١١ ج ٨

(٩) ابن الاثير ١١٢ ج ٦

صورة الاسد واثانية بصورة الفيل واثالثة بصورة العقاب والرابعة بصورة الحية والخامسة بصورة الفرس انفق عليها مالا عظيماً وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للامين مطايا لم تسخر اصحاب المحراب
فاذا ما ركابه سرن برّاً سار في الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس اذ رأوك على صوة رة ليث تمزّ مرّ السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناح بين تشق العباب بعد العباب
نسب الطير في السماء اذا ما استعجلوها بجيئة وذهب

وما يحسن ايراده مثلاً على بذخهم ان الامين المذكور أمر يوماً ان يفرش له على دكان في الخلد ففرش عليها بساط ذرعي وغارق وفرش مثله وهي من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم وأمر قيمة جواريه ان تهيّ له مئة جارية صانعة فتصعد اليه عشراً عشراً بأيديهن العيدان يغنن بصوت واحد ^(١) ففعلت وسنأتي على تفصيل بذخ الخلفاء وطرق أسرافهم في الجزء المتعلق بالهيئة الاجتماعية من هذا الكتاب

﴿ السخاء ﴾ على ان الاسراف كان اكثره في ما يبدلونه كرمًا وسخاء ومنه ما ينفق يومياً فرضاً واجباً . فقد كان الرشيد يتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم بعد زكاته ^(٢) وكان المأمون ينفق على خاصته كل يوم ٦,٠٠٠ درهم ^(٣) فاعتبر مقدار ذلك في السنة فيزيد على ٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم . وليس هذا بالشيء الذي يذكر بجانب ما كانوا يهبونه من الجوائز ونحوها . فقد فرق المنصور في يوم واحد ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم على أهل بيته ^(٤) وفرق المأمون في يوم واحد ١,٥٠٠,٠٠٠ درهم على ثلاثة أشخاص ^(٥) . وقد رأيت صفحة ٩١ انه فرق ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ورجله في الركاب . وأوصى الرشيد المأمون بمبلغ ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠

(١) ابن الاثير ١٢٠ ج ٦ (٢) الطبري ٧٤٠ ج ٣

(٣) الفخري ٢٠٧ (٤) ابن الاثير ١٣ ج ٦ (٥) ابن الاثير ١٦٧ ج ٦

درهم . وتصدق المعتصم في أثناء خلافته بما مجموعه ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ^(١) وبلغ ما أنفقته المقتدر ضياعاً مآخلاً الارزاق ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ^(٢) — فضلاً عن جوائزهم للوافدين من الشعراء وغيرهم وربما بلغت جائزة الشاعر مئة ألف درهم . وذكروا جوائز كثيرة بنحو هذه القيمة أو أكثر . وروى ابن خلكان عن سالم الشاعر المعروف بالخاسر انه نظم قصيدة مدح فيها المهدي وحلف انه لا يأخذ قيمتها الا مئة ألف ألف درهم (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠) فأعطاه اياها — وفي ذلك مبالغة ظاهرة لكنها تدل على مبلغ ذلك السخاء ^(٣) وكثيراً ما كانوا يهبون الشعراء الضياع فضلاً عن الاموال ^(٤)

هل كانوا يفعلون ذلك حقيقة ؟

فهذا وأمثاله يحسبه أهل هذا الزمان من قبيل الخرافات بالقياس على ما يعلمونه من القواعد الاقتصادية . على اننا لانظهم يقولون ذلك بعد ماتبين لهم من مقدار الثروة العباسية ومقدار ما كان يبقی من الاموال تحت تصرف الخلفاء او من يقوم مقامهم كالوزراء والكتّاب — الا اذا شككنا في حقيقة تلك الثروة وهو شك في التاريخ على اجماله . لان المؤرخين على اختلاف عصورهم ومواطنهم متفقون على ما بيناه من هذا القبيل كما رأيت . ثم اذا اعتبرنا نظام الهيئة الاجتماعية في تلك الايام على ما سنفصله في الاجزاء التالية من تأثير الشعراء ونحوهم في مركز الخليفة نفسه هان علينا تصديق ما كانوا ينالونه من الهبات الكبرى . على اننا نعرف بين أغنيائنا اليوم من يبدل ٥٠,٠٠٠ جنيه و ١٠٠,٠٠٠ جنيه ثمن صورة او قطعة من الآثار القديمة لا تنفع ولا تضر . وقرأنا بالامس ان مورغن المئري الامريكي الشهير اشترى صوراً بليون جنيه ليقدمها هدية لبعض المتاحف وزد على ذلك اننا نستدل على صحة ما تقدم أيضاً من سياق بعض الوقائع

(١) الطبري ١٣٢٩ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

(٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ (٤) الطبري ١٤٦٨ ج ٣

المروية من هذا القبيل . مثل حديث المؤمل عن قدومه على المهدي وهو ولي عهد قال : قدمتُ على المهدي في الري وهو ولي عهد فأمر لي بعشرين ألف درهم لآليات امتدحته بها فكتب اليه المنصور (ابوه) يمزله ويلومه ويقول له « انما كان ينبغي لك ان تعطي الشاعر بعد ان يقيم بياك سنةً اربعة آلاف درهم » — الى ان قال — وبعث المنصور يستقدمني اليه حتى جئت ودخلت عليه فقال « هيه اتيت غلاماً غراً فخذ عنه » فقلت « نعم اصلح الله امير المؤمنين أتيت غلاماً غراً كرمياً خدعه فأنخدع » فقال المنصور « انشدني ماقلت فيه » فأشده (ثم ذكر القصيدة ومطلعها :

هو المهدي الا ان فيه مشابه صورة القمر المنير)

فقال « والله لقد أحسنت ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم » وقال « اين المال » قلت « ها هوذا » قال « ياربع انزل معه فاعطه أربعة آلاف درهم وخذ منه الباقي » فخرج الربيع لخط ثقلي ووزن لي أربعة آلاف درهم وأخذ الباقي ^(١) . فترى من هذه الحكاية انهم كانوا يقدرون الشعر بألاف الدراهم هل كان الخلفاء يسرفون من أموالهم الخاصة ؟

بقي علينا النظر في ما كان الخلفاء يهبونه من الجوائز ونحوها هل كانوا يؤدونه من أموالهم الخاصة ام من بيت مال الحكومة المعبر عنه ببيت مال المسلمين ؟ وهو موضوع مبهم لم نجد فيه قولاً صريحاً . على ان سكوت المؤرخين عنه يرجح انهم كانوا يدفعون ذلك من بيت المال — ولا جناح فيه عليهم لان الامام عندهم هو ولي بيت المال ينفقه في ما يرى فيه مصلحة المسلمين حسب اجتهاده وقد يرى في اجازة الشاعر او هبة العالم فائدة للدولة

على اننا رأينا ذكر بيت مال الخاصة في ايام الهادي ويظهر من سياق بعض الحوادث التي وقعت للخلفاء انهم كانوا اذا امروا لشاعر او غيره بمال انما يريدون

ان يدفع له من بيت مال المسلمين وان الوزراء كثيراً ما كانوا يتذمرون من ذلك الاسراف ولا ينفذون امر الخليفة في الصرف كما وقع لعيسى بن دأب مع الهادي - وذلك ان عيسى المذكور كان من اكثر اهل الحجاز ادباً واعذبهم الفاظاً وكان قد حظي عند الهادي حظوة لم تكن لاحد قبله . فأمر له مرة بثلاثين الف دينار في دفعة واحدة . فلما اصبح ابن دأب ارسل قهرمانه الى الحاجب في قبضها فقال الحاجب « هذا ليس الي » فانطلق الى صاحب التوقيع والى الديوان « فعاد الى ابن داب فاخبره فقال « اتركها » . فبينما الهادي في مستشرف له ببغداد رأى ابن دأب وليس معه الا غلام واحد فاستدعاه . فلما وقف بين يديه قال له الهادي « أرى ثوبك غسلاً وهذا شئنا يحتاج فيه الى الجديد » فقال « باعي قصير » فقال « وكيف وقد صرفنا اليك . افيه صلاح شأنك » فقال « ما وصل الي » « فدعا الهادي صاحب بيت مال الخاصة فقال « عجل الساعة ثلاثين الف دينار » فاحضرت وحملت بين يديه ^(١) - فيظهر من سياق هذه الحكاية ان الخليفة أراد ان يدفع اليه المال من بيت المال العام فلما لم يدفعا له امر بدفعه من بيت ماله الخاص

ومن هذا القبيل ما اتفق ليحيى بن خالد اذ أمره الرشيد ان يدفع ثمن تلك الجارية ٠٠ ١٠٠ دينار واستكثر يحيى المال واعذر عن دفعه فغضب الرشيد فأراد يحيى ان يبين له مقدار ما يتحمله بيت المال من هذا الاسراف في ما لا مصلحة للدولة فيه فجعل ذلك المال دراهم فبلغت نحو ١٥٠٠٠٠٠ درهم فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد اذا اراد الوضوء فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ولما أخبروه انه ثمن الجارية ادرك اسرافه ولكنه شعر بما في ذلك من الجرأة عليه ومحاوله غل يديه فحفظ ذلك في نفسه . ويقال انه كان من جملة ما حمله على نكبة البرامكة ^(٢)

واتفق نحو ذلك للواتن بالله مع وزيره ابن الزيات في ثمن جارية فلما

مطل الوزير بالدفع أمره ان يدفع ضعفين ففعل^(١)
وفي كتاب أبي سفيان اشوري الى الرشيد جواباً على كتاب استدعاء به الى
بغداد ما يشبه كلام أبي ذر الغفاري لمعاوية ويدل على ان الرشيد كان يهب
ويجز من بيت مال المسلمين . وذلك ان الرشيد دعاه بكتاب بعث اليه في
الكوفة وأخبره ان الناس قدموا اليه وانه فتح بيوت الاموال واعطاهم من المواهب
السنية النخ . فأجابه ابو سفيان بكتاب شديد اللهجة وفي جملة ذلك قوله « أما
بعد فاني كتبت اليك اعلمك اني صرمت حبلك وقطعت ودك وانك قد جعلتني
شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك انك هجمت على بيت مال
المسلمين فانفقته في غير حقه وافذته بغير حكمه . ولم ترض بما فعلته وأنت زاط عني
حتى كتبت اليّ تشهدني على نفسك . فاما انا فاني قد شهدت عليك انا واخواني
الذين حضروا كتابك وسنؤدي الشهادة غدأ بين يدي الله الحكم العدل .
ياهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم . . . هل رضي بفعلك المؤلعة
قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل . . ؟
ام رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم (يعني العاملين) ؟ ام رضي بفعلك الايتام
والارامل ام رضي بذلك خلق من رعيك . . ؟ »^(٢)
فهذا وأمثاله يدل على ان الخلفاء كانوا يهبون ويجزون ويبذخون ويسرفون
من بيت المال

(٢) تكثر ابواب النفقة في الدولة

بيناً في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٨٣ كيف تدرجت الدولة الاسلامية
في مصالحها منذ كان النبي هو الامير والوزير والقاضي والقائد حتى أصبح موظفو
الحكومة في أيام الراشدين ستة وما كان من تزايدهم بتزايد الحضارة واتساع

المملكة في أيام بني أمية فبني العباس . وكانت تلك المصالح تُشكّثر عندهم بتكاثر الثروة وميل الخلفاء ورجال دولتهم الى الترف والرخاء . فاصبحت في أيام الرشيد أكثر منها في أيام المنصور وفي أيام المأمون أكثر منها في أيام الرشيد . وقس على ذلك تكاثرها في أيام من جاء بعدهم من الخلفاء . فقد قرأت في جريدة المعتضد (صفحة ٦٧) من أصناف المرتزقين في بلاط الخليفة من الغلمان والماليك وأصحاب المطايخ والجلساء . وأصحاب الركاب ما لم يكن له ذكر في صدر الدولة العباسية . وقس عليهم اصناف الخدم الخاصة من الاطباء والمغنين والندماء مما لا يقع تحت الحصر وكله قد اقتضاه الترف في حضارة الدولة

وزد على ذلك ان بعض النفقات كانت تصرف من غير بيت المال فصارت تصرف منه لاسباب كثيرة لا سبيل الى معرفتها اذ لم يرد نص صريح بشأنها وان كنا نستدل عليها ضمناً من نصوص كثيرة — مثل ما نراه من الفرق بين جريدة النفقات في أيام المعتضد سنة ٢٧٩هـ وبين جريدة علي بن عيسى لعام ٣٠٦هـ فانك تجد في هذه نفقات لا ذكر لها في تلك مثل نفقات الحرمين ورواتب القضاة في الممالك وولاية الحسبة وأصحاب البريد في جميع البلاد ونفقات الثغور . فان هذه الابواب غير واردة في تلك لان العمال كانوا يقومون بها من خراج أعمالهم كما أشرنا الى ذلك فلهذا ضعف الخلفاء وتمرد العمال اضطرت الدولة الى دفعها من بيت مالها وقد تقدم صفحة ١٥٤ من الجزء الاول ان ارتفاع الثغور كان ينفق في مصالحها لا يرد منه شيء الى بيت المال على انهم كثيراً ما كانوا يستوردون منها الاموال الطائلة من الغنائم ونحوها في صدر الدولة العباسية ^(١) اما في أيام الانحطاط فقلت الغزوات وبطلت الغنائم وتحمل بيت المال نفقات تلك الثغور وزادت عما كانت عليه في صدر الدولة حتى بلغت في أيام المقتدر نحو ٥٠٠,٠٠٠ دينار وكانت قبله ١٠٠,٠٠٠ دينار وهو مقدار ارتفاعها ينفق في مصالحها ^(٢) — ناهيك بما حدث من نفقات الجند وغيره

(٣) زيادة الرواتب

ولم تقتصر زيادة النفقات على تجديد مصالح لم تكن من قبل ولكن المصالح القديمة زادت نفقاتها عما كانت عليه في أوائل الدولة . وطبيعي إذا كثرت ثروة الدولة ان توسع على رجالها فتزيد رواتبهم وجواريتهم . فاذا كانت تلك الدولة مؤسسة على أساس ضعيف لا تلبث ان تنحط ثروتها وتبقى الرواتب كما هي فيقصر بيت المال في تأديتها فيضطرون الى ضرب الضرائب الفادحة واستخدام العنف في تحصيلها فنضعف همة الناس عن العمل وتزداد البلاد فقراً

كان المسمعون في أيام النبي وإبي بكر يرتزقون مما يقع في أيديهم من الغنائم فتختلف حصة كل منهم باختلاف مقدار تلك الغنائم حتى تولى عمر بن الخطاب ووضع الديوان وجعل لكل مسلم راتباً معيناً في السنة ويميزهم باعتبار انسابهم من النبي او سابقتهم في الاسلام^(١) وليس باعتبار ما يؤدونه من الاعمال فقد يكون أحدهم كاتباً أو عاملاً أو قاضياً على السواء . فلما تفرعت مصالح الدولة وتبدت لم يروا بدءاً من تعيين الرواتب باعتبار المناصب فجعلوا لكل من الجندي والعامل والكتائب والحاجب والقاضي وغيرهم راتباً معيناً . ولما حدثت الوزارة في الدولة العباسية جعلوا لها راتباً كما جعلوا السواها من المناصب المستحدثة . واختلف مقدار راتب كل من هذه المناصب باختلاف الدول والعصور فلننظر في تاريخ اشهر تلك المناصب باعتبار رواتبها بالنظر الى ما نحن فيه

﴿ رواتب العمال ﴾ : كان راتب العامل في أيام عمر ٦٠٠ درهم في الشهر^(٢) ثم اختلف باختلاف العمال والاعمال فقد جعل عمر لمعاوية على الشام الف دينار في السنة^(٣) ولما أفضى الامر الى بني أمية أصبحت ولاية الاعمال فوضي على ما تقتضيه الاحوال من اطماع العمال بنصرتهم او التوسيع لهم بالنفقة لحرب الخوارج والعاو بين

او غير ذلك . فربما جعلوا الولاية كلها طعمة لا يدفع عنها العامل شيئاً بل ينالها مكافأة على خدمة قام بها — على ان ذلك كان خاصاً بالعمال الكبار كعامل العراقين أو مصر او خراسان . وقد بلغ راتب يزيد بن عمرو بن هبيرة أمير العراق في أيامهم ٦٠٠,٠٠٠ درهم في السنة ^(١) وبلغت غلة خالد القسري ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم ^(٢) وليس هذا الأخير من قبيل الراتب فلا يفاس عليه

وكان تحت هؤلاء العمال عمال يفرقونهم في اعمالهم كما كان يفعل الحجاج في العراق وعمرو بن العاص بمصر . فالعمال الصغار كانت رواتبهم محددة لا تزيد على ٣٠٠ درهم في الشهر ^(٣) وظلت على نحو ذلك في صدر الدولة العباسية الى أيام المأمون فزادها وزيره الفضل بن سهل في جملة ما زاده من الرواتب على اثر ما كان من تكثّر اثاره مع رغبة الخليفة في ارضاء نصرائه من أهل خراسان . اما مقدار ذلك الراتب فانه كان يختلف باختلاف الاعمال لان العمل قد ينحصر في ولاية صغيرة او يمتد على عدة ولايات فتقدر العمالة بقدر اتساعه واهميته وباعتبار رضى الخليفة عن عامله ونحو ذلك . فقد عقد المأمون للفضل بن سهل على المشرق من جبل همدان الى التبت طولاً ومن بحر فارس الى بحر الديلم (قزوین) وجرجان عرضاً ويدخل في ذلك كل ما وراء العراق شرقاً الى الهند وجعل له عمالة ٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين واعطاه علماً وسماه ذا الرئاستين ^(٤) السيف والقلم ونقش على سيفه بالفضة من الجانب الواحد « رئاسة الحرب » ومن الجانب الآخر « رئاسة التدبير » ^(٥) — فعمل المأمون ذلك له لما كان من نصرته اياه في خلافه مع اخيه الامين فلا يقاس به العمال الذين كانوا يتولون الاعمال الصغرى ومنهم بضعة عشر عاملاً تحت راية الفضل بن سهل في المشرق . وعمالة هؤلاء تختلف ايضاً

(١) ابن خلكان ٢٨١ ج ٢ (٢) ابن خلدون ٩٦ ج ٣

(٣) الطبري ٤٣٤ ج ٣ (٤) ابن الاثير ١٠٣ ج ٦

(٥) الطبري ٨٤١ ج ٣

باختلاف الولايات و يظهر انها كانت تتراوح بين ٣٠٠ درهم و ١,٠٠٠ قياساً على ما ذكره ابن حوقل من رواتبهم في أيام منصور بن نوح^(١) واما عمال الولايات الكبرى التي كانت علاقتها رأساً مع الخليفة فقد كانت رواتبهم كبيرة جداً كما رأيت من راتب الفضل بن سهل . وكانت عمالة الحسين ابن علي الماذراني على مصر في اوائل القرن الرابع للهجرة ٣,٠٠٠ دينار في الشهر^(٢) او ٦٠,٠٠٠ درهم ومقدار ذلك في السنة ٧٢٠,٠٠٠ درهم وقس على ذلك

فاذا اعتبرنا هذه الرواتب بالنظر الى هذه الايام رأيناها فاحشة جداً لان الولايات في الدولة العثمانية ثلاث درجات الدرجة الاولى راتبها ٢٥٠ ليرة عثمانية في الشهر والثانية ٢٠٠ واثالثة ١٥٠ ليرة . وراتب عامل انكلترا على الهند (حكمدار الهند) ٢٠,٨٣٣ روية في الشهر^(٣) أي نحو ٥٠٠,٠٠٠ فرنك في السنة وهو اعظم رواتب العمال في هذا العهد . ومع ذلك فانه اقل من راتب الماذراني المتقدم ذكره - ناهيك بما كان يكتسبه عمال الدولة العباسية من الاتجار ونحوه

﴿ رواتب الكتاب ﴾ : وكانت رواتب الكتاب الى أيام المأمون مثل رواتب العمال الصغار لا يزيد مقدارها في الشهر على ٣٠٠ درهم فزادها الفضل ابن سهل كما تقدم ولم تقف على مقدار تلك الزيادة . ولكن بالقياس على غيرها يجب ان تكون كثيرة . فضلاً عما كانوا يستولون عليه من الاخرجة اليومية وقد عدّد المقر بزي ما كان يستولي عليه كاتب من كتاب مصر في عهد الدولة الفاطمية في اليوم الواحد من البقولات والتوابل والحلويات والاثمار والفاكهة والعطريات وسائر الاطعمة ومن الالبسة والافرشة وما كان يجري من ذلك كله على

(١) ابن حوقل ٣٤٢ (٢) Bin. Alb. 80.

(٣) ويتكر ٤٦٦

اولاده واهله فاستغرق تعداده نحو صفحتين او ثلاث صفحات من قطع هذا الكتاب — فاكتفينا بالاشارة اليه تفادياً من التطويل ومن اراد التفصيل فليراجعه هناك^(١)

(رواتب الوزراء) : الوزارة من محدثات الدولة العباسية واول من اشتهر من وزرائها البرامكة ولم تقف على مقادير رواتبهم والظاهر انها كانت كبيرة . فضلاً عن اطلاق ايديهم في بيت المال يقطعون ويصلون كما يتراءى لهم . على اننا قد رأينا في قائمة النفقات في أيام المعتضد صفحة ٦٩ ان راتب الوزير $\frac{1}{4}$ ٣٣ دينار في اليوم او الف دينار في الشهر . فاذا اعتبرنا تقدير النقود بالنظر الى قيمة الفضة والذهب في هذه الايام زاد هذا الراتب على ١,٥٠٠ جنيه — وما من وزير يبلغ راتبه الى هذا المقدار اليوم . فان راتب الوزير في الدولة العثمانية ٣٠٠ ليرة عثمانية في الشهر الا المصدر الاعظم فان راتبه الف ليرة . والوزير المصري راتبه ٢٥٠ جنيه في الشهر وراتب اكبر وزراء انكلترا ٢,٠٠٠ جنيه في العام^(٢)

على ان رواتب الوزراء كانت تختلف باختلاف العصر والدول — كان راتب الوزير على أيام الناصر الاندلسي ٨٠,٠٠٠ دينار في السنة وهدايا^(٣) وكان راتب يحيى بن هبيرة وزير المقتفي في واسط القرن السادس للهجرة ١٠٠,٠٠٠ دينار في السنة^(٤) وكان للوزراء فضلاً عن رواتبهم المشار اليها رواتب لاولادهم واخوتهم وخدمهم واتباعهم وارزاق ووظائف كثيرة وخصوصاً في مصر . فقد كان راتب الوزير في الدولة الفاطمية ٥,٠٠٠ دينار في الشهر ولن يليه من ولد أو أخ من ٣٠٠ الى ٢٠٠ دينار ثم حواشيهم على مقتضى عدتهم من ٥٠٠ — ٣٠٠ دينار ما عدا الاقطاعات^(٥) غير ما يجري عليه وعلى اهله من المأكولات وسائر حاجيات

(١) المقرئ ٣٩٩ ج ١ (٢) ويتكر ١٧٠

(٣) نفح الطيب ١٦٨ ج ١ (٤) الفخري ٢٧٨ (٥) المقرئ ٤٠١ ج ١

الحياة . فقد كان للوزير ابن عمار ايام العزيز بالله الفاطمي بمصر من الجرايات لنفسه واهل حرمه من اللحم والتوابل ما قيمته ٥٠٠ دينار في الشهر . ومن الفاكة سلة بدينار وعشرة ارطال شمع بدينار ونصف حمل باج^(١)

﴿ رواتب القضاة ﴾ : كان راتب القاضي في ايام الراشدين مئة درهم في الشهر وموؤنته من الخنطة^(٢) ثم ارتقى في ايام بني أمية مثل سائر الرواتب فصار راتب قاضي مصر سنة ٨٨ هـ الف دينار في السنة^(٣) اي نحو عشرة اضعافه في ايام الراشدين فلما افضت الخلافة الى بني العباس انزلت الرواتب وصار راتب قاضي مصر في ايام المنصور ٣٠ ديناراً في الشهر . ثم تصاعد في عهد من خلفه حتى بلغ في ايام المأمون (سنة ٢١٣ هـ) ٤,٠٠٠ درهم في الشهر اي نحو ٢٧٠ ديناراً ثم عاد في ايام ابن طولون الى الف دينار في السنة^(٤)

واما في بغداد فلم نطع على راتب القاضي في اوائل الدولة العباسية ولكننا راينا في جريدة المعتضد ان راتب القاضي $١٦ \frac{2}{3}$ دينار في اليوم او ٥٠٠ دينار في الشهر بما فيه اجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضي - ومع ذلك فانه راتب كبير بالنظر الى رواتب قضاة هذه الايام فان راتب شيخ الاسلام في الاسنانية لا يزيد على ٥٠٠ ليرة عثمانية في الشهر مع اعتبار الفرق في قيمة النقود بين تلك الايام واليوم

﴿ رواتب الخلفاء واهلهم ﴾ : قد رايت ان الخلفاء كانوا يفرضون الرواتب لاهل الوزراء والكتاب فبالاولى ان يفرضوها لانفسهم واولادهم والخليفة هو القابض بيده على بيت المال . لكننا لم نجد قولاً صريحاً بهذا الشأن غير ما كان يأمر به الخلفاء لاهلهم من الضياع أو الاموال واكثر ما كانوا يفعلون ذلك في أول الدولة اذا خافوا اهلهم من مناظرتهم على الملك فيتعاون البيعة بال يرضون به اهلهم كما فعل المنصور مع

(١) المقرئزي ج ٣ ص ٢ (٢) سراج الملوك (على هامش المقدمة) ٢٧٧

(٣) السيوطي ١١٥ ج ٢ (٤) السيوطي ١١٩ ج ٢

عيسى بن موسى اذ شترى منه البيعة لابنه المهدي بمبلغ ١١,٠٠٠,٠٠٠ درهم له ولأولاده^(١) أو للتوسعة عليهم واستنصارهم كما فعل مع أعمامه فإنه أمر لكل واحد منهم بمليون درهم تدفع اليهم من بيت المال وهو أول من فعل ذلك^(٢) ويظهر انها كانت تدفع اليهم في كل عام . ولما توفي ابنه المهدي فرض لاهل بيته كل واحد ٦,٠٠٠ درهم في السنة^(٣) والظاهر انهم بقوا على نحو ذلك فضلاً عما كانوا ينالونه من الهبات الطائلة وخصوصاً أبناء الخلفاء وولاة عهدهم فان الهادي أمر سنة ١٧٠هـ لابنه الرشيد بمليون دينار وان يحمل اليه نصف الخراج^(٤) على اثر ما كان من عزمه على خلعه من ولاية العهد

والظاهر ان الرشيد زاد في رواتب أهله . وكذلك المأمون بالقياس على ما كان من زيادة الرواتب في خلافته . وكان اعضاء العائلة قد زاد عددهم حتى بلغوا في أيامه ٣٣,٠٠٠ نفس . ولما تولى المستعين سنة ٢٤٨ هـ ابتاع من المعتز والمؤيد جميع ما لهما واشهد عليهما بذلك وترك للمعتز ما يتحصل منه في السنة ٢٠,٠٠٠ دينار والمؤيد ما يتحصل منه ٥,٠٠٠ دينار وحبسهما^(٥)

فلما كانت أيام ابن رائق امير الامراء في أوائل القرن الرابع للهجرة كفت ايدي الخلفاء عن بيت المال وصارت الى رجال الدولة - وأول من كفت يده الراضي بالله الذي توفي سنة ٣٢٩ هـ واستبد القواد ورجال الدولة في الاموال وصار الخلفاء في حاجة الى الراتب بعد ما ذهبت سيطرتهم عن بيت المال فقرروا لهم راتباً زهيداً^(٦)

ويظهر ان الخلفاء لم يكن لهم قبل ذلك رواتب معينة غير ما كان يصيبهم من الغنائم بحسب الشرع - الا ابا بكر فقد فرضوا له ٦,٠٠٠ درهم لما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف^(٧) ثم لم نذكر الرواتب الخلفاء الى أيام ابن

(١) ابن الاثير ٢٧٥ ج ٥ (٢) الطبري ٤٢٠ ج ٣

(٣) سير المملوك ٦٥ (٤) ابن الاثير ٤٠ ج ٦ (٥) الطبري ١٥٠٧ ج ٣

(٦) الفخري ٢٥٤ (٧) المقرئ ٩٥ ج ١

رائق . فلما استولى معز الدولة الديلمي على بغداد سنة ٣٣٤ هـ فرض للخليفة المستكفي ٥,٠٠٠ درهم كل يوم لنفقاته ولكنه فلما كان يدفعها اليه^(١) ثم كان ما كان من فقر الخلفاء مما يأتي ذكره في حينه

وفرض الاعطية للملوك وأهلهم عادة جارية عند معظم الامم الآن والغالب في الدول المتمدنة ان تكون تلك الرواتب معينة في ميزانياتها وهالك رواتب العائلة المالكة في انكلترا للعام الماضي

رواتب العائلة المالكة في انكلترا

جنيه انكليزي

راتب الملك ادوارد	١١٠,٠٠٠
» خدم القصر	١٢٥,٨٠٠
» نفقات	١٩٣,٠٠٠
نفقات أخرى وصدقات	٤١,٢٠٠
(جملة مخصصات الملك)	٤٧٠,٠٠٠
رواتب سائر اعضاء العائلة	١٦٠,٠٠٠
	٦٣٠,٥٠٠

وهذه رواتب العائلة الخديوية للسنة الماضية

جنيه مصري

مخصصات الحضرة الخديوية	١٠٠,٠٠٠
» مرتبات العائلة	٩٧,٩٢٧
نفقات كايته الحضرة الخديوية	٥٧,٤٣٤
	٢٥٥,٣٦١

ولجلالة مولانا السلطان راتب مقداره في الشهر ٧٥,٠٠٠ ليرة عثمانية او
٩٠٠,٠٠٠ ليرة في السنة ماعدا النفقات والمخصصات

﴿ رواتب حاشية الخليفة ﴾ : ونريد بحاشية الخليفة الموظفين المتعلقة اعمالهم
بشخص الخليفة وليس بأعمال الدولة كالاطباء والحجاب والحرس الخاص .
ورواتبهم من بيت مال الخاصة . وقد يكون لهم رواتب من بيت مال العامة
وكانت كبيرة تستدل على ذلك من مخصصات جبريل بن بختيشوع طيب الرشيد
ومنها رواتب نقدية كان يقبض بعضها من بيت مال العامة والبعض الآخر من
بيت مال الخاصة واليك راتب جبريل المذكور في السنة كما وجدوه مدوّنًا
بخط كاتبه ^(١)

مرتبات جبريل بن بختيشوع طيب الرشيد في السنة

درهم من بيت مال العامة

راتب نقدي ١٢٠,٠٠٠

الزل ٦٠,٠٠٠ ١٨٠,٠٠٠

من بيت مال الخاصة

راتب نقدي ٥٠,٠٠٠

ثياب قيمتها ٥٠,٠٠٠

هدية على عيد صوم النصارى ٥٠,٠٠٠

يوم الشعانين ثياب قيمتها ١٠,٠٠٠ » »

الفطر نقداً ٥٠,٠٠٠ » » »

ثياباً ١٠,٠٠٠ » » » »

لفصد الرشيد دفعتين في السنة كل دفعة ٥٠,٠٠٠

لشرب الدواء ١٠٠,٠٠٠ » » » » ٤٢٠,٠٠٠

(المجموع) ٦٠٠,٠٠٠

(مجموع ما قبله)	٦٠٠,٠٠٠
من أصحاب الرشيد نقداً وثياباً واطياباً	
من عيسى بن جعفر	٥٠,٠٠٠
من زبيدة أم جعفر	٥٠,٠٠٠
» العباسية	٥٠,٠٠٠
» إبراهيم بن عثمان	٣٠,٠٠٠
» الفضل » الربيع	٥٠,٠٠٠
» فاطمة أم محمد	٧٠,٠٠٠
كسوة وطيب ودواب	١٠٠,٠٠٠
٤٠٠,٠٠٠	
من البرامكة	
من يحيى بن خالد	٦٠٠,٠٠٠
» جعفر بن يحيى الوزير	١,٢٠٠,٠٠٠
» الفضل بن يحيى	٦٠٠,٠٠٠
٢,٤٠٠,٠٠٠	
غلته من ضياعه	٨٠٠,٠٠٠
من فضل مقاطعته	٧٠٠,٠٠٠
(الجملة)	٤,٩٠٠,٠٠٠

فجملة رواتبه فقط ٤,٩٠٠,٠٠٠ درهم في العام فإذا جمع ذلك في مدة خدمته كلها وهي ٢٣ سنة كان مقدار ما قبضه من مال الدولة العباسية ١١٢,٧٠٠,٠٠٠ درهم يخرج منها ما قطع عنه من مرتبات البرامكة بعد نكبتهم في العشر السنين الأخيرة وهو ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم فالباقي ٨٨,٧٠٠,٠٠٠ درهم وهو جملة ما اكتسبه من بيت المال غير الصلوات الجسام . وأما ما أنفقته فهو :

درهم

٢٧,٦٠٠,٠٠٠ نفقاته على نفسه وبيته في السنة ١,٢٠٠,٠٠٠ درهم عنها في ٢٣ سنة
٧٠,٠٠٠,٠٠٠ ثمن دور وإساتين ومنزهات ودواب ورقيق وغيرها

٠٨,٠٠٠,٠٠٠	ثمان آلات واجرو صناعات ونحو ذلك
١٢,٠٠٠,٠٠٠	ما صار في ثمن ضياع ابتاعها لحاصته
٥,٠٠٠,٠٠٠	ثمان جواهر وما اعده للذخائر
٣,٠٠٠,٠٠٠	ما انفق في البر والصلات والمعروف
٣,٠٠٠,٠٠٠	ما كابره عليه اصحاب الودائع وجحدوه
١٢٨,٦٠٠,٠٠٠	(والمجموع في الاصل ٩٠٠,٠٠٠ دينار و ٩٠,٦٠٠,٠٠٠ درهم)
وقس رواتب سائر الحاشية على هذه النسبة في تلك الايام . فقد كانت	
غلة صاحب حرس الرشيد ٣٠٠,٠٠٠ درهم في السنة . وغلة صاحب شرطته	
٥٠٠,٠٠٠ درهم وغلة حاجبه ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة ^(١)	

﴿ رواتب الجند ﴾ : بينا في باب الجند من الجزء الاول صفحة ١٢٤ كيف كان المسلمون كلهم جنداً وذكرونا ما فرضه لهم عمر من الرواتب باعتبار النسب والسابقة وكيف تضاعفت رواتبهم في أوائل أيام بني أمية ثم نقصت في أواخرها ثم زادت في أوائل بني العباس ثم نقصت حتى صارت في أيام المأمون ٢٤٠ درهماً في السنة للجندي الراجل (النفر) فضلاً عن حصته من الغنائم اذا غزا . ويظهر ان تلك الحصة كانوا يحبسونها عن الجند في صدر الدولة العباسية حتى طلبوا من محمد الأمين سنة ١٩٨ هـ ان يردّها عليهم اذا غزوا فردّها فأصاب الرجل ستة دنانير ^(٢)

ولما قامت الفتنة بين الأمين والمأمون كان كل منهما يرغب جنده بالاعطيات فلما فاز جند طاهر بن الحسين على جيش علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ زاد المأمون أعطيات جند طاهر حتى جعل راتب الواحد ثمانين درهماً في الشهر (٩٦٠ درهماً في السنة) ^(٣) اي انه أعادها الى ما كانت عليه في أيام السفاح . فلما انتهت

(١) طبقات الاطباء ١٣٢ ج ١ (٢) الطبري ٩٧٢ ج ٣

(٣) الطبري ٨٣٠ ج ٣

الفتنة عادت الى ٢٤٠ درهماً

(الافشين وبابك) فلما أفضت الخلافة الى المعتصم سنة ٢١٨ هـ وكان ما كان من اقتنائه الاتراك والفراغة والمغاربة وتجنيدهم وضعف الخلفاء للاسباب التي قدمناها أصبح مرجع القوة في كل شيء الى الجند . وكانت فاتحة ذلك النفوذ استفحال أمر بابك الحزبي في ارمينيا واذر بيجان . وكان بابك قد ظهر في أيام المأمون يدعو الناس الى دين جديد أساسه النقص^(١) فبعث اليه المأمون جنوداً هزمهم غير مرة . فلما تولى المعتصم جعل همه قمع بابك لانه أصبح في خطر منه على ملكه فبعث اليه اتراكه بقيادة رجل منهم اسمه الافشين حيدر بن كاووس سنة ٢٢٠ هـ ثم اردفهم بآخر اسمه بغا الكبير ومعه المال وآخر اسمه جعفر الخياط ثم انفذ اليه ايناخ ومعه ٣٠,٠٠٠ درهم لنفقات الجند . وبعد حروب سنتين فاز الافشين وقبض على بابك بحيلة بذل فيها المال . وجاء ببابك الى سامراء فخرج الواثق بن المعتصم وسائر أهل المعتصم لاستقباله باحتفال وهم لا يصدقون انهم نجوا من بابك على يده لانه كان قد أمعن في البلاد نهباً وقتلاً فقتل في عشرين سنة ٢٥٥,٥٠٠ نفس وغلب على معظم قواد المأمون والمعتصم - فلما قبض الافشين عليه أمر المعتصم ان يركبوه على الغيل فأركبوه واستشرفه الناس وكان بابك عظيم الجثة . ثم ادخلوه على المعتصم في داره فأمر سياف بابك نفسه ان يقطع يديه ورجليه فقطعهما فسقط بابك فأمره بذبحه ففعل وشق بطنه وأنفذ رأسه الى خراسان وصاب بدنه في سامراء . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً أمن فيه المعتصم على ملكه وغرف ذلك الفضل للافشين ورجاله - وكان لا ينفك وهو يواصل الافشين بالعطايا والخلع من يوم خروجه الى يوم رجوعه . فكان يرسل اليه كل يوم خلة وفرساً ويدفع اليه في اثناء اقامته بزاء بابك (سوى الارزاق والانزال والمعاون) عن كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم وعن كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم . ولما عاد

(١) ابن الاثير ١٣٤ ج ٦

الافشين تقدم المعتصم بنفسه والبسه وسامين مرصعين بالجواهر ووصله بعشر بن مليون درهم عشرة ملاين منها لنفسه وعشرة يفرقها في عسكره وعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه^(١)

فوالافشين لم يثبت في محاربة بابك الاطعماً بالمال مع ما كان يواصله به المعتصم من الخلع والاموال في أثناء الحرب ثم ما دفعه اليه عند رجوعه . وكان الافشين يرسلها كلها الى بلاده حتى وهو في دار الحرب . فكان اذا اجتمع اليه مال من غنيمة او هدية بعث به رأساً الى بلده في اشروسنة وراء النهر بطريقة سرية فيجتاز حملة المال بخراسان فيعلم بهم عاملها ابن طاهر فيكتب الى المعتصم بشأنهم والمعتصم يأمره ان يطلعه على كل ما يراه من هذا القبيل . فأنفذ الافشين مرة مالا كثيراً جمعه في اوساط اصحابه في الهابيين فبعث ابن طاهر ففتشهم . فوجد المال فقال « من اين لكم هذا المال » قالوا « للافشين » فأخذه وأظهر ان الافشين لا يفعل ذلك وانما هم لصوص . فوقعت الوحشة من يومئذ بين ابن طاهر والافشين حتى آل الامر الى حبسه وقد تبين من محاكمته انه لم يعترف الاسلام الاطعماً في المال وانه لا يزال على الجوسية^(٢)

وقس على ذلك سائر جند المعتصم فانهم انما كانوا يحاربون لجرد كسب الاموال وحملها الى بلادهم في أقصى الشرق - فكيف تستقيم دولة هذا جندها - على ان الحلفاء لم يكونوا يجدون بداً من استنصارهم ولا سبيل الى ذلك الا بالمال . فكانوا يبدلون لهم الرواتب الكبيرة غير ما يهبونهم اياه من الهدايا ونحوها اقتداء بما كان يفعله المعتصم معهم - لانه بنى لهم سامراً وأقطعهم فيها الاقطاعات واشترى لهم الجواري فازوجهم منهم ومنعهم ان يتزوجوا او يصاهروا أحداً من المولدين الى ان ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم الى بعض . وأجرى للجواري الاتراك ارزاقاً قائمة واثبت اسماءهن في الدواوين فلم يكن يقدر أحد منهم يطلق امرأته ولا يفارقها^(٣)

(١) الطبري ١٢٣٢ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٢٠٩ و ٢١١ ج ٦

(٣) اليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٣

فاذا اعتبرت هذه النفقات مع ارزاق الرجال وما قد يحتاجون اليه من المؤونة والاخرجة كان المجموع عظيماً جداً - قال الطبري في حوادث سنة ٢٥٢ هـ « وذكر ان ارزاق الاتراك والمغاربة والساكنية قدرت في هذه السنة فكان مبلغ ما يحتاجون اليه في السنة ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار وذلك خراج المملكة كلها لسنتين » ^(١) - ونظن المراد ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم (لا دينار) اذ يستبعد ان يجتمع هذا القدر من الخراج ذنانير في سنتين لاننا لو حولناها الى دراهم باعتبار الدينار عشرين درهماً وهي قيمته في ذلك الحين كان خراج المملكة في السنة ٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وقد رأينا خراجها في أبان ثروتها لا يزيد على ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم - فانفاق ٢٠٠ مليون درهم على الجند في سنة واحدة امر عظيم جداً وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود في تلك الايام . ولكنه لا يعد شيئاً بالنظر الى نفقات الجند في هذه الايام لان التمدن الحديث اقتضى الاحنياط والتجديد واعداد المعدات حتى كثرت نفقات الجند كثرة فاحشة وخصوصاً اذا اضفنا اليها نفقات الاساطيل - فانكنازاً مثلاً تنفق على جنديتها برّاً وبحراً نحو ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه في السنة اي نحو ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك (او درهم) وفرنسا تنفق نحو هذا المبلغ وكذلك روسيا . وهو مع اعتبار قيمة النقود بالنسبة الى تلك الايام لا يزال يعادل ضعفي ما كان ينفقه العباسيون تقريباً . ولكننا اعظمنا ما انفقوه بالنظر الى ما كان من طرق انفاق الجند عندهم

ناهيك بما كان يرتكبه الجند العباسي من اغتصاب أموال الناس في منازلهم وحوادثهم لاقل سبب يحدث والخلفاء لا يعدون ذلك ذنباً لهم بل ربما عنفوا الناس لانهم لم يتقبلوا سلهم وامتعهم الى مكان لا يعرفه الجند على ان الخلفاء كانوا ينشطون مطاعم الجند فيهم بما كانوا يشربونه على انفسهم من المال اذا هم فعلوا لهم الامر الغلاني حتى في ساحة الحرب . فكانوا اذا احتدم

القتال وخاف الخليفة او الامير ضعفاً صاح في جنده « من جاء بأسير فله عشرة دنانير ومن جاء برأس فله خمسة دنانير » كما فعل المقتدر سنة ٣٣٠ هـ^(١) اما رواتب الجند العباسي اي ما كانوا يتقاضونه قدرًا معينًا في العام فقد تبين من قائمة نفقات الدولة في ايام المعتضد صفحة ٦٧ ان ارزاق الجند من الفرسان والماليك ونحوهم لا تزيد على ١,٥٠٠,٠٠٠ دينار او ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم . ثم استفحل امر الجنود الاترك بتوالي الاعوام وتعددت فرقهم وتزايدت رواتبهم مما لا يمكن حصره لانه يختلف باختلاف الازمان والاحوال فضلاً عن سكوت المؤرخين في هذا الشأن الا ما قد نتناوله عرضاً

فقد بلغ عدد فرقة الرجالة المصافية الملازمين لدار الخليفة المقتدر سنة ٣١٧ هـ ٢٠,٠٠٠ رجل بلغت رواتبهم ١٢,٠٠٠ دينار في الشهر اي ستة دنانير كل واحد . وكان عدد الفرسان ١٢,٠٠٠ فارس رواتبهم في كل شهر ٥٠٠,٠٠٠ دينار وذلك نحو ٤٣ ديناراً لكل واحد . ونحو ١٢,٠٠٠ درهم في السنة للفارس و ١,٤٤٠ درهماً للراجل . وكانوا مع ذلك كثيراً ما يثرون ويطلبون الزيادات ويهددون الخليفة بالقتل اذا لم يحبهم^(٢) . وتدخلوا في منازل الخلفاء ووضعوا ايديهم على الخلافة وصاروا يولون من شاؤوا واذ اتت الاموال اقتسموها فيما بينهم لا يتركون منها للخليفة او الديوان الا القليل كما فعل اتامش وشاهك في ايام المستعين بالله سنة ٢٤٩ هـ^(٣)

وكما كان القواد يطعمون بالخلفاء ويستبدون فيهم كانوا أيضاً يستأثرون بالاموال دون افراد الجند حتى كثيراً ما ثار هولاء على قوادهم وطلبوهم بالاموال وهددوهم واذا لم يروا منهم اصغاء وتلبية قتلوهم . كما فعلوا بوصيف سنة ٢٥٣ هـ فان الاترك والفراغنة والاشروسنة شغبوا وطلبوا ارزاقهم لاربعة أشهر فخرج اليهم بغا وووصيف وسيا فكلهم وصيف بالخلفاء . وقال لهم « خذوا التراب ليس

(١) ابن الاثير ٩٠ ج ٨ (٢) صلة تاريخ الطبري ١٤٢ - ١٥١

(٣) الطبري ١٥١٢ ج ٢

عندنا مال » فوثب عليه بعضهم وقتلوه ^(١) وكثيراً ما تظاهروا الى الحلفاء وشكوا مما صار اليه قوادهم من الاقطاعات التي قد أجمعت بالضيايع والخراج وما صار الى كبرائهم من المعاون والزادات في الرسوم القديمة مع ارزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا اكثر أموال الخراج ^(٢) حتى طلبوا التخلص منهم وان يقود الجند اخو الخليفة

﴿ رواتب الجند الآن ﴾ على اننا اذا اعتبرنا رواتب الجند الاسلامي على اختلاف عصوره من أيام الراشدين الى أواخر الدولة العباسية وقسناها بروات جنود هذه الايام رأيناها تزيد عليها زيادة فادحة . فقد رأيت ان راتب الجندي في أيام الراشدين من ٣٠٠ - ٥٠٠ درهم في السنة ثم صار في أيام بني أمية الف درهم وثقاب في أيام العباسيين حتى صار في ايام المقتدر ١٥٤٠ درهم للراجل و ١٢,٠٠٠ درهم للغارس في السنة - تلك رواتب افراد الجند (الانفار) عندهم مع ان راتب النفر في الدولة الانكليزية للرجل شلين وللفارس شلين و ٩ بنسات في اليوم ومقدار ذلك في السنة نحو ٤٥ فرنكاً (او درهم) للراجل و ٨٠٠ فرنك للفارس على ان رواتب الجند عندهم تختلف في كل من المشاة والفرسان باختلاف الفرق . ولكنها في كل الاحوال عظيمة بالنظر الى رواتب الجند في الدول الاخرى . واما بالنظر الى الدولة العباسية فانها صغيرة وخصوصاً اذا اعتبرنا قيمة النقود في الحالتين

ومن أسباب كثرة نفقات الجند اليوم كثرة الضباط وكبر رواتبهم وان كنا لانعلم مقدار رواتب ضباط تلك الايام وهم القواد . وهاك رواتب الجند الانكليزي من اكبر الضباط الى النفر العسكري في اليوم ^(٣) ثم رواتب الجندين العثماني والمصري

(١) ابن الاثير ٧٠ ج ٧ (٢) الطبري ١٧٩٦ ج ٣

(٣) ويتكر ٢٢٠

رواتب الجند الانكليزي في اليوم بالجنيه والشلين والبنس

	المشاة			الفرسان		
	ب	ش	ج	ب	ش	ج
الجزرال (المشير)	—	—	٨	—	—	٨
الفريق	—	١٠	٥	—	١٠	٥
الالواء	—	—	٣	—	—	٣
اميرالاي	—	١٨	—	٦	١	١
قائمقام	—	١٨	—	٦	١	١
بكباشي	٧	١٣	—	—	١٥	—
يوزباشي	٧	١١	—	—	١٣	—
ملازم اول	٦	٦	٦	٦	٧	—
» ثاني	٣	٥	—	٨	٦	—
النفر	—	١	—	٩	١	—

رواتب الجند المصري في الشهر

قرش مصري

المشير (لايوجد)	٠٠٠٠٠
الفريق	٧,٥٠٠
الالواء	٦,٥٠٠
اميرالاي	٤,٧٠٠
قائمقام	٣,٠٠٠
بكباشي	٢,٥٠٠
صاغقولاغاسي	١,٥٠٠
يوزباشي	٩٠٠
ملازم اول	٦٠٠
» ثاني	٥٠٠
نفر	٣٠

رواتب الجند العثماني في الشهر

قرش عثماني

المشير	٢٥,٠٠٠
الفريق	١٠,٠٠٠
الالواء	٦,٠٠٠
اميرالاي	٢,٥٠٠
قائمقام	١,٨٠٠
بكباشي	١,٢٠٠
قولاغاسي	٨٠٠
يوزباشي	٥٠٠
ملازم اول	٢٥٠
» ثاني	٢٠٠
نفر	٢٠

(رواتب أخرى) : كانت سياسة الملك في تلك العصور تقتضي استرضاء بعض الناس ممن يخاف الخلفاء أقلامهم أو سنتهم أو احزابهم . لان المملكة لم تكن تخلو من دعاة يطلبون الخلافة لانفسهم من العلويين أو الخوارج أو غيرهم - والملك لا يخلو من حساد يترقبون فرصة للانتقام . وكان للخطابة والحامسة يومئذ تأثير على الرأي العام اكثر مما للصحافة في هذه الايام . فالخلفاء العقلاء كانوا يؤثرون ملافاة شرور المقاومين بالاحسان اليهم أو الرفق بهم فيقطعون سنتهم بالجوائز الوقفية أو بالرواتب الجارية كما يفعل ملوك هذه الايام بالصحافة فان بعضهم يدفع الرواتب السنوية الى أرباب الصحف في مقابل سكوتهم عنه والبعض الآخر يتنازع مساعدتهم في انهاض الهمم او جمع كلمة الاحزاب . فالشعراء والخطباء ونحوهم كان شأنهم في تلك الايام مثل شأن الصحافة اليوم . فلا غرابة اذا بذل الخلفاء الاموال لاسترضائهم

وأول من تحدى ذلك في الاسلام معاوية بن ابي سفيان . فكان يسمع النثر يعب باذنه ولا يجازي عليه الا بالعطاء ولذلك كانوا يعبرون عن اجازة الشاعر بقطع لسانه^(١) وكان يفعل ذلك بالشعراء والوجهاء وغيرهم . وسار الخلفاء بعده على خطواته وفرضوا الاعطية لرؤساء الاحزاب من بني هاشم والطلبيةين ونحوهم وصاروا يهبون الاموال لمن يخافونهم على سلطانهم واكثر ما كان يهبه الخلفاء من الجوائز والعطايا للوفود والشعراء انما كان يعطى لتخو ذلك الغرض

وكانوا يفرضون الرواتب أحيانا لاناس يرجون نصرتهم على مناظرهم في الملك كما فعل العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٨١ هـ بعلي بن الحسين من آل المغربي لما جاءه من بغداد فانه جعل له ٦,٠٠٠ دينار في السنة وسماه من شيوخ الدولة^(٢) وقد يفرضونها لطبقات الناس من أهل العوز كما فعل الاخشيد بمصر في أوائل القرن الرابع للهجرة فانه فرض للضعفاء والمستورين من ابناء النعم وأجناس الناس

(ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين بالأعمال) رواتب بلغ مقدارها في أيام كافور الاخشيدي ٥٠٠,٠٠٠ دينار في السنة ^(١) فلا بد من ان يكون مثل هذه الرواتب في الدولة العباسية

ناهيك برواتب الحاشية والاعوان ونحوهم ممن تندرج رواتبهم في نفقات الدولة فقد رأيت انها كانت كبيرة . ومن هذا القبيل حواشي الامراء والعمال والوزراء وغيرهم وقد يبلغ عددهم عند بعضهم بضعة آلاف ^(٢) او تزيد

عدد أيام الشهور

شرعت الدولة العباسية في زيادة الرواتب في ابان ثروتها ولم تكن تشعر بثقل تلك الزيادة لوفرة الاموال الواردة على بيت المال . ثم ما لبثت ان رأت الجباية تناقص ولم يعد في امكانها تنقيص الرواتب بعد ان تعود اصحابها الاسراف والبذخ واقتناء الخدم والماليك اقتداءً بخلفائهم ولا في الامكان اقبالهم خوفاً من غضبهم فعمد الوزراء الى حيلة حسنة اقتصدوا بها شيئاً كثيراً من المال . وذلك انهم جعلوا الرواتب ميأومةً فاذا ارادوا تخفيض بعضها وكان مقدار الرواتب الف دينار في الشهر مثلاً فبدلاً من ان يجعلوه ٨٠٠ دينار يبقونه على ما كان ويزيدون أيام ذلك الشهر فيجعلونها اربعين يوماً أو خمسين . فأصبح لكل فئة من الموظفين تقريباً شهر خاص يختلف عدد أيامه عن أيام أشهر الآخرين

فقائمة نفقات المعتضد المنشورة في هذا الجزء (صفحة ٦٧) يختلف شهر كل من اصحاب الرواتب فيها عن شهر غيره . فالعلماء الذين اعتمدتهم الناصر كانت أيام شهورهم اربعين يوماً فأساؤا الادب في مطالبة كانت منهم فجعلها خمسين يوماً ثم لما تولى المعتضد جعلها ستين يوماً . والفرسان الاحرار والمميزين كانت شهورهم خمسين يوماً فجعلها تسعين ونسبوا الى التسعينية ثم جعل شهور بعضهم ١٢٠ يوماً . وأشهر المختارين سبعون يوماً وأشهر الفرسان المثبتين ١٢٠ يوماً وكذلك المرتزقة

برسم الشرطة بمدينة السلام والسقاين . وقس عليهم سائر الموظفين في هذه القائمة وغيرها . فالذي راتبه الف دينار في الشهر اذا جعل شهره ١٢٠ يوماً كانه تنزل الى الربع . وكثيراً ما كان يعجز بيت المال عنها ويقصر عن تأديتها شهراً بعد شهر حتى يشور الجند فاما ان يخلعوا الخليفة او يقتلوه ويفوز بالخلافة صاحب المال



(٤) النفقة على البيعة

رأيت في ما تقدم ان العلماء في أوائل الدولة العباسية كانوا يحتاجون في تأييد بيعتهم الى استرضاء اهل الحرمين وكانوا يحملون اليهم الاموال ويذلون لهم الاعطية ويفرقون فيهم الهدايا . فلما ضعف شأن العرب بعد المعتصم وقوي جند الاتراك اهلل أمر الحرمين وصارت القوة اليهم او بالحري الى المال — لان الاتراك انما يحاربون مع صاحب المال . وصارت مبايعة الخلفاء راجعة الى خاطرهم او الى من يدفع المال اليهم . على ان الخلفاء كانوا من أوائل الدولة يسترضون الجند ويكرمونهم بالهدايا عند كل بيعة ويسمون ما يدفعونه اليهم في هذا السبيل « حق البيعة » فلما تولى الامين فرق في الجند رزق ٢٤ شهراً ^(١) ولولا ذلك لم يحكم شهراً واحداً . ولما أراد المؤمنون ان يبايع لمي الرضا صرف للجند راتب شهر على ان يصرف لهم الباقي اذا ادركت الغلة ^(٢) فلم يقبلوا ولعله لو عجل لهم بالمال لبايعوا لمن شاء . وكان بنو أمية يعطون في مقابل البيعة ولاية عمل يجعلونها طعمة عدة سنين كما فعل عبد الملك بن مروان مع عبد الله بن خازم سنة ٧٢ هـ وكان عبد الملك يحارب ابن الزبير في مكة ويخاف منه فبعث الى ابن خازم المذكور يدعوه الى بيعته ويطعمه خراسان سبع سنين ^(٣)

واما بعد أيام المعتصم فأصبحت البيعة تجارة ينالها صاحب المال أو صاحب

(١) ابن الاثير ٨٩ ج ٦ (٢) الطبري ١٠١٣ ج ٣

(٣) ابن الاثير ١٦٨ ج ٤

الجند والمعنى واحد . وكان الجند يسرون بخلع الخلفاء طمعاً بالمال لانهم كلما تول خليفة طابوه بحق البيعة ورزق ستة أشهر او ستة او أكثر أو اقل على قدر مقامهم^(١) وهناك من امثال هذه المطالبات ما لا يمد ولا يحصى فلتراجع في تاريخ الخلفاء العباسيين . فانشغل الخلفاء بذلك عن سياسة المملكة واخذت الاحكام وأصبح همهم منصرفاً الى حفظ أرواحهم واستبقاء ضياعهم وصارت البلاد فوضى للجند أو لمن يستطيع استخدامهم وانشغل الناس عن الزراعة والتجارة وأهملت الاعمال بوجه الاجمال

وزاد أهل البلاد شقاءً ان قواد الجند كانوا اذا اعوزهم المال ولم يكن في بيت المال ما يكتفي استخرجوه من الاهالي . وكثيراً ما كان يحدث ذلك في اثناء الحروب بين فرق الجند في تنازعهم على تولية أحد الخلفاء . فقد نهب جند الديلم أموال الناس في بغداد في أثناء الحصار بين ناصر الدولة ومعز الدولة سنة ٣٣٤ هـ بشأن الخليفة المطيع لله وكان مقدار ما نهبوه من أموال المعروفين فقط ١٠٠٠٠ و ١٠٠ دينار^(٢) ولما عين الخليفة المستكفي شيرزاد أميراً للامراء في تلك السنة زاد هذا اعطيات الجند زيادة كثيرة على جاري عادتهم عند كل بيعة لكنه لم يجد في بيت المال ما يطيهم فقسط الاموال على العمال والكتاب والتجار وغيرهم وظلم الناس . فظهرت للصمصام في بغداد وأخذوا الاموال نهباً ففر التجار وأصبحت البلاد فوضى^(٣)

قال ذلك وأمثاله الى ثوابع الاحن على البلاد فنقعد أهل المدن عن العمل كما نقعد أهل القرى عن الزرع وغلت الاسعار وتوالى الجوع أعواماً على مدن العراق وخصوصاً بغداد فكثرت اللصوص وصاروا طوائف عديدة لا عمل لهم الا النهب عند سنوح الفرصة وخصوصاً في أثناء الفتن . ومنهم العيارون والشارط . ولم يجد الخلفاء مალأً يستأجرون به جنداً لدفع الفتن او اخراج الثورات . على انهم

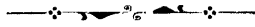
(١) ابن الاثير ٧٥ ج ٨ (٢) ابن الاثير ١٧٨ ج ٨

(٣) ابن الاثير ١٧٦ ج ٨

كثيراً ما كانوا يسكنون عن دفع المال ولو كان في خزائنها لانهم يرون النفوذ لسواهم . كما حدث المعنذر سنة ٣٢٠ هـ فانه أمسك عن دفع الاموال وهي عنده وعند والدته حتى آل الامر الى قتله بمساعي مؤنس الخادم . فكان ما فعله مؤنس سبباً لجرأة أصحاب الاطراف على الخلفاء وطمعهم فيهم^(١) حتى تجرأوا على نههم ومصادرتهم كما حدث المطيع سنة ٣٦١ هـ اذ سطا جند الروم من جهة الجزيرة حتى بلغوا نصيبين وسبوا وأحرقوا فقر بعض اهلها الى بغداد يستنجدون الخليفة وجنده وأهل المدينة فشغب الناس وخافوا فطلب بخيار (صاحب الامر يومئذ هناك) الى الخليفة ان يدفع المال للنفقة على الغزاة لمحاربة الروم فقال المطيع « ان الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمني اذا كانت الدنيا في يدي وتجبى الي الاموال وأما اذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء وانما يلزم من البلاد في يده وليس لي الا الخطبة فاذا شئتم ان اعزل فعلت » فلم ينفعه ذلك الاحتجاج فاضطر الى بيع ثيابه وانقاض داره وغير ذلك لدفع ٤٠٠,٠٠٠ درهم . فشاع الخبر ان الخليفة صودر . على ان المال المذكور لم ينفق في الغزاة وانما أنفقه بخيار في مصالحه^(٢) وما أشبه حال الخلفاء العباسيين مع جندهم الا تراك بحال سلاطين آل عثمان مع جندهم الانكشارية في القرن الثامن عشر وبعده ولا ندري كيف كان حالهم لو لم ينسحبهم السلطان محمود الثاني سنة ١٨٢٦

فلم يبق في الدولة العباسية والحالة هذه مصدر للمال للقيام بنفقات مصالحتها واستبقاء جندها لان الفتن أقعدت الناس عن العمل فخربت البلاد . ولكن الجند لا بد منه لحفظ السطة فلما استولى معز الدولة بن بويه على بغداد في خلافة المطيع شغب الجند عليه وأسمعهو المسكوه فضمن لهم ايصال أرزاقهم . ولما اعجزه ذلك من طرق الحلال اضطر الى ضبط الناس وأخذ أموالهم من غير وجوهها فلم يقنع ذلك شيئاً فارتأى ان يسلم القرى والضياع الى قواده ورجاله ليزرعوها ويستغلوها فسلم اليهم ضياع الخلافة وضياع أصحاب الاملاك فبطل لذلك اكثر الدواوين

وزالت أيدي المال . وكانت البلاد قد خربت للأسباب التي قدمناها فاستأثر القواد بالقرى العامرة فزادت عمارتها وتوفر دخلها بسبب الجاه والنفوذ . وأخذ الاتباع القرى الخربة فزادت خراباً فردوها وطلبوا غيرها وأهملوا الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل كثير منها وأخذ غلمان المقطاعين في تحصيل العاجل بالظلم . وبالجملة فقد تعذر على معز الدولة بهذه الطريقة جمع ذخيرة للنوائب والحوادث . وكان قد أكثر من إعطاء غلمانه الاتراك والزيادة لهم في الاقطاع فحسداهم الدليم فزادت الوحشة والمنافرة عما كانت عليه بينهما ^(١)



(٥) استئثار رجال الدولة بالاموال لانفسهم

اذا بلغت الدولة الى قمة ثروتها وانغمس الملك في الترف والقصف وتقاعد عن مباشرة الاحكام بنفسه تحول النفوذ الى المحيطين به أو الذين ينوبون عنه أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكتّاب والحاجب والقائد وأصبح الامر والنهي في أيديهم . فيستأثرون بالاموال لانفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ويسرفون ويبدخون على ما تقتضيه أحوالهم وأطوارهم . ولا يكون ذلك الا في الدولة المطلقة التي ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب . فمن ينوب عن الملك من الوزراء أو الكتّاب أو الحاجب في عصر الترف والتقاعد يكون له نحو ذلك النفوذ وخصوصاً في مثل الدولة العباسية لان وزراءها وكتّابها من أمة لم تقوم دولتهم الا بها ولم يزهّ تمدنهم الا بعلمائها . ولذلك كان للوزراء في هذه الدولة الكلمة النافذة والسيف القاطع حتى في أبان تمدنها — اعتبر ما كان من نفوذ البرامكة في أيام الرشيد وما كان من احرازهم الاموال لانفسهم حتى كان يحتاج الرشيد الى اليسير من المال فلا يقدر عليه ^(٢) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد ^(٣) نكبتهم على ما هو مشهور كما نكب المهدي

(١) ابن الاثير ١٧٩ ج ٨ (٢) المسعودي ٢٠١ ج ٢

٣ الطبري ١٣٣٢ ج ٣

قبله وزيره يعقوب بن داود وكان قد استوزره وسلم اليه الامور وفوض اليه الدواوين وانشغل المهدي عنه باللهو وسماع الاغاني فعظم ذلك على الناس خصوصاً العرب فهجوا يعقوب ومن ذلك قول بشار بن برد

بني أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا خلافة الله بين الناي والعود ^(١)

ووشى بعض الناس الى المهدي بذلك فاستدعاه وقبض عليه وسجنه وظل في سجنه اعواماً طوالاً

وكما اتفق للمأمون مع يحيى بن اكنم القاضي اذ عهد اليه بتدبير مملكته واكرمه نحو اكرام الرشيد للبرامكة ^(٢) ثم لم يكن راضياً عنه ولذلك فلما دنت وفاة المأمون اوصى أخاه المعتصم قائلاً « لا تتخذن وزيراً تلقى اليه شيئاً فقد علمت ما نكبني به يحيى بن اكنم في معاملة الناس وخبت سيرته » ^(٣) . وكان العرب يكرهون الوزراء خصوصاً لانهم في الغالب من الفرس وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة — قال اعرابي يصف وزيراً :

ومظهر نسك ما عليه ضميره يحب الهدايا بالرجال مكور

اخال به جبناً وبخلاً وشمية تحبّر عنه انه لوزير ^(٤)

على ان الوزراء كثيراً ما كانوا يمنعون المال عن الخلفاء ضناً ببیت مال المسلمين ان يذهب في الاسراف لا طمعاً به لانفسهم كما اتفق للوائق مع وزيره ابن الزيات اذ اعجبه صوت غنّته جارية اسمها علم فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار فقتل ابن الزيات في دفعها فغضب الوائق وأمره ان يدفع ضمني ذلك المال فدفع اليه ١٠,٠٠٠ دينار ^(٥)

وكان الوزراء يزددون نفوذاً واستئثاراً بالمال بزيادة ضعف الخلفاء حتى صارت معظم الاموال اليهم

(١) الفخري ١٦٦ (٢) ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ (٣) الطبري ١١٣٩ ج ٣

(٤) الطبري ١٠٨٨ ج ٣ (٥) ابن الاثير ١٣ ج ٧

﴿ الوزراء ﴾ : بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء او بيت المال في أيام الزهو كأن الاموال تحوت من بيت المال الى بيوت هؤلاء الناس وصارت الوزارة مطمح انظار اهل المطامع يذلون الرشى ويقدمون الهدايا رغبة فيها . على انها كثيراً ما كانت تعرض عرضاً على من يقوم بنفقات الجند^(١) ولكن الغالب ان تبذل الاموال في سبيل الحصول عليها اما رأساً الى الخليفة كما فعل ابن مقلة اذ بذل ٥٠٠,٠٠٠ دينار حتى استوزره الرازي في اوائل القرن الرابع للهجرة وكما فعل ابن جهمير اذ ابتاع الوزارة من القائم بامر الله بمبلغ ٣٠,٠٠٠ دينار^(٢) او بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستقدمونه بالمال . وهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لاعتقادهم انهم يسترجعون في اثناء وزارتهم اضعاف ما بذلوه بما تصل اليه ايديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم ومن غريب ما يحكى عن ارتشاء الوزراء ان الخاقاني وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظرًا للكوفة واخذ من كل واحد رشوة فأنحدروا واحداً واحداً حتى اجتمعوا جميعاً في بعض الطريق فقالوا كيف نصنع فقال احدهم ينبغي ان اردتم النصفه ان ينحدر الى الكوفة آخرنا عهداً بالوزير فهو الذي ولايته صحيحة لانه لم يأت بعده احد . فاتفقوا على ذلك فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة وعاد الباكون الى الوزير ففرقهم في عدة اعمال وهجاه بعض الشعراء بقوله :

وزير لا ينج من الرقاعة بولي ثم يعزل بعد ساعة

ويدي من تعجل منه مال ويبعد من توسل بالشفاعة

اذا اهل الرشى صاروا اليه فاحظى القوم أوفرهم بضاعة^(٣)

وكانت الاموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ضريبة في كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم

(١) ابن الاثير ٨٣ و ٨٦ ج ٨ وصلة تاريخ الطبري ٧٩

(٢) الفخري ٢٥٣ و ٢٦٦ (٣) الفخري ٢٤١

على ان بعضهم وهو نادر لم يكن يقبل الرشوة ولا يعمل الا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل على الله فانه كان عفيفاً — ذكر الفخري ان صاحب مصر حمل اليه ٢٠٠,٠٠٠ دينار وثلاثين سقفاً من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء فلما أحضرت بين يديه قال لوكيل صاحب مصر « لا والله لا أقبلها ولا أثقل عليه بذلك » ثم فتح الاسقاط وأخذ منها منديلاً وضعه تحت فخذه وأمر بالمال فحمل الى خزانة الديوان وصحح بها وأخذ به دوراً لصاحب مصر^(١)

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالعفة وصدق الخدمة علي بن عيسى وزير المقتدر وهو صاحب جريدة الخراج التي نشرناها صفحة ١١٤ من هذا الجزء . ولا يخلو ان يكون غيرهم قد أخلص الخدمة ولكن يقال بالاجمال ان الوزراء في عصر التقيتقر العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة الا طمعاً باختران الاموال . فان أبا الحسن ابن الفرات وزير المقتدر ثلاث دفعات الاولى سنة ٢٩٦ هـ بقي فيها ثلاث سنين فكان مقدار ما اجتمع عنده من المال يساوي ٧,٠٠٠,٠٠٠ دينار اخذت كلها مصادرة . ثم عاد الى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلع سنة ٣٠٦ ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخلع سنة ٣١٢ فمجموع المدة التي مكث بها في الوزارة في الدفعتين الاخيرتين نحو ثلاث سنوات فكان عنده لما خلع أخيراً ما يزيد على ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار وضياع يستغل منها كل سنة ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار^(٢) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه واحسانه . وكان اذا ولي الوزارة ينلو الثلج والشع والكاغد لكثرة استعماله له لانه ما كان يشرب احد كائناً من كان في داره في الفصول الثلاثة الا الماء المثلوج ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب الا وبين يديه شمعة كبيرة نقية . وكان في داره حجرة معروفة بحجرة الكاغد كل من دخلها واحتاج الى شيء منه اخذه^(٣) وكان يطلق لاصحاب الحديث عشرين الف درهم ولا شعراء

(١) الفخري ٢١٦ (٢) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٣) الفخري ٢٤٠

عشرين ألف درهم ولاصحاب الادب ٢٠,٠٠٠ درهم والفقهاء ٢٠,٠٠٠ درهم
والصوفية ٢٠,٠٠٠^(١) وكان يجري الرزق على خمسة آلاف من أهل العلم والدين
والبيوت والفقراء وأكثرهم ١٠٠ دينار في الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك^(٢)
فغطى الكرم طمعه كما غطى طمع البرامكة قبله وقطع السنة الشعراء وكسر
أقلام المؤرخين

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالاً طائلة وانغمسوا في أنواع الترف
والبذخ وذلك طبيعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة لان الوزراء كانوا يجمعون
الاموال الكثيرة حيثما كانوا في العراق أو في مصر أو الاندلس . فقد خلف المارداني
وزير بني طولون بمصر من الضياع الكبار ما قلما ملكه أحد قبله وارتقاها ٤٠٠,٠٠٠
دينار كل سنة سوى الخراج وقد وهب وأعطى وأفضل وحجج ٢٧ حجة انفق في
كل منها ١٥٠,٠٠٠ دينار^(٣) . ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان
في جملة املاكه اقطاع في الشام دخله ٣٠٠,٠٠٠ دينار في السنة وخلف أملاً كاملاً
وضياعاً وقياساً وورباعاً وخيلاً وبغالاً ونوقاً وغير ذلك ما قيمته ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار
غير ما انفق في تجهيز ابنه وهو ٢٠٠,٠٠٠ دينار وخلف ٨٠٠ حظية سوى
جواني الخدمة وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية^(٤) . وخلف الافضل
أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي ما لم يسمع بثله وذلك ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار
عيناً^(٥) و ٢٥٠٠ أردب دراهم نقد مصر و ٧٥,٠٠٠ ثوب ديباج أطلس و ٣٠ راحلة
احقاق ذهب عراقي ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢,٠٠٠ دينار ومئة مسمار

(١) ابن الاثير ٥٧ ج ٨ (٢) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ (٣) المقرئ
١٥٥ ج ٢ (٤) المقرئ ٦ ج ٢ (٥) وهو في الاصل ستمائة
الف دينار ولا بد من خطأ تطرق الى نصه اذ لا يعقل ان يجتمع هذا المال عند
واحد وهو يفوق مجموع خراج مصر لثمة سنة فالارجح ان يكون المراد ستين الف
الف دينار كما قلنا . ويستبعد ان يكون المراد دراهم بدل دنانير لان اموال مصر قلما
قدرت بالدرهم

من ذهب وزن كل مسمار مئة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الالوان ايما أحب لبسه و ٥٠٠ صندوق كسوة ما عدا الخيل والبغال والماشية والجواري والعبيد مالا يحصيه عد^(١) وقس على ذلك أحوال الوزراء في الاندلس فان هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هـ تدل على مقدار تلك الثروة فقد أوردتها ابن خلدون والمقري وفصلها هذا الاخير تفصيلاً حسناً في ثلاث صفحات كبيرة^(٢) وحدث نحو ذلك في الدولة العثمانية في أبان ثروتها وبعيدها فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة ويحتالون في استغلالها بان ينفقوها على بعض المساجد بشرط ان يستولي ورثتهم على معظم ريعها ليخلصوا انفسهم من خراجها او عشورها^(٣)

أما الابواب التي كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الاموال بها فكثيرة من جملتها قبول الرشوة في التوظيف كما تقدم وما يرد عليهم من هدايا اعمال للسبب نفسه . ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ماشاؤا بغير حساب ناهيك بما كانوا يمدون اليه أيديهم من أموال الخراج الواردة الى الديوان وقد تقدم ان طرق دفاتر تلك الايام لم تكن تمنع الاختلاس او تظهره ومن أبواب الكسب أيضاً ان بعض الموظفين كانوا يحتاجون الى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولا سبيل لهم الى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله اناساً يشترون توقعات ارزاق اولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقبضها هو كاملة^(٤) وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضاً في رواتب الفقهاء وأرباب البيوت فكانهم كانوا يقاسمون الناس على انصاف رواتبهم . وهو اتجار برواتب الموظفين فضلاً عن اتجارهم بالارزاق وعما كانوا يكتسبونه ممن يضمن بلداً او خراجاً على سبيل

(١) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ (٢) نفع الطيب ١٦٨ ج ١

(٣) Porters's Const. Hist. of Turkey, Ms. (٤) ابن الاثير ٨٤ ج ٨

الرشوة او الاقسام وما كانوا يقتصبونه من التجار بنفوذهم واغضاء الخلفاء عنهم^(١) وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة « مرافق الوزراء » وكانت مشهورة بين الناس . ومن مرافقهم ايضاً تنقيص عيار النقود فكانوا يضر بون الدنانير ناقصة فيرجون من ذلك مالاً طائلاً^(٢)

تلك كانت حال الوزراء وفي أيديهم الحل والعقد ومع ذلك فالخلفاء هم المطالبون بأرزاق الجند . وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم في الخلفاء ومطالبتهم بالاموال لارزاقهم ونفقاتهم فلم يكن يرى الخلفاء سبيلاً الى ذلك الا بمطالبة الوزراء فاذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة وهو ما يعبرون عنهم بالمصادرة . وكانت المصادرة رائجة في عصر التهمرد اذ لم يكن من سبيل الى سد نفقات الدولة الا بها ولا يكاد يتولى وزير الا انتهت وزارته بالمصادرة او بالقتل وبها جميعاً

﴿ المصادرة ﴾ : هي قديمة في الاسلام لتصل بعصر الراشدين وأول من صودر العمال . فكانوا اذا اكتسبوا مالاً من تجارة أو سبيل آخر غير مرتباتهم المفروضة أخذ الخلفاء نصفه وأضافوه الى بيت المال — كذلك فعل عمر بن الخطاب بعالمه على الكوفة والبصرة والبحرين^(٣) وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة . فلما أفضت الامور الى بني أمية وكان ما كان من استبداد عمالهم وطعهم في أموال الجباية أصبح الخلفاء في أواخر الدولة لا يملكون عاملاً عن عمله الا حاسبوه على ما عنده من المال واستخرجوا ما اتصل اليه أيديهم من أمواله وكانوا يسمون ذلك « استخراجاً »

ولما تسلم العباسيون منصة الخلافة كان معظم العمال في أوائل الدولة من اخوتهم وأعمامهم ولم يكن ثمة ما يدعو الى الاستخراج أو المقاسمة ولو ساءت سيرة

(١) الطبري ٧٠٣ ج ٣ (٢) ابن الاثير ١٤٩ ج ٨

(٣) اليعقوبي ١٨١ ج ٢ والبلاذري ٨٣ و ٣٨٥

بعضهم . ثم انتقلت الاعمال الى رجال الدولة من غير أهلهم فخنق العمال الى الطمع والعنف في استخراج الاموال حتى في أيام المنصور فكان لا يعزل عاملاً الا قبض ماله وتركه في بيت مال مستقل سماه « بيت مال المظالم » ^(١) وتكاثر تعدي العمال في أيام المهدي (سنة ١٥٨ - ١٦٩ هـ) فاضطر هذا الخليفة الى النظر في المظالم - وما هي الا مظالم العمال . ثم نظر فيها بعده الهادي فالرشيد فالأمأمون الى المهدي في أواسط القرن الثالث

ومن نبه الخلفاء الى مظالم العمال الوزراء لانهم كانوا يباشرون الاعمال عن الخلفاء وخصوصاً البرامكة فكانوا اذا استشارهم الخليفة في ولاية عامل بينوا له ما يعلمونه من هذا القبيل - استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد في تولية خراسان علي بن عيسى بن ماهان فأشار عليه ان لا يفعل فخالفه الرشيد وولاه اياها . فلما شخص علي اليها ظلم الناس وجمع مالا كثيراً ووجه الى الرشيد هدايا من الخيل والرقيق والثياب والمسك والاموال لم ير مثلاً قط . فلما وصلت الهدايا الى الرشيد أعجب بها وكان يحيى الى جانبه فقال له الرشيد « يا أبا علي هذا الذي أشرت علينا ألا نوليه هذا الثمر فقد خالفناك فيه فيكأن في خلافتك البركة » فقال « يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك انا وان كنت أحب ان اصيب في رأيي وأوفق في مشورتي فاني احب ان يكون رأي أمير المؤمنين أعلى وفراسته اثنى وعلمه اكثر من علمي . . . ان لم يكن وراء ذلك ما يكره . . . ان هذه الهدايا ما اجتمعت لهذا العامل حتى ظلم فيها الاشراف وأخذوا كثرها ظلماً وتعدياً . ولو أمرني أمير المؤمنين لاتيته بضعفيها الساعة من بعض تجار الكرخ »

قال الرشيد « وكيف ذلك » قال « قد ساومنا عوناً على السفط الذي جاء به من الجوهر فأعطيناه به ٧,٠٠٠,٠٠٠ فأتى ان يبيعه فأبعث اليه الساعة بحاجي يأمره ان يرده الينا لنعيد فيه نظرنا فاذا جاء به حمدهنا وربحنا ٧,٠٠٠,٠٠٠ ثم

كما نفعل بتاجرين من كبار التجار مثل ذلك» ^(١) وفي كلام يحيى دليل صريح على ما كان يستطيعه الوزراء والعمال من جمع الاموال بلا حساب وقد رأيت ان الطمع تطرق الى العمال حتى في أيام الزهو العباسي ولكن البرامكة اخلصوا المشورة فغفلوا أيدي العمال عن الظلم . فلما نكب البرامكة كان في من جاء بعدهم من الوزراء المخلص وغير المخلص فأطلقت أيدي العمال وأحرزوا الاموال لانفسهم وكانوا يسترضون الوزراء بالرشوة كما تقدم حتى استفحل أمرهم واكتنزوا الاموال الطائلة

﴿العمال﴾ : وغنى العمال ميسور في تلك الاعصر بالنظر الى استقلالهم في ادايتهم وشؤونهم وخصوصاً عمل الاستيلاء المفوضين في كل شيء . وأبواب الكسب عندهم كثيرة : منها ان العامل اذا جاء عمله فأول شيء يتوقعه ان يحمل اليه الناس الهدايا وفيها الدواب والجواري والاموال والثياب ما يبلغ مقداره شيئاً كثيراً ^(٢) وقد يترك ذلك في مقابل ما يقدمه العمال من أمثال هذه الهدايا الى الخليفة او الوزير او القهرمانه او الكاتب او الحاجب او غيرهم من حاشية الخلفاء ^(٣) على انهم كانوا يكتسبون من مصادر أخرى كالالتجار بأصناف البضائع والاشخاب وغيرها ^(٤) ناهيك بما كانوا يخترعونه من صنوف الضرائب وتحصيل بعضها مرتين أو ثلاث مرات تبعاً لما تقتضيه حاجتهم الى المال في ارضاء الوزراء اولادخاره والانتفاع به عند الاعتزال من المنصب . ومن أوسع أبواب الضرائب كسباً لهم المكوس على التجارة . فقد ذكر المقدسي ان ثلث أموال تجار اليمن كان يذهب الى السلطان ^(٥) وكانوا يأخذون على حمل الخنطة هناك نصف دينار ومن أبواب الكسب للعمال ان ينفق العامل على بناء بيت او جسر او على حفر

(١) الطبري ٧٠٢ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٥١ ج ٦

(٣) Ein. Abb. 80 (٤) المقرئ ١٠٩ و ٣٣٣ ج ١

(٥) المقدسي ١٠٤

ترعة أو نهر الف دينار مثلاً ويطالب بعشرة آلاف أو مئة ألف وربما قدروا ما ينفقون فيه عشرة دنانير بـ مئتين ألف دينار ^(١) فضلاً عن اغتصاب الضياع وغيرها ^(٢) وما قد يجتمع لهم من فروق الاموال التي يقبضونها من الخراج بين الفضة والذهب — فهل من عجب بعد ذلك اذا بلغت أموال محمد بن سليمان عامل الرشيد على البصرة ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ؟ وكان محمد هذا يفلّ كل يوم ١٠٠,٠٠٠ درهم ^(٣) وبلغت أموال علي بن عيسى ابن ماهان ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ^(٤) فلم ير الرشيد الا الجنوح الى الاستحراج وهو المصادرة

وكان الغالب في بادئ الرأي ان يقبضوا أموال العمال بعد موتهم كما فعلوا بمحمد بن سليمان المذكور ثم صاروا يستخرجون اموالهم وهم أحياء كما فعل الرشيد بعلي بن عيسى فانه عزله واستصفي أمواله المذكورة وحملها مع خزانته واثاثه على ١,٥٠٠ جمل غير ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم كان ابنه عيسى بن علي قد دفنها في بستان بداره في بلخ ^(٥)

﴿ مصادرة الوزراء ﴾ : على ان مصادرة العمال لم يطل امرها لاستقلالهم بأعمالهم بعد قليل فأصبح المطلوب منهم لبيت المال في الغالب مالا معيناً في العام على سبيل الضمان ونحوه . وتحوّلت الثروة المكتسبة الى الوزراء وفسدت النيات فلم يجد الخلفاء سبيلاً لسد عوز بيت المال الا بمصادرتهم -- لا يرون في ذلك جوراً ولا شدة لاعتبارهم ما في ايديهم من مغلّات من حقوق بيت المال

بدات مصادرة الوزراء في الدولة العباسية من اولها ولكنها كانت في اول الامر على سبيل النكبة والغرض منها الانتقام من الوزير لجريرة سياسية او التخلص منه لغرض آخر . ومن هذا القبيل مقتل ابي سامة الحلال اول وزراء بني العباس فبعد ان أيد دعوتهم بأمواله كما ايدها ابو مسلم الخراساني بسيفه وشي الى

(١) Ein. Abb. 76 (٢) المساوردي ٧٨ (٣) المسعودي ١٨٨ ج ٢

(٤) الطبري ٧١٣ ج ٣ (٥) ابن الاثير ٨١ ج ٦

السفاح انه ينوي اخراج الدولة من ايديهم فأوعز الى ابي مسلم فقتله ثم أصاب ابا مسلم من المنصور مثل تلك النكبة - ويقال نحو ذلك في نكبة البرامكة في ايام الرشيد والفضل بن مروان في ايام المعتصم . وفي نكبة الفضل هذا رغبة في قبض امواله لان المعتصم نكبه سنة ٢٢١ هـ واخذ من داره ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار واكثر^(١) وآتية قيمتها ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار^(٢) . ولما تمكن الانحطاط من الدولة صار الغرض من مصادرة الوزراء مجرد الاستحواذ على اموالهم

وبلغت المصادرة معظمها في ايام المقتدر (سنة ٢٩٥ - ٣٣٠ هـ) لان الوزراء استخفوا به لصغر سنه وافضى تدبير الامور في أيامه الى امه ونسائه وخدمه . فكانت دولته تدبر امورها على تدبير النساء والخدم فخربت الدنيا وختل بيوت الاموال وخلع واعيد ثم قتل^(٣) وكثر تبديل الوزراء في أيامه وكثرت مصادراتهم . وأولهم ابن الفرات وزرله ثلاث مرات وقد تقدم ذكر ما احتشده من الاموال وقد صودر فأخذت كلها منه . وخلفه الخاقاني وكان سيء السيرة كما تقدم . ثم علي بن عيسى وكان فاضلاً ورعاً حاضماً اصلاح الامور فلم يستطع تمكن الفساد من عروق الدولة . ثم حامد بن عباس وكان قاسي القلب في استخراج الاموال . ووزر له عبيد الله بن محمد . واحمد بن عبيد الله بن الحضيبي . ومحمد بن علي بن مقلة الخطاط الشهير . وسليمان بن الحسن بن مخلد . وعبيد الله بن محمد الكوازي . والحسين بن القسم^(٤) وما من وزير الا قبض او صودر فأخذت امواله وسجن أو قتل . وكثرت المصادرات في أيام المقتدر لغير الوزراء حتى القضاة والنساء والخدام . وربما زاد مجموع ما قبضه من المصادرة على ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار - على انهم قدروا جملة ما انفق من الاموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجه نيفاً و ٧٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار سوى ما أنفق في الوجوه الواجبة^(٥) وقس على ذلك أحوال سائر الوزراء

(١) ابن خلكان ٤١٥ ج ١ (٢) الفخري ٢٣٦

(٣) الفخري ٢٣٩ - ٢٤٩ (٤) ابن الاثير ٩٠ ج ٨

فأصبحت المصادرة بتوالي الايام المرجع الرئيسي في تحصيل المال - فالعامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال والخليفة يصادر الوزراء و يصادر الناس على اختلاف طبقاتهم . على ان الخلفاء لم يكونوا يعمدون الى المصادرة الا عند حاجتهم الى المال لأرزاق الجند أو لغيرها من نفقات الدولة كما تعتمد دول أوروبا اليوم الى عقد القروض لسد ما يعرض لها من النفقات اللازمة لحرب أو مشروع كبير وكان الخلفاء يعتبرون اموال أولئك الوزراء او العمال حقاً لبيت المال قد اغتصبوه فاسترجاعه لا يعد جوراً أو اجحافاً . وقد نجام ذلك من ائصال الدين الاهلي الذي تئن تحت عبئه معظم دول العالم المتمدن اليوم فيذهب نحو ربع دخلها أو ثلثه في وفائه أو استهلاكه وتضطر الى استنباط الضرائب من أجل ذلك حتى أصبحت تلك الدول وخصوصاً انكاثرا تكلف الناس جملاً على كل عمل يرجون به كسباً

(الكتاب) : وهناك فئات أخرى من موظفي الدولة كانوا يستأثرون بأموالها ومنهم كتاب الخراج ويهون ذلك عليهم لانهم يباشرون مصادر الجباية رأساً . وقد كانوا يطعمون بتلك الاموال في أيام بني أمية فما بعدها . ولكنهم لم يشع امرهم ويخش شرم الا في عصر التتقر العباسي . فأمر الواثق سنة ٢٢٩ هـ بحبس الكتاب والزائم مالا كثيراً استخرجه منهم بالعنف^(١) وفعل نحو ذلك المعتز سنة ٢٥٥ هـ^(٢) . ومن الكتاب الذين اشتهروا بالغنى من مهنة الكتابة بيت المارداني بمصر^(٣)

ولم يكن الغنى خاصاً بكتاب الدواوين بل كان يتناول كل كاتب من كتاب اهل الخلفاء وغيرهم . وكانت اكثر اموالهم تؤخذ بالرشوة والاختلاس حتى اشتهروا بالظلم كما اشتهر الوزراء وهجام الشعراء كما هجموا هؤلاء - من ذلك قول بعضهم وهو يمدح احد الامراء بالحزم والسهر على مصلحة الدولة :

(١) الطبري ١٣٣٠ ج ٣ (٢) ابن الاثير ٨٥ ج ٧

(٣) المقرئ ٣٣١ ج ١

هو ما علمت من الامير فما الذي تزداد منه وفيه لا يرتاب
لا لتقي الاجناد في ايامه فقراً ولا يرجو الغنى الكتاب
وقال ابن حبيبات الشاعر الكوفي يهجو الوزير والكاتب معاً:
ونجا خالد بن برمك منها اذ دعوه من بعدها بالامير
اسوا العالمين حالاً لديهم من تسمى بكاتب او وزير^(١)

وكان من ابواب الكسب عند الكتاب ارتشاؤهم للنوسط في تولية العمال او
سوام كما فعل احمد بن ابي خالد الاحول كاتب اأمون في توسطه لدى اأمون
بثولية طاهر بن الحسين خراسان وقد شرط له على نجاحه في ذلك ٣,٠٠٠,٠٠٠
درهم^(٢) وكان كتاب الدواوين في الولايات يشاركون العمال في ما يأتيهم من
الهدايا او من الرشوة وقد يقاسمونهم على النصف^(٣)

(الحجاب) : وكانت ثروة المملكة عرضة لمطامع كل من كانت له دالة او
وساطة لدى ولاية الامر وخصوصاً الحجاب الذين يقفون بأبواب الخلفاء فانهم من
اكثر الناس دالة عليهم فكانوا كثيراً ما يستخدمون تلك الدالة لاكتساب الاموال
من تقديم الداخلين او تأخيرهم والاذن لهم او منعهم فكانوا يرتشون للتعجيل في
الاذن بالدخول على الخلفاء وكان ذلك شأنهم حتى في عصر الراشدين - قال المغيرة
ابن شعبه « ربما عرق الدرهم في يدي ارفعه ليرقا ليسهل اذني على عمر »^(٤) وكثيراً
ما كانوا يتوسطون في تولية المناصب بالرشوة كما توسط الربيع حاجب المنصور
ليعقوب بن داود بمنصب الوزارة برشوة مقدارها ١٠٠,٠٠٠ دينار^(٥) ويقال نحو
ذلك في كل من يتوفق الى دالة على الخليفة او الامير ولو كان خادماً

(١) الفخري ١٥٨ (٢) اليعقوبي ٥٥٤ ج ٢

(٣) الفخري ٩٩ ج ١ (٤) الاعلاق النفيسة لابن رسته ١٩٥ ج ٧

(٥) الفخري ١٦٦

الخلاصة

وخلاصة ما تقدم ان الدولة العباسية لما غلب الجند على أمرها واستبدت قواد الاثراك بها تحوت ثروتها من بيت مالها الى أيدي رجالها ممن ينوبون عن الخليفة اوتوسطون بينه وبين الرعايا كالعمال والوزراء والكتاب والحجاب ونحوهم . وأصبح الخلفاء لا يستطيعون استبقاء حكومتهم الا باغتنصاب أموال اولئك الموظفين فكانوا كالذي يغتذي بأكل لحمه فأل ذلك الى انحلال أمر الخلافة بعد ان بلغت غاية الضعف

وقد يتبادر الى الازدهان ان ثقل الضرائب دخلاً كبيراً في سقوط الدولة العباسية وقد رأيت ان الضرائب كانت ثقيلة في عصر الزهو العباسي - عصر الثروة والعلم ولم يكن الناس يشكون ثقلاً . بل ساءت حالهم منذ خفضت الضرائب - ليس لان تخفيض الضرائب يسوء الناس ولكن تخفيضها في تلك الايام قلل مصادر الثروة الواردة الى بيت المال فزادت حاجة أصحاب المطامع من رجال الدولة وكانت الاحوال قد اخلت بفساد النيات للاسباب التي ذكرناها فزال الامن واخل النظام العام فنقاعد الناس عن العمل وقلت وارداتهم وعجزوا عن أشباع مطامع رجال الدولة . فعمد هؤلاء الى العنف في استتراج الاموال فتعاظم الاضطراب وتضاعف الضيق في الناس حتى سئموا الحياة في دولة لا يؤمنون فيها على أرواحهم ولا أموالهم

ولو كانت كثرة الضرائب تخرب الممالك لكانت انكسرت من أقرب الدول الى الحزب لما فيها من أصناف الضرائب التي لم يحلم بها العرب ولا خطرت ببالهم . لانها فضلاً عن ضرائبها على المصولات والواردات على اختلاف أصنافها تقاسم الناس أرباحهم فتأخذ ضريبة على الايراد وجعلاً على اية مهنة يريد الناس معاطاتها حتى الحاماة والطب في مقابل الاذن لهم في الاشتغال بها . والجعل المذكور ثقل يختلف في من ينال أية رتبة من رتب القضاء من خمسين جنياً الى

عشرين . وقس على ذلك رسوم الاطباء والصيدالة والمحامين حتى الخطباء والوعاظ وعلى البنوك وأوراقها وعقودها وعلى الزواج والطلاق وغير ذلك فيجتمع لها من هذه الرسوم أموال كثيرة

وأما ضرائب الايراد عند الانكليز فانها تشمل كل عمل يتكسب منه الناس حتى الوعاظ والخطباء . فكيف بأصناف التجارات والصنائع والبنوك وغيرها . والدولة الانكليزية كلما احتاجت الى مال عدلت ميزانيتها بزيادة الضرائب وخصوصاً على الايراد واكثر ما تكون حاجتها الى المال في حال الحرب كما فعت بميزانية سنة ١٩٠١ في أثناء حرب الترانسفال فقد قدرت دخلها لذلك العام ١١٧,٠٠٠,٠٠٠ جنيه وخرجها ١٥٤,٠٠٠,٠٠٠ والفرق بينهما ٣٧,٠٠٠,٠٠٠ سددت معظمه بزيادة الضرائب وكانت ضريبة الايراد ثمانية بنسات على الجنيه أي نحو $\frac{1}{3}$ في المئة فجمعتها شيئاً في كل جنيه أي خمسة في المئة . فكان مقدار ما اجتمع لها من تلك الزيادة نحو ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه وفرضت ضريبة اضافية على البيرة بلغت قيمتها ١,٧٥٢,٠٠٠ جنيه وضريبة على سائر الخور قيمتها ١,٠١٥,٠٠٠ جنيه وعلى التبغ ١,١٠٠,٠٠٠ وعلى الشاي ١,٨٠٠,٠٠٠ جنيه وغير ذلك . فلما انقضت الحرب عمدت الحكومة الى رفع تلك الاضافات فخفضت ضريبة الايراد اربعة بنسات أي انها ارجعتها الى ما كانت عليه فقلت حصة الحكومة من الايراد ٨,٥٠٠,٠٠٠ جنيه وخفضت أيضاً ضرائب القمح وغيره

وجملة القول ان انكلترا مع كثرة ضرائبها وما اثقل كاهلها من الديون فانها تعد من أثبت الدول قدماً وأوفرهن ثروة . فتخفيض الضرائب لاشك انه رحمة للناس ولكن زيادتها لاتدعو الى الخراب وانما يدعو الى خراب الممالك « الظلم » فانه يقوض أركان الدول بما يدعو اليه من تقييد الايدي عن العمل فيقع الزارع عن زراعته والتاجر عن تجارته والصانع عن صناعته — ولا مال الا اذا اشتغل هؤلاء ولذلك قولوا « العدل أساس الملك »

فالدولة العباسية لما أصبحت بعد المعتصم غنية الاجناد الغرباء يحملون أموالها

الى بلادهم وأصبح الوزراء والعامل انما يعملون لحشد الاموال وامسى الخليفة لاسلطان له حتى على قصره وبين غلمانه وجواريه تجمعت تلك الاثقال على رؤوس الرعية لان الجباية منهم فطالوبهم بها بدون ان يساعدوهم على اسغلالها فساءت حالهم كما علمت . أما دول هذه الايام فأساس نظامها الحرية الشخصية والمبادي الاقتصادية فلا يطالب أحد من الناس الا بما يقتنع هو انه حق صريح والا فانه يتظلم وظلامته مسموعة — وسنعود الى هذا البحث في بعض الاجزاء التالية

ثروة المملكة العباسية

أي البلاد وأهلها

فرغنا من الكلام في ثروة الدولة العباسية ورجالها وبقي علينا النظر في ثروة المملكة وهي البلاد بما فيها من الناس على اختلاف طبقاتهم من أهل التجارة والزراعة والصناعة وغيرهم . وكانت البلاد قسمين المدن والقرى :

﴿ المدن ﴾ : كانت المدنية محصورة في المدن دون القرى عملاً بقاعدة التمدن في تلك الايام وهي ان تكون الثروة والابهة حيثما يكون ولاية الامر أو من يلوذ بهم من الخليفة الى أهله فأهل بلاطه فعالة ووزرائه . وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن وخصوصاً العواصم ولذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والقاهرة والقاهرة والقيروان وقرطبة وغرناطة ونحوها وظلت القرى والضياح مغارس لا عمارة فيها ولا تكاد تجد أثراً من آثار ذلك التمدن في غير المدن

ففي هذه المدن فاضت ينابيع الثروة الاسلامية وعاش الناس في الرخاء والرخاء بجوار الخليفة ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخلعهم وبيعتهم السلع والجواهرات والاقمشة . وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمغنون والندماء يتعيشون بما يجود به الخليفة أو أمراؤه او رجال دولته

ويمثل طبقات الناس في تلك الايام قول الفضل بن يحيى « الناس أربع طبقات ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي وعلية انهمهم اليسار وأوساط الحقهم بهم التأدب والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غشاء لكع ولكاع وريطة اتضاع هم أحدهم طعمه ونومه » (١)

وقد جعل ابن خلدون عطاء السلطان أصل ثروة المملكة وعلة كثرة جبايتها لاغيره ان الدولة او السلطان السوق الاعظم للعالم ومنها مادة العمران قال : « فاذا احتجج السلطان الاموال او الجبايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قلَّ حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية وانقطع أيضاً ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلة نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للاسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ في الاسواق وتضعف الارباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك لان الخراج والجباية انما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلة أموال السلطان حينئذ بقلة الخراج . فان الدولة كما قلناه هي السوق الاعظم أم الاسواق كلها وأصلها ومادتها في الدخل والخرج فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل ذلك وأشد منه » اهـ

فالمدن الاسلامية كانت مؤلفة من الملوك وهم الاصل ثم رجال الدولة وانما يكونون كذلك لان الملوك يختارونهم لفطنتهم . ثم الاغنياء واخيراً الاوساط وهم جمهور الناس ويكونون كما يشاء اولئك . وذلك يخالف حال الحياة الاجتماعية في هذا العصر عصر الحرية الشخصية فالناس فيه مستقلون بأعمالهم كل منهم يعد نفسه عضواً من اعضاء ذلك المجتمع لا يستغنى عنه سواء كان صانعاً او كاتباً او تاجراً او موظفاً أما في العصر العباسي فقد كان اهل المدن عالة على الخلفاء والامراء فتقوم آمالهم حولهم - بانتقون ما يجودون به عليهم وهؤلاء انما يجودون مما يصل اليهم

من أموال الجباية فاذا كثرت اكلتوا واذا قلت اقلوا . والجباية من الخراج والخراج على الارضين والارضون انما يعمل بها الفلاحون وهي القرى . فالثروة العباسية مصدرها من القرى وتجمع من عرق الفلاحين — والفلاح اساس الثروة في كل العصور وخصوصاً في البلاد الزراعية . وهو في الغالب اقل الناس حظاً منها وخصوصاً في عهد التمدن القديم او ما نسج على منواله اذ كانت الثروة والقوة في ايدي فئة الحكام او من ينوب عنهم او ينتمي اليهم ويبقى سائر الناس اعواناً او اتباعاً او خدماً او عبيداً . يشتغلون اما بالصناعة لاصطناع ما قد يحتاج اليه اولئك من اصناف الابنية والالبسة والاثاث والمجوهرات او لخدمتهم في قصورهم بالطبابة او الكتابة او لتتبع سمعهم وبصرهم بالغناء والعزف او لترطيب قلوبهم بالنظم والنثر ونحوهما . واما للفلاحة في الارض واستغلالها والفلاحون هم الفئة الكبرى من الناس في كل زمان . وسنفصل ذلك في الجزء المختص بالآداب الاجتماعية من هذا الكتاب

فالثروة في المدن تابعة لثروة الحكومة اورجالها لاسباب التي قدمناها . فلما كان بلاط الرشيد غاصاً بالوفود وبيت ماله حافلاً بالنقود والبرامكة يبدلون المئات والالوف كان تجار بغداد في نعمة وثروة وخصوصاً باعة المجوهرات والرياش لانها مما تتطلبه المدنية في عهد الترف والبذخ . فقد رايت في بعض ما تقدم ان جوهرياً بالكرخ في بغداد ساومه بحبي البرمكي على سفظ من الجوهر بمبلغ ٧,٠٠٠,٠٠٠ درهم فلم يبعه^(١) وهو جزء مما في حانوته فاقواك بسائر ما فيه . وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صادرة الخليفة المتنذر سنة ٣٠٢ هـ فكان ما اخذوه من بيته من صنوف الاموال تزيد قيمته على ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار^(٢) وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر . بلغ خراج املاكه ٢,٥٠٠,٠٠٠ درهم في السنة^(٣) . وقس على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها . فقد كان في اصطخر بيت ينسب الى آل حنظلة احدهم عمرو بن عيينة بلغ من يساره انه

اتباع بليون درهم مصاحف فرقها في مدن الاسلام وكان مبلغ خراج هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم . ومنهم مرداس بن عمر كان خراج ماله ٣,٠٠٠,٠٠٠ وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه ^(١) . وكان في سيراف تجار واسعو الثروة يجوز مال أحدهم ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والابنوس والفلفل وغيرها ^(٢) . ومنهم من بيني داراً فينفق على بناتها ٣٠,٠٠٠ دينار ^(٣) وأوصى أحدهم بثلاث ماله لعمل فبلغ ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار بين مركب قائم نفسه وآلته ^(٤) وأمثال ذلك كثير في معظم مدن المشرق

وقس عليه ثروة كل من خالط الخلفاء ونال جوائزهم أو خدمهم في بلاطهم في أبان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والعمال فانهم جمعوا أموالاً طائلة حتى المغنين والشعراء . فقد توفي ابراهيم الموصلي مغني الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم ^(٥) وتوفي جبريل بن بختيشوع طبيب الرشيد وخلف مايساوي ٩٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر وتقود (صفحة ١٥١)

واعتبر ذلك في سائر البلاد والاحوال فتجد الثروة كانت في الغالب عند الخلفاء او من ينتمي اليهم . حتى التجار فانهم انما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتاء الى اولى الامر الا نادراً

(القرى) : اما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من اهل البلاد الاصليين ويسمونهم « اهل الحراج » فهؤلاء يعملون بالاجرة او شركاء لاصحاب الاملاك من الخلفاء او الامراء او من ينتمي اليهم من الاعيان وخصوصاً الدهاقين في العراق وفارس وهم اصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام فلما كان الاسلام تقربوا من الحكومة باموالهم ^(١) ونفوذهم في اهل بلادهم

(١) الاصطخري ١٤٢ (٢) الاصطخري ١٥٤ (٣) ابن حوقل ١٩٨

(٤) ابن حوقل ٢٠٧ (٥) سير الملوك ١١٣ (٦) ابن الاثير ١٠١ ج ٥

ويندر ان يكون للفلاحين ملك خاص بهم لاسباب تقدم يانها
فسكان القرى هم الفلاحون ومن يجري مجراهم وكانوا يقتنعون بالحصول على
ما يقوم باود حياتهم ويغلب فيهم الفقر المدقع وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول
عمره فكان اهل الدولة في المدن يبدلون الدنانير جزافاً ويهبونها مئات وآلافاً واهل
القرى في فقر مدقع لو رأى احدهم الدينار لسجد له وقبله مثنى وثلاثاً ولو دفعت اليه
عشرة دنانير او عشرين لاصابه خبلٌ او مات من ساعته كما اتفق للصياد بين يدى ابن
طولون امير مصر في اواسط القرن الثالث للهجرة وهو مشهور بكرمه وبذخه بما
انشأه من القصور والغياض والاسطبلات. وكان ينفق كل شهر الف دينار على الفقراء
وهو الذى جاء وكيله يوماً فقال « اني تأتيني المرأة وعليها الازار وفي يدها خاتم الذهب
فتطلب مني فاعطيها » فقال له « من مدَّ يده اليك فاعطه »^(١) ومع ذلك فان هذا
الامير نفسه ركب في غداة باردة الى جهات المقيس بجوار القسطنطين فاصاب بشاطئ النيل
صياداً عليه خناق لا يواريه منه شيءٌ ومعه صبيٌ في مثل حاله وقد اتى الشبكة في البحر
فلما رآه ابن طولون رق لحاله وقال يانسيم ادفع الى هذا عشرين ديناراً فدفعها اليه
ولحق ابن طولون فسار ولم يبعد ورجع فوجد الصياد ميتاً والصبي يبكي ويصيح فظن
ابن طولون ان بعض سودانه قتله واخذ الدنانير منه فوقف بنفسه عليه وسال الصبي
عن ابيه فقال له الغلام « هذا (وأشار الى نسيم الخادم) دفع الى ابي شيئاً فلم يزل يقلبه
حتى وقع ميتاً » فقال « فتشه يانسيم » فنزل وفتشه فوجد الدنانير معه بمجالها فخرض الصبي
ان يأخذها فأبى وقال « هذه قتلت ابي وان اخذتها قتلتني » فأحضر ابن طولون قاضي
المقيس وشيوخه وامرهم ان يشتروا للصبي داراً بمئة دينار تكون لها غلة وان
تجس عليه وكتب اسمه من اصحاب الجرايات وقال « انا قتلت اياه لان الغنى يحتاج الى
تدريج والاقول صاحبه هذا كان يجب ان يدفع اليه دينار بعد دينار حتى تأتية هذه
الجملة على تفرقة فلا تكثر في عينه »^(٢)

فاذا كان هذا حال رجل من اهل ضواحي العاصمة فكيف بأهل القرى البعيدين
عن ترف الدولة وبذخها وجراياتها ووظائفها ؟

المدن الاسلامية

نريد بالمدن الاسلامية ما بناه المسلمون من المدن لانفسهم . وهي غير ما افتخروا من مدائن الروم والفرس . والمدن الاسلامية عديده في العراق والشام ومصر وافريقية والاندلس وغيرها ومنها ما لم يزل عامراً الى اليوم كالبصرة وبغداد والقاهرة ومنها ما انقرض وعنت آثاره كالفسطاط والزهراء . وسنذكر اشهرها ونصف ما بلغ اليه عمرانها في ابان التمدن الاسلامي نتمه لموضوع هذا الجزء . ولكننا نقول قبل ذلك كلمة اجمالية في ما حمل العرب او المسلمين على انشاء تلك المدن

كان المسلمون في صدر الاسلام عرباً اهل خيام وماشية وخيل يكرهون الاقامة ضمن الاسوار وينفرون من الانحصار في المدن . فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الامصار في العراق والشام ومصر كانوا في بادىء الراي اذا ساروا الى غزو او فتح اصطبلوا نساءهم وعيالهم فاذا فتحوا بلاداً اقاموا في ضواحيها يتفادهم واخيتهم وهو معسكرهم . وكان عمر بن الخطاب يشترط على جنك المسلمين في الامصار ان لا يقبلوا في مكان يحول الماء فيو بينهم وبينه حتى اذا اراد ان يركب راحلته اليهم ركب . كذلك فعل عمرو بن العاص في الفسطاط وسعد بن ابي وقاص في الكوفة^(١) والبصرة وكانت كلها مضارب لجند العرب اللاتحين يعبرون عنها بالرابطة او المعسكر فاذا طال بهم المقام اختلطوا الاسواق وبنوا المنازل والقصور . ذلك كان شأنهم في صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة والفسطاط على هذه الصورة فلما ضخم ملك العرب وتعددت دول المسلمين صاروا يخططون المدن تذكراً لفتحهم او تحصيناً بها من اعدائهم — كما فعل المصور ببغداد فانه بناها حصناً له وكذلك فعل الناطبيون بالقاهرة . وكثيراً ما كان الخلفاء يبنون المدن للنتزه بها ولاتعداداً عن الغوغاء مثل سامراً والمنوكية والزهراء وغيرها ما يطول بنا ابراده فلنات الى وصف اشهر المدن الاسلامية في ابان ثروتها

كثيراً ما وصف المؤرخون المسلمون المدن الاسلامية كما يصف السياح اليوم ما يزورونه من المدن العظمى ولكنهم لم يذكروا عدد سكان تلك المدن

او مساحتها الا نادراً . وانما كان مهم تعدادها في تلك المدن من الجماع
والحانات والغالب ان يبالغوا في ذلك الى ما يتجاوز طور التصديق كما ستري .
واليك وصف اشهر المدائن الاسلامية مرتبة باعتبار قدمها
البصرة

هي من اقدم المدن التي بناها المسلمون و اقدمها ولا تزال باقية الى الآن . مصرها
عنتبة بن غزوان سنة ١٦ للهجرة^(١) وقد اتخذها العرب في باديه الرأي معسكراً في
مكان لا يحول الماء بينه وبين مكة فكان من البصرة على الضفة الغربية للفرات الى مكة
رمال وجبال وسهول لا يفصل بينها نهر . وبنوها اولاً بالقصب ثم خافوا الحريق فبنوها
بالطين باذن عمر كما سيأتي في الكلام عن الكوفة . وجعلوا المدينة خططاً بحسب
القبائل لكل قبيلة خط وجعلوا عرض شارعها الاعظم ستين ذراعاً وهو مربدها
وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً . وجعلوا عرض كل زقاق سبعة اذرع
ووسط كل خط رحبة فسيحة لمرباط خيولهم وقبور موتاهم وتلاصقوا بالمنازل^(٢)
ونظراً لموقعها التجاري فرضه للعراق ووسطاً بين الشام وفارس اسرع اليها العيران
واتخذتها الحكومة مقراً لامارة العراق في ايام بني امية . فعمرت البصرة في ايامهم
وانتمعت عمارتها حتى بلغت مساحتها في اماره خالد بن عبد الله (النسري) فرسخين
في فرسخين اي ٢٦ ميلاً مربعاً في ارض منبسطة لاجبال فيها وذلك اوسع من مدينة
القاهرة مع زيادة عمارتها اليوم

وكثرت ثروة البصرة في ايام العباسيين لاجتماع التجار فيها وتجارانهم تمتد شرقاً
الى الهند والصين وغرباً الى اقصى بلاد المغرب وجنوباً الى الحبشة . وكانت السفن
ترسو في مينائها وتحمل اصناف التجارات من الاقمشة والاطياب وغيرها وتكاثرت
الثروة فيها بتكاثر الناس القادمين اليها للتجار او الاقامة فابنوا فيها القصور
والحدائق وانشأوا الميادين والبرك — قال ابن حوقل « وهي موصوفة بالمجالس المحسنة
والمناظر الانيقة والميادين العجيبة والنواكه البديعة والبرك النسيجة لا تخلو من
المنتزهين ولا نعري من المنظرين مخدر بن مصعبين . . »
وكانت مياه البصرة مرسى مئاث من السفن التجارية . وقد ذكرنا في مكان آخر

(١) ابن الفقيه ١٨٨ (٢) الماوردي ١٧١

مقدار ما كانت الحكومة تجنيه من تاجر واحد من تجارها وهو نحو ١٠٠,٠٠٠ دينار في العام . ففس علو التجار الآخرين وفيهم الكبير والصغير واشتهر اهل البصرة بالاسفار التجارية الى كل الجهات حتى ضرب المثل في ذلك فقالوا « وابعد الناس نجمة في الكسب بصريّ وخوزيّ ومن دخل فرغانة (في الشرق) والسوس الاقصى (في الغرب) فلا بدّ من ان يرى بها بصرياً او خوزياً (من اهل خوزستان) او حيرياً (من اهل الحيرة) » ^(١) وشأنهم في ذلك شأن السوريين اليوم او هو دأبهم من عهد الفينيقيين

وقد نقلنا في الصفحة ٨١ من الجزء الاول من هذا الكتاب ما قاله الاصطخري عن سعة مدينة البصرة وعدد انهارها على ايام بلال بن ابي بردة (سنة ١١٨ هـ) ^(٢) وانها زادت على ١٢٠,٠٠٠ نهر تجري بها الزوارق وان الاصطخري نفسه شك في صحة هذا العدد كما يشك كل من يقرأه . فذهب بنفسه لمشاهدة المكان في القرن الرابع للهجرة فلما عاينه قال « وقد كنت انكر ما ذكر من هذه الانهار في ايام بلال حتى رأيت كذباً من تلك البقاع فرمياً رأيت في مقدار رمية سهم عدداً من الانهار صغاراً تجري في كهها زوارق صغار ولكل نهر اسم ينسب الى صاحبه الذي احتفوا او الى الناحية التي يصب فيها فعيوزت ان يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها » ^(٣) وقال نفس هذا القول ابن حوقل في عرض كلامه عن البصرة ^(٤) . ومع ذلك ما زلنا نستذكر هذا العدد حتى رأينا عالماً دقيق الملاحظة اقام في البصرة اعواماً طويلاً وخبر ارضها فذكرنا له ذلك فهو علينا تصديقه بما بينه لنا من سعة البصرة في تلك الايام وحفر الانهار وامكان اشبا كما بحيث نغول الى مجار قصيرة هم يسبون كلاً منها نهراً — وبؤيد ذلك انهم لا يريدون بالبصرة المدينة فقط التي ذكرنا ان مساحتها ٣٦ ميلاً مربعاً وانما يضمنون اليها ما يتبعها من المغارس الى عبادان عد مجر فارس مع ما كانت عليه من المحصب وكثرة الغرس — قال ابن حوقل والاصطخري « ولها نخيل منصلة من عبدسي الى عبادان نيفاً وخمسين فرسخاً منصلة لا يكون الانسان منها بمكان الا وهو في نهر ونخيل او يكون بحيث يراها » — فاعبر هذه

(١) ابن الفقيه ١٩١ (٢) ابن الاثير ٩٣ ج ٥ (٣) الاصطخري ٨٠

(٤) ابن حوقل ١٥٩

المسافة طولاً في مثل نصفها عرضاً على الأقل اي ١٥٠ ميلاً في ٧٥ وذلك ١١,٢٥٠ ميلاً مربعاً فبفعل ان يكون في الميل الواحد عشرين صغيراً والله اعلم
الكوفة

بنيبت الكوفة بعد البصرة ببضعة اشهر بناها سعد بن ابي وقاص . ويقال في سبب بنائها ان سعداً بعد ان فتح العراق وتغلب على الفرس نزل في عاصمتهم المدائن ثم بعث الى الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة وقد أخبره بذلك الفتح . فلما وصل الوفد الى عمر رأى الناس قد تغيرت وحالم قد تبدل فسأله عن سبب ذلك فقالوا وخومة البلاد غيرتنا . فامرهم ان يرتادوا منزلاً ينزلون فيه المسلمين لان العرب لا يوافقهم من البلاد الا ما يوافق اهلهم وكتب الى سعد « ابعث سليمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلاً يربياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيؤجر ولا جمر »^(١) ففعل سعد ذلك فاختراروا مكاناً وراء الفرات وبينه وبين الكوفة وبينها اولاً بالنصب كما بنوا البصرة ففعلوا ذلك لتكون المنازل قريبة من الخيام فاحترقت فاستأذنوا عمر في البناء باللبن فاجابهم الى ذلك على شرط ان لا يزيد احدهم على ثلاثة ايات ولا يطاولوها . وكان للكوفة شان كبير عند الشيعة لان الامام علي جعلها عاصمة ملكه الى ان قتل

الفسطاط

هي اول مدن المسلمين في الفطر المصري بناها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة في ما بين القاهرة اليوم ومصر العتيقة . ومن بناها جامع عمرو والاطلال والحرائب حوله الى المقطم . وكان ذلك المكان معسكراً للعرب لما جاؤا لفتح حصن بابل وهو المعروف اليوم بدير النصارى ودير مار جرجس بمصر العتيقة . فلما فتحوه عزموا على الاسكندرية لفتحها فامر عمرو بنزع فسطاطه (اي خيمته) فاذا فيه يوم قد فرخ فاخبروا عمراً بذلك فقال « لقد تحرم بنا بتحرم » فامر بالفسطاط فاقر كما كان واوصى به من بقي هناك من القبط . وسار بجنده حتى نزل الاسكندرية وفتحها وكتب الى الخليفة عمر بالمدينة يخبره بذلك ويستشير بالسكنى فيها . فسأل عمر الرسول « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء » قال « نعم يا امير المؤمنين اذا جرى النيل »

فكتب الى عمرو « اني لا احب ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفاً فنتي اردت ان اركب اليكم راحتي حتى اقدم عليكم قدمت » ^(١) فاستخلف عمرو في الاسكندرية حامية وامر فشدت الرحال الى حصن بابل . فلما بلغوا فسطاط الامير رأوه لا يزال منصوباً وفيه الطيور فتزامل فيو وجعلوا تلك الحبة مركزاً لمسكرهم ودعوا ذلك المكان من ذلك اليوم بالنسطاط . ثم انضمت القبايل بعضها الى بعض وأخذوا في بناء البيوت لسكنى الجيوش فاخذوا عمرو مدينة شمالي الحصن دعاها النسطاط فيها نحو عشرين حارة دعاها خططاً واقام اربعة من كبار رجاله ينزلون الناس في الخطط المذكورة بحسب احزابهم وقبائلهم

ثم اخذت النسطاط تسع وترداد عمارة كلما رست قدم المسلمين في البلاد ونوطد سلطانهم حتى فافت البصر والكوفة في كثير من الوجوه . وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة اميال ^(٢) وذكر مؤرخو العرب من مقدار عمارتها انه كان فيها ٢٦٠٠٠ مسجد و ٨٠٠٠ شارع مسلوك و ١٧٠٠ احمالاً . وقد يستبعد ذلك ولكن ابراده يدل في كل حال على العظمة وال عمران . وما نظمة الشعراء في مدحها قول الشريف العقيلي :

احن الى النسطاط شوقاً وانني لادعوها ان لا تجل بها الفطر

وهل في الحيا من حاجة لجناياها وفي كل قطر من جلاياها ثم

تبدت عروساً والمنظم تاجها - ومن نيلها عقد كما انتظم الدر ^(٣)

وبلغ من تراحم الناس في النسطاط حتى جعلوا المنازل طبقات عديدة بلغ بعضها خمس طبقات الى سبع وربما سكن في البيت الواحد ٢٠٠ من الناس وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠٠٠٠ دينار وهي دار المحرم لخاروبة ^(٤)

واشتهر من تلك الابنية دارٌ ضرب المثل بعظمتها وغنى اهلها تسمى « دار عبد العزيز » كانت مطلة على النيل بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها انهم كانوا يصبون فيها اربع مئة راوية ماء كل يوم . ونقل بعضهم ان الاسطال التي كانت بالطاقيات المطلة على النيل بلغ عددها ١٦٠٠٠ سطل مؤينة بيكر واطناب لها ترخي وتلا . وذكر رجل دخلها في اواخر القرن الثالث للهجرة في زمن خاروبة بن احمد بن طولون

(١) المفريزي ٢٩٦ ج ١ (٢) ابن خوقل ٩٦

(٣) المفريزي ٢٤٠ ج ١ (٤) المفريزي ٢٢٠ ج ١

قال « طابت بها صانعاً بخدمني فلم اجد فيها صانعاً متفرغاً لخدمتي وقيل لي ان كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة فسالت كم فيها من صانع فاخبرت ان بها سبعين (كذا) صانعاً قل من معه دون ثلاثة سوى من قضى حاجته وخرج »^(١)

وفي ذلك دليل على غنى اهل النسطاط ونرفهم ومن هذا النيل استكنارهم من النرش . فقد يقيني اقدم الف فرشة او عشرة آلاف فرشة وذكروا رجلاً من اهل النسطاط عنده ثلاثمائة فرشة كل فرشة لمطوية . وكذلك كانوا يفعلون بالثياب ونحوها — وقد تكون اثمانها فاحشة فلا يبالون لغناها — قال النضاعي ان فطر الدى ابنة خمارويه كان في جملة جهازها الف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير فبلغ ثمنها كلها عشرة آلاف دينار . ناهيك بقائهم في الماء كل والمشارب مما يطول شرحه وقد فصله المفريزي وغيره في كلامهم على النسطاط

بغداد

هي عاصمة العباسيين بناها المنصور سنة ١٤٥ هـ ولا تزال باقية الى اليوم وقد تغير موضعا مراراً . والسبب في بناها ان السفاح لما بويغ بالخلافة واكثر انصاره في العراق وفارس نزل الكوفة ومعه اخوه المنصور . ثم بنى السفاح قرب الانبار مدينة سماها الهاشمية اشارة الى ما يجمع بين العباسيين والعلويين وانتقلا اليها^(٢) وبها مات السفاح وقبر فيها . واقام المنصور في الهاشمية بضع سنين ثم ثار جماعة الراوندية فكن سكتها وخرج يبحث عن مكان يبني فيه مدينة حصينة فدلوه على مكان بغداد وحسنه له فبنى فيه مدينة سماها بغداد وعرفت بمدينة المنصور

بناها في الجانب الغربي لدجلة بشكل مستدير وجعل حولها قطاع لحاشيتو وموالي واتباعه . فلما كانت ايام المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي من دجلة وسي ذلك المكان عسكر المهدي . ثم انتقل اليه الوجهاء واهل الدولة وبنا فيه وانتقلت الخلافة الى الجانب المذكور وامتدت ابنية الخلفاء وحدائقها على ضفة النهر . ويسمى جانب بغداد الشرقي الرصافة والجانب الغربي الكرخ وبلغت بغداد معظم عمارتها في ايام المأمون حتى امتدت ابنتها وبساتينها على بقعة قالوا ان مساحتها ٧٥٠ و٥٢ جريباً منها ٧٥٠ و٢٦ جريباً في الجانب الشرقي

و ٢٧,٠٠٠ في الجانب الغربي ^(١) والجريب ٢,٦٠٠ ذراع مربع ونسبته الى المدن كسبة ١٠٠ : ٢٢٢ فيكون مساحة بغداد كلها نحو ١٦,٠٠٠ فدان وهو شيء كثير . ولكن يظهر انها كانت عبارة عن مدن متلاصقة — قال الخطيب البغدادي في تاريخه انها اربعون مدينة وان الحمامات بلغ عددها في ايام المأمون ٦٥,٠٠٠ حمام ^(٢) وقداراد صاحب سير الملوك بيان مقدار عمارة بغداد فقال « وكان عدد الحمامات في ذلك الوقت ببغداد ستين الف حمام واقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر حامي وقبم وزبال ووقاد وصفا . يكون ذلك ثلاثمائة الف رجل وذكر ان يكون بازاء كل حمام خمسة مساجد يكون ذلك ثلاثمائة الف مسجد وتقدير ذلك ان اقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك الف الف وخمسمائة الف انسان ^(٣) ولا ينطبق هذا النخرج على ما نعلمه من احوال هذه الايام فلا نعلم به كما هو ولكم بدلنا على ما بلغت اليه هذه المدينة من العظمة في عهد ذلك السيد العجيب . وقد يؤيد ذلك ما رواه الطبري في اثناء كلامه عن الفتنة التي وقعت في بغداد سنة ٢٥٥ هـ قال « وقيل انه عبر المجربين من العامة في ذلك الوقت ١٠٠,٠٠٠ انسان في الزوارق . » ^(٤) فاذا كان هذا عدد الذين عبروا النهر فما قولك بمن لم يعبر فلا تبلغ اذا جعلنا عدد سكان بغداد في ذلك العهد نحو مليون ونصف او مليونين ناهيك بما كان من العمارة حول بغداد وفي سائر بلاد السواد — قال ابن حوقل وقد رآها في اثناء القرن الرابع للهجرة « وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متباعد تخترق اليه انهار من الفرات ٠٠ الخ » ^(٥)

وهناك مدائن اخرى من بناء المسلمين ذات شأن كالقير وان في بلاد المغرب وواسط في العراق وغيرها في مصر والشام وفارس . ناهيك بالمدائن التي كانت عامرة قبل الاسلام وقد نزل فيها المسلمون وزادوا عمارتها مثل دمشق الشام وقرطبة وغرناطة وطليطلة والاسكندرية . وسنأتي على شيء كثير من حضارة هذه المدن وغيرها في ما سنذكره من حالها الاجتماعية في بعض الاجزاء الآتية ان شاء الله

« تم الجزء الثاني »

(١) سير الملوك ٥٥ (٢) ابن خلدون ٢٨٧ ج ١ (٣) سير الملوك ٥٥

(٤) الطبري ١٧٢٠ ج ٢ (٥) ابن حوقل ١٦٦

فهرست الجزء الثاني
من تاريخ النهدن الاسلامي

صفحة	صفحة
١٠١	المقدمة ٢
١٠٢	ظواهر النهدن وحقيقتها ٩
١٠٦	ثروة الدولة في عصر النبي ١٠
١٠٦	» » » الراشدين ١١
١١٢	» » » بني أمية ١٨
١١٤	العصر العباسي الاول ٢٨
١٢١	ثروة الدولة العباسية في العصر الاول ٢٢
» اسباب قلة الجباية *	جغرافية مملكة الاسلام في عصر المأمون ٢٧
١٢٢	علافة الاعمال العباسية بالعاصمة ٤٦
١٢٤	جباية الدولة العباسية في العصر الاول ٤٩
١٢٦	مجموع » » » » ٦٤
١٢٧	نفقات الدولة العباسية ٦٥
١٢٨	» » » في ايام المعتضد ٦٧
» اسباب كثرة النفقات *	تقدير هذه الثروة بنقد اليوم ٧٠
١٢٢	» اسباب كثرة الخراج *
١٤١	سعة المملكة العباسية ٧٤
١٤٢	اشتغال الناس بالزراعة ٧٦
١٦١	ثقل الخراج المضروب ٨٥
١٦٤	سائر مصادر الجباية ٩١
١٧٧	صدق العمال في ارسال المال المجموع ٩٥
١٨٠	» اسباب قلة النفقة *
١٨٤	قوة الموظفين ٩٦
	ثروة البلاد الاسلامية وإهلها
	المدن الاسلامية

اصلاح خطأ

وقع في الجزء الاول

صواب	خطأ	سطر	صفحة
...	وبنو قريظة	٥	٢٩
وهو ليس اكبر المهاجر بن سناً لكن الصحابة لم يكونوا مغير بن في خلافته بعد وصاية ابي بكر له بها	وهو اكبر سائر المهاجر بن سناً	٢١	٤٥
بالي جهل بن هشام	بجمرة بن عبد المطلب	١٩	٥٠
وطليحة ومعاوية	ومعاوية وطليحة	٦	٦٥
وخلفه ابن عمه	وخلفه عمه	٧	٦٨
كللاً	كللاً	١٢	٨٢
ما يزيد	ما يزيد	٦	٨٤
بن عبد مناف	وبنو عبد مناف	٢١	١٦٦



مصر وظهور المهدي ووافقة ميسر الى سقوط الخرطوم وحادثه سنة ١٨٦٠ في دمشق .

ثمها ١٠ صاغ واجرة البريد ٢

(١٠) * استبعاد الممالك * (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن

حوادث آخر القرن الثامن عشر وفيها ما كان يرتكبه الممالك من الظلم والجور في
حكومتهم بمصر وعاداتهم وأخلاقهم ثمها ثمانية قروش واجرة البوسطة قرش ونصف

(١١) * جهاد المحبين * رواية ادبية غرامية تمثل عواطف المحبين وما

لاقوه من المصيبة في سبيل الحب ثمها ٦ قروش صاغ واجرة البوسطة قرش ونصف

(١٢) * تاريخ مصر الحديث * من الفتح الاسلامي الى هذه الايام مع

ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيه مائة رسم واربع خارطات ثمه اربعون

قرشاً صاغاً واجرة البوسطة ٥ قروش

(١٣) * تاريخ الماسونية العام * وهو تاريخ الجمعية الماسونية منذ

شأتها الى هذه الايام ثمه عشرون قرشاً صاغاً واجرة البوسطة قرشان

(١٤) * التاريخ العام * الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك اسبانيا

وافريقيا وخصوصاً مصر مزين بالرسوم ثمه ثمانية قروش صاغ واجرة البوسطة قرش واحد

(١٥) * علم الفراسة الحديث * يبحث في استطلاع اخلاق الناس

من النظر الى ملامح وجوههم وتركيب اعضائهم . وهو مؤسس على الاكتشافات

العلمية الحديثة ومبني على العلم الطبيعي وينتعل بالنواميس الطبيعية في التفسير

والنيسولوجيا . وفي الكتاب ٢٧٠ رسماً جميلاً لتوضيح نواميس الفراسة بها

وثن النسخة ١٥ قرشاً واجرة البوسطة قرشان

(١٦) * الفلسفة اللغوية * فيها بحث تحليلي للالفاظ العربية على نسق

لم يسبق اليه . ثمها عشرة قروش واجرة البوسطة قرش واحد

(١٧) * جغرافية مصر * (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديرية

والمحافظات وخصوصاً القاهرة ثمها وحدها ثلاثة قروش ومع الخارطة ٥

(١٨) * ردّ رنان * ردّ على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمه قرش واحد

(١٩) * ملخص تاريخ اليونان والرومان * مزين بالرسوم ثمه ثلاثة

قروش والبوسطة عشرون باره

(٢٠) * تاريخ انكلترا * هو ملخص تاريخها ينتهي الى آخر الدولة اليوركية

سنة ١٤٨٥ وفيه رسوم واشكال ثمه ٤ قروش والبوسطة قرش

وتطلب هذه الكتب من مكتبة الهلال او ادارة الهلال بالفجالة بمصر

تراجم مشاهير الشرق

الجزء الاول والثاني

صدر الجزء الثاني من تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر تأليف جرجي زيدان مؤلف هذا الكتاب وفيه تراجم الذين اشتهروا في الشرق بالعلم والادب والشعر ورسومهم مطبوعة على ورق جميل وهذه اسماؤهم حسب ترتيبها في الكتاب	
المقدمة	(سائر رجال العلم والادب)
الشيخ محمد العباسي المهدي	امين شميل
امين باشا فكري	محمد علي باشا الحكيم
الدكتور دري باشا	ماريت باشا
الشيخ امين المجددي	السيد صالح مجدي بك
المعلم بطرس كرامة	سليم بستر
عبد الباقي المصري	محمود باشا الفلكي
فرنسيس فتح الله مراد	نوفل نعمة الله نوفل
السيد عبد الغفار الاخضر	الدكتور عنائيل مشافة
الحاج عمر الانسي	الشيخ عبد الهادي نجلا الياري
الشيخ خليل البازجي	شفيق بك منصور
عبد الله باشا فكري	الشيخ يوسف الاسير
اسعد طراد	الشيخ ابراهيم الاحدب
المعلم ناجي	احمد جودت باشا
الياس صالح	محمد مختار باشا المصري
نجيب الحداد	الشهاب الالوسي
	محمود حمزة الحميني
الشيخ ناصيف البازجي	الدكتور كزيبوس فان ديك
رفاعة بك رافع	السيد جمال الدين الانفاني
بطرس البستاني	السيد احمد خان
علي باشا مبارك	عمر الماشون وكاتب الجرائد
	اديب استحق
	احمد فارس الشدياق
	محمد نامق كمال بك
	سليم بك نقلا
	المود عبد الله نديم

صفحات هذا الجزء ٢٤٤ صفحة وفيه ٣٩ صورة وثمن النسخة ١٥ قرشاً .

وفي الجزء الاول ٢٢٠ صفحة و٧٢ صورة مع تراجم الذين اشتهروا في الشرق بالسياسة او الادارة او الحرب . والجزءان يطلبان من ادارة الهلال بصر وثمنها معاً ثلاثون قرشاً واجرة البريد اربعة قروش

